نصوص أدبية من المملكة العربية السعودية ـ ١

ثمن التضحية

حامد دمنهوري

(١٣٤٠ ـ ١٣٨٥ هـ)

النادي الأدبي ـ الرياض

١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م

نصوص أدبيـــة من المملكـــة العربيـــة السعودية
تهتم بالأعمال الإبداعية
تصـــدر عن النادى الأدبي بالرياض

الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
النادي الأدبي - الرياض ص.ب ٨٥٣١
هاتف ٦٦٦٣٠
المملكة العربية السعودية .


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات



نبذة عن حامد دمنهوري

ولد حامد حسين جابر دمنهوري في مكة المكرمة عام ١٣٤٠ هجرية، وفيها نشأ ودرس حتى تخرج من المعهد العلمي السعودي عام ١٣٥٨ هجرية ، وبعد ذلك سافر في منحة دراسية إلى مصر حيث التحق بكلية دار العلوم بالقاهرة وحصل على دبلومها عام ١٩٤٤ بعد أن درس عامين فيها ، ثم بكلية الآداب في جامعة الإسكندرية (فاروق الأول سابقاً) ، وفيها حصل على درجة البكالوريس في الآداب .

وبعد تخرجه عاد إلى الوطن فعمل مدرسا ، وكانت أول مدرسة عمل بها هي مدرسة تحضير البعثات بمكة المكرمة . . ثم نقل منها إلى المدرسة النموذجية بالطائف ثم انتقل إلى وظيفة مفتش بديوان النيابة ثم أصبح مفتشا عاما مساعدا بوزارة الداخلية ، ثم نقل إلى المعارف حيث تدرج حتى أصبح وكيلا لوزارة المعارف.

وقد شارك الدمنهوري في الحركة الثقافية في المملكة العربية السعودية في بداية الأمر بقول الشعر وقد نظم خلال فترة وجيزة قصائد تكون ديواناً مناسب الحجم لو جمعت. وامتاز شعره بالغنائية واتسم بعاطفة جياشة متوقدة والأبيات التالية أنموذج من شعره ، وهي من قصيدة (عودة الماضي) .

هذا هو الماضي أثرت شجونـــه   حرى أكابدها بقلبي الموجع
الذكريات وأمسي الزاهي الـذي   هدهدته وأذبته من أدمعي
وشتات آمال - بقين - حطمتها   وذروتها نهب الرياح ببلقع

وإلى جانب الشعر شارك بمقالات وأبحاث نشرها في المنهل والبلاد السعودية وغيرهما ، ومن أبحاثه « أمثالنا العامية » نشر في المنهل (رجب ١٣٦٩ هجرية وشعبان ١٣٦٩ هجرية) كما كانت له أبحاث تربوية جيدة .

وتعتبر ثمن التضحية أشهر رواية سعودية وقد حظيت باهتمام عربي وعالمي فنقلت إلى الانجليزية بواسطة غ . شاهبندر ، وصدرت في بيروت عام١٩٦٥ ميلادية في ١٠٦ صفحة كما نقلها.ج دبدفا إلى الروسية ، وصدرت في موسكو سنة ١٩٦٦ ميلادية في ١١٠ صفحة .

وقد كان ظهور هذه الرواية أول الأمر على حلقات في جريدة حراء ، وكانت الحلقة الأولى في العدد ١٨٣ (الخميس ٢٣ ربيع الثاني ١٣٧٨ هـ) ثم ظهرت الطبعة الأولى منها عن دار الفكر بالرياض في عام ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م في ٤٠٤ صفحة .

ومن أبرز المصادر التي يجد فيها القارىء معلومات عن الدمنهوري ، خاصة فيما يتعلق بحياته :

١ – شخصيات تعليمية (حامد دمنهوري) البلاد السعودية ع ١٤٨٣ (الأحد ٢٥ جمادي الثانية ١٣٧٣ هـ) .

٢ – « عدد خاص بتراجم وأدب أدباء المملكة العربية السعودية » المنهل (رجب ١٣٨٦ هـ) ص ص ٨٤٦ – ٨٤٧ .

٣ – الموسوعة الأدبية لعبد السلام الساسي ، الجزء الثاني ص ص ٢٣ – ٣١ .

كما أن هناك العديد من الدراسات التي تناولت أعماله خاصة « ثمن التضحية » نذكر منها ما كتبه كل من منصور الحازمي ، ومنصور الحريجي عن « ثمن التضحية » في العدد الثالث من مجلة جامعة الرياض (١٣٧٩ هـ) ، ودراسة عزت محمد ابراهيم (الفن الروائي عند حامد دمنهوري) في مجلة الفيصل (شوال ١٣٩٨ هـ) .

وقد توفي حامد دمنهوري عام ١٣٨٥ هجرية عن عمر يناهز الخمسة وأربعين عاما .

يحي ساعاتي

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم الدكتور منصور الحازمي

عندما ظهرت رواية « ثمن التضحية » سنة ١٣٧٨ هـ ، الموافق ١٩٥٩ م ، لم يكن في محصول الأدب السعودي من الفن الروائي سوى النزر اليسير : « التوأمان » لعبد القدوس الأنصاري (١٩٣٠ م) ، و « فكرة » لأحمد السباعي (١٩٤٨ م) ، و « البعث » لمحمد على مغربي (١٩٤٨ م)، وما يماثلها من محاولات قصصية ضئيلة ، نصيب الوعظ والتعليم فيها أكثر من نصيب الفن والأدب . وما أشبه رواية « ثمن التضحية » برواية « زينب » لمحمد حسين هيكل فقد ظهرت سنة ١٩١٤ م ، وأعتبُرت أول رواية عربية على الرغم من المحاولات القصصية الكثيرة التي سبقتها ، وما ذلك إلا لأن رواية « زينب » قد توفر لها من الجوانب الفنية ما لم يتوفر في جميع المحاولات القصصية

الأولى . وما أجدر رواية المرحوم حامد دمنهوري بهذه المكانة، إذا ما أردنا أن نؤرخ للرواية في الأدب السعودي الحديث .

تصور رواية « ثمن التضحية » ، إلى جانب موضوعها العاطفي الرئيسي ، جوانب أخرى تتخلل التركيب الفني وتسير معه في تطور مستمر ، ينشط أحياناً ويبطيء أخرى ، ويحاول الكاتب في كلتا الحالتين أن يجمع الخيوط المتناثرة التي تكوّن بإجتماعها نسيج العمل الفني ، وأن يحبكها في وحدة متماسكة ، هي المعيار الحقيقي لنجاح أي عمل يتسم بالفنية والصدق . أما هذه الجوانب فتتلخص في ثلاث مسائل رئيسية :

الأولى : تصوير البيئة الحجازية .

الثانية : انبثاق الوعي وبدء ظهور الطبقة المتوسطة المتعلمة المثقفة .

الثالثة : مشكلة تعليم الفتاة ومشكلة الزواج .

ونرى أن المؤلف قد أجاد في تصوير الأولى والثانية ، أما الثالثة فقد كانت صراعا يشوبه الكثير من القلق والغموض .

فإذا ما رجعنا إلى النقطتين الأوليين ، وجدنا أن الكاتب

قد نقل إلينا في واقعيه ودقة ، صوراً حية عن البيئة الحجازية في مجالات مختلفة ، تشمل المنزل والحارة والشارع . . . وفي طبقة معينة ، هي طبقة التجار ، التي تؤلف في مجموعها الغالبية العظمى من سكان مكة . . وحياة الأسره الحجازية يبرزها المؤلف في أول قصته لوحة ناطقة لأسرة يرتبط أفرادها برباط الحب والتضامن والوفاء . وهي تضم الطفل والشاب والشيخ . وأن عبرت بصورتها هذه عن مفارقات السن ، فإنها تعبر من ناحية أخرى عن تفاوت في العقلية ، وتباين في المدارك والأحاسيس . ولعل هذه اللوحة ، التي رسمتها لنا يد المؤلف بمهارة ، إنما ترمز إلى حلقات ثلاث ، متشابكة أبدا في ترابط والتحام : الماضي والحاضر والمستقبل. الماضي ويمثله والدا أحمد ، والحاضر الطامح إلى المستقبل ، ويمثله أحمد البطل ، والمستقبل أو الجيل المنتظر وتمثله الطفولة في أشخاص زينب ويحي وزين .

الماضي الذي حرم التعليم ولم يحرم طيبة القلب ونبل المشاعر – حرم مادية العلم واستعاض عنه بإشراقة الروح وعمق العاطفة . ونلمس هنا براعة المؤلف في اعطائنا

مشهداً طريفاً عن طيبة الجيل الماضي وسذاجته ومدى تعلقه بالعادات والتقاليد ، وتشبثه ، بقيم روحية تصل في بعض الأحيان إلى الإيمان بخرافات مضحكة ، تسربت إلى نفوسهم من خلال العصور الغابرة ، عصور الجهل والظلام :

كان أحمد يجلس بالقرب من النافذة على الأريكة الخشبية العريضة المكسوة بقماش حريري مشجر ، مستندا بيمناه على وسادة ضخمة ، وقد وضع كتابه في حجره ، متتبعاً الآذان في صمت ، حينما التفتت إليه أمه في انزعاج تأمره بتغطية رأسه ، فيصدع لأمرها بوضع يمناه على رأسه ، كأنما يرى في ذلك ما يكفي للتعبير عن طاعة والدته — ولكنها تشير إلى « غترته » المعلقة ، فيسرع إلى التقاطها ويضعها على رأسه . غير أنها لا تكتفي بذلك بل تسارع إلى التعليق على ما بدر منه قائلة :

« لقد نصحتكم مراراً بتغطية رؤوسكم وقت الآذان ، فلقد كبرتم في السن ولكن عقولكم آخذة في النقصان . مافائدة العلم الذي تتعلمونه إذا لم تستخدموه فيما يفيدكم ».

ولعل هذه الحادثة الطريفة تصور لنا صراعاً بين جيلين ،

ومفارقات بين عقليتين : جيل تسيطر على إدراكه مؤثرات مختلفة ، قوامها العادة والخرافة والأسطورة ، وجيل واع متعلم ، يحاول أن يمحو تلك الأوهام من أذهان أقربائه . أن يمحوها من أسرته أولا قبل توسيع الدائرة إلى نطاق جماعي أشمل . وها هو ذا أحمد يحاول أن يقنع والدته بعبث هذه التعاليم وانها ليست من صميم الدين « إلا أنها تحاول تثبيت ذلك في ذهنه بشتى الطرق ، فقد أشارت له مرة بأن والديها قد لقناها ذلك منذ صغرها » . . .

ومن محيط الأسرة تنقلنا عدسة الكاتب إلى الشارع ، شارع سويقة ، وهو نقطة التجمع لتجار الأقمشة والملابس الجاهزة والعطور وغيرها . وتعرض أمامنا صورة واقعية منتزعة من الوسط الشعبي : أساليب البيع والشراء ، وطرق العرض والمساومة ، إلى غير ذلك مما يحذقه التجار الذين توارثوا هذه المهنة أباً عن جد . كما يعرض المؤلف لمشاكل هذه الفئة من الناس ، وأحاديثهم التي تدور دائماً حول المسائل الإقتصادية التي تهمهم . فالحرب ، مثلا ، لا توقظ الشعور القومي أو الإنساني ، بقدر ما تجلب الدمار على البلاد وتعطل الإستيراد .

وأمور الإصلاح في الوطن لا تروق التاجر الجشع ، إذا كان في ذلك مساس بتجارته وثروته . وحرية تأجير العقار مصدر شكوى إذا كان مستأجراً ، ومصدر خير وبركة إذا كان مؤجّرا . والشيخ سالم هو النموذج الحي الذي رسمته يد الفنان بمهارة لتمثيل دور هذا التاجر الأناني ، الذي يتميز إلى جانب ذلك بخفة الظل والمرح والفكاهة .

وينقلنا الأستاذ حامد مرة أخرى إلى الحارة ليقدم لنا صورة دقيقة عن مظاهر الزفاف في البيئة الحجازية ، وما يتخذ له من استعدادات ، وما يتبع فيه من تقاليد لإحياء لياليه والمشاركة في اسماره الحلوة المشرقة . ونجد في هذا الوصف الصادق الممتع روعة ودقة ، لا سيما حينما يطلعنا على أحاديث الشباب ومرحهم ، وثرثرة النسوة وصوت المغنى ، وتضامن أولاد الحارة . كل هذه صور شعبية واقعية ناطقة ، نكاد نراها بأبصارنا ، ونلمسها بحواسنا ، ونحن إليها بعواطفنا وأفكارنا .

أما انبثاق الوعي وبدء ظهور الطبقة المتوسطة ، فإن الكاتب يؤرخ لهما في قصته ، ويجلو النقاب عن هذه المرحلة

الحاسمة في تاريخ مجتمعنا السعودي الناهض . لقد بدأ الناس يشعرون بقيمة العلم ، وحاجة البلاد إلى المتعلمين والمثقفين ثقافات عالية . وهذه المرحلة الإنقلابية في حياتنا العقلية ، كانت في بداية الأمر تخطو ببطء ، إذ كانت بعض الأسر تنظر إلى التعليم الجامعي نظرة الحذر والتأني والتردد . إلا أن الأمثلة العظيمة التي كان يضربها الشباب الجامعي المتخرج ، أخذت تبعث الطمأنينة في نفوس الأسر المتوسطة والفقيرة على حد سواء ، وتحثهم على السماح لأبنائهم بمواصلة دراساتهم العالية ، على الرغم من حاجة الأسر الفقيرة إلى معونة ابنائهم المادية والمعنوية .

وها هو الشيخ عثمان ، المعلم البنا ، « الرجل الكادح الذي يتحصل على الرغيف بالمجهود الجبار المتواصل» يقتنع برأي جاره الأستاذ علي في السماح لابنه بمواصلة دراسته الجامعية :

« إن ابنك ياشيخ عثمان سوف يعود إليك حاملا في يده شهادة جامعية ، وسوف يتساوى بابن فلان وابن فلان ، وأنت أعرف بهم مني ، وربما فاقهم في الحياة العملية .

اتركه يجرب حظه ، فقد خلق لجيل آخر . كما أنه سوف يحمل عبء شيخوختك المقبلة » .

مرحلة الإنتقال ومرحلة الوعي ، مرحلتان هامتان ، جلاهما المؤلف في دقة ووضوح . فانتعاش العلم إلى جانب الروح ، هما السبيلان الوحيدان لإسعاد البشرية ، وانتشالها من وهدة الفقر المادي والقلق النفسي . حتى الأميون ومن عرفوا مباديء القراءة والكتابة ، بدأوا يدركون قيمة العلم . وها هي فاطمة تتحدث إلى أمها قائلة :

« إن المستقبل للمتعلمين . وأعتقد أن بلادنا سوف تكون ميدانا فسيحا لكل متعلم . أما الجاهل فسوف يضيق بحياته حينما تتطور مطالبه وتتضاعف احتياجاته » .

أما الجانب الثالث : مشكلة تعليم الفتاة ومشكلة الزواج — فهو الموضوع العاطفي الرئيسي الذي تدور عليه حبكة القصة . فابنة عمه (فاطمة) ليست في الحقيقة سوى رمز للفتاة المتخلفة فكرياً ، التي لا تستطيع أن تحقق التوافق أو الإنسجام مع الشاب المثقف الواعي . وهي لا تعبر عن فردية مطلقة في عدم تكافئها فكرياً مع ابن عمها أحمد ، وإنما هي نموذج

يجسد طبقة بكاملها من بنات جنسها .

إن القلق الذي يجتاح نفسية فاطمة خلال الفترة التي قضاها ابن عمها بعيدا عنها في مصر ، إنما يرمز للقلق الذي كان يعتلج في صدور فتياتنا في ذلك الوقت . فهي تكره الإنتظار وتخاف المستقبل . إنها تخشى تغير فتاها . تخشى أن يكون قد وجد الفتاة المثقفة التي يركن إليها ويحس بالراحة النفسية نحوها . تخشى أن يستعيض بالفكر والتلاؤم الذهني عن العاطفة الساذجة ، على الرغم من ارتباطها معه برباط مقدس. ويبرع الدمنهوري في تجسيم هذا القلق النفسي الذي يجثم على صدر فاطمة :

« ربما يشعر في يوم ما أنها حمل ثقيل ، يجب التخلص منه ، وقيد يعوقه يجب الإنفكاك عنه . سوف يرى الفتاة المثقفة المتعلمة التي تشبع احتياجاته النفسية وترضي انطلاقه الفكري الجديد » .

أما فائزة فهي الطرف المضاد لفاطمة . إنها مثال للفتاة المتعلمة المثقفة التي يجد فيها الشاب الجامعي عروس أحلامه ، ومنتهى أمانيه في الترابط الفكري والإستقرار الروحي .

لقد أراد المؤلف أن يجسد مشكلة الشباب الجامعي من خلال شخصية البطل ، ولكنه أختار بطلا حيياً محافظا متردداً ، ولعل فيه الكثير من شخصية المؤلف نفسه . حقا أن المؤلف قد اطلعنا منذ بداية الفصل الأول على تحمس أحمد واهتمامه بتعليم أخته زينب ، ولكنه يقابل آراء أخيه الطفل — الذي يحاول أن يثني أخته عن الدراسة — بالصمت المطبق :

« وكأنما يترك للأيام الإجابة على ما يدور في خلد أخته من أسئلة . . . » .

ويستمر هذا الصمت أيضا من جانب أحمد في الفصل الحادي عشر ، حينما يحرجه زميله مصطفى بسؤاله عن مستوى تعليم الفتيات السعوديات — وحينما يجيبه بأنه مستوى كتاتيب ، يطل علينا المؤلف في تعليق مصطفى وفي لهجة خطابية :

« ولكن ذلك لا يفي بالغرض . إن المرأة نصفنا الآخر . نصفنا الذي يبني داخل البيت . نصفنا الذي يضع الأساس ثم نأتي نحن ونكمل البناء » . ولكن أحمد يصمت « لا

يدري ماذا يقول » .

إن الصراع الذي نشب في نفس أحمد لم يكن إلا نتيجة لهذه المشكلة التي يحس بها ، ويكظمها في صمت . إنه لم يعجب بفائزة إلا من خلال هذه الأحاسيس الدفينة ، التي استطاعت أن تتنفس ، وأن تجد حلا لها في شخصية فائزة.

وأخيراً يصمت البطل أيضا . وصمته هنا فرار من الواقع المرير الذي يعيشه . لقد ضحى بفائزة وفاطمة هي الثمن . ضحى بالفكر ، وما أعظمها تضحية .

* * *

لقد أحسن المؤلف صنعا عندما كتب حواره باللغة العربية الفصيحة . وكثيراً ما اختلف النقاد والأدباء حول استعمال العامية في السرد أو الحوار ، وأساغها بعضهم في كلتا الحالتين ، ولم يسغها البعض ، بل استبعدها جملة في مجال العمل الأدبي . كما توسط آخرون فأجازوها في الحوار دون السرد لا العكس .

وأرى أننا في حاجة إلى استعمال الفصيحة في الحوار والسرد معا، بشرط أن تكون هذه اللغة قريبة من اللغة اليومية

التي نتخاطب بها ، بعيدة من جهة أخرى عن الإسفاف والإبتذال . وإذا أردنا أن نقرب بين الفصيحة والعامية ، فإننا نقرب في واقع الأمر بين أحاسيس العرب ومشاعرهم ، فيفهم الأثر الأدبي في كل جزء من أجزاء الوطن العربي الكبير .

على أن الحوار ، وهو منتزع من البيئة المحلية ، يتطلب قوالب معينة من التعبير تحمل الطابع العربي الفصيح ، كما تحمل النكهة المحلية الأصيلة . ولقد زاوج المؤلف بين هذين الغرضين في حواره ، ووفق في ترجمة الأفكار العامية إلى اللغة الفصيحة ، ومزجها أحيانا ببعض الكلمات والأمثال العامية الخفيفة :

« الضّعف . فال الله ولا فالك يا شيخ — كيف ندفع ضعف الإيجار الحالى ؟ » « شرشف ، بوال ، برزه » ، « جيتك يا عبد المعين تعيني » ، « أحيني اليوم وأمتني غداً » ، « وكأننا يا بدر » . الـــخ .

وعندما تقصر عبارات الحوار ، وتعبر تعبيرا نافذا في نفس القاريء نشعر هنا بالقيمة الفنية لهذا الحديث الذي

يجربه الكاتب على السنة شخصياته . إنه ليس مجرد كلام أو ملء فراغ ، ولكنه ربط للحوادث وتطور بها ، وازاحة للستار المضروب على النوازع الداخلية للشخصيات . وأحس أن المؤلف قد وفق في الحوار الذي أداره بين أحمد وأصدقائه الثلاثة ، ولا سيما ابراهيم ، في الشهور الأولى من وصولهم إلى مصر . إنه يعبر تعبيرا صادقا عن حياة الطالب السعودي — الطالب الجامعي الذي انتقل من بيئة إلى بيئة ، من مجتمع إلى مجتمع ، من عادات ومثاليات إلى عادات ومثاليات أخرى جديدة . نحس أن المؤلف هنا يضفي على الحوار روحا خفيفا ممتعا لم نعهده في أول الرواية ، فنشعر فيه بالحياة وبسرعة الحركة وتفاعل الأنفس واضطرابها .

ويعمد المؤلف إلى التحليل النفسي في رسم ملامح الشخصية وتطور الحدث . وهي طريقة تقوم على تداعي الأفكار وإجراء الصراع من الداخل . ومع ما لهذه الطريقة من حسنات ، فإنها لا تلبث أن تحيد عن غرضها المرسوم ، إن هي أمعنت في تطبيق نظريات علم النفس وأهملت الجانب الفني للقصة ، وحالت دون انسياب الحوادث في

مجراها الطبيعي ، ولم يتورط الأستاذ حامد في تعقيد التحليل النفسي لشخصياته ، بل جعله بسيطا لا تكلف فيه ولا إجهاد ، وإن كان يرتفع من غير شك عن سطحية الوصف الخارجي وسرد الحوادث اليوميه . ولا ريب أن تسليط الأضواء إلى أعماق الشخصية وإجراء الحوار من الداخل ، ما هو إلا قطع للحادثة الخارجية ووصلها مباشرة بوشائج باطنية عميقة ، هي جوهر النفس ومنبع الأحاسيس والمصدر الحقيقي للدوافع السلوكية للشخصية . يقول الأستاذ محمود تيمور :

« إذا لم نشق ستار هـذا العقل الواعي شيئاً لنستشف مايعتلج في طوايا الحياة وسرائرها من اهواء النفوس ودخائلها ، لم تكن لنا أية قدرة على أن نبرز صورة الشخصية التي نعالجها بينة الجوانب تامة الأوضاع . وإن كاتبا يقتصر على العقل الواعي فيما يزاول من عمله الفني لهو كاتب يقنع بقشور الظواهر ، ويكتفي بالمعالم الطافية ، فلا يخرج من ذلك إلا بصورة زائفة ، وسراب كاذب لا يغنيه من حقيقة الحياة شيئاً » .

وينزع الأستاذ حامد دمنهوري نزعة واقعية في أسلوبه عندما يصور الفترة التاريخية الجديدة في حياة المجتمع السعودي بصورة عامة ، والبيئة الإجتماعية الحجازية بصورة خاصة . ولكنه لا يخلو في بعض الأحيان من نزعة رومانسية رقيقة ، ولا سيما عندما يتحدث عن العاطفة . وربما أدرك القصاص الشاعر أن أحاديث العاطفة ينبغي أن تصاغ في قوالب بلورية شفافة ، تعكس جوهر النفس البشرية وما يطفو على صفحتها الحساسة من آمال وآلام :

« إن خفقة من خفقات قلبي تعدل كل حياتهم أجمعين ».

خفقـــة من خفقات قلب أحمد لابنـــة عمه فاطمة .

وأحمد يحس بشيء في صدره يكاد يملك عليه جميع أقطار نفسه ، يحس بالسعادة ، ولكنه لا يعرف كنهها : « لم يكن أحمد يعرف لذلك الشيء العظيم الذي عاش في وجدانه ينبض بالحياة والأمل المشرق معنى يستطيع الإفصاح عنه أو شرحه ، ولو سئل عنه لأعياه الجواب » . وحيث العاطفة أيضا تتأجج في صدر أب عطوف أو تشع عن عيني ابنة بارة أو زوجة وفية . يقول : « فعائلة الشيخ عبد الرحيم ،

هذه العائلة الصغيرة ، التي ملأت عليه دنياه الرحيبة في ابتسامة ندية يراها على ثغر زوجه صفية أو لمحة من سعادة يجدها على محيا ابنته . . . » .

ولعل الشاعر الغنائي الذي تحول كاتبا قصصيا ، بهذه المحاولة الأولى ، يأبي إلا أن يكمن أحياناً بين سطور الرواية، ثم لا يلبث أن يختفي عندما تبرز مرة أخرى قضايا المجتمع وملامح الوصف الموضوعي . ولقد عرف تاريخ الأدب الانجليزي شعراء غنائيين تحولوا إلى كتاب قصصيين ، فوضحت في أعمالهم الروائية المبكرة بعض البصمات الشعرية التي تتسم بقوة العاطفة وجموح الخيال ، وذلك مثل جورج ميريدث George Meredith وتوماس هاردي Thomas Hardy في القرن التاسع عشـــر وأوائل القرن العشرين .

وقوة الأسلوب الذي نلمسه في الرواية بصورة عامة ، نابع من ثقافة الكاتب العربية ، وتمكنه من اللغة وأساليبها ، بل إن انطلاق أسلوبه وسلاسته يجعلاننا نحس باسترخاء المؤلف في كتابة قصته وعدم تكلفه فيها . وهي قدرة تعتمد

على أدوات الصنعة اعتمادها على الموهبة والمران .

ومع أهمية رواية « ثمن التضحية » ، وريادتها في ميدان الرواية الطويلة في الأدب السعودي المعاصر ، فإنها لم تخل من بعض جوانب الضعف ، ولا سيما فيما يتعلق بالبناء القصصي . ومن هذا الضعف بساطة الحادثة وبطء الحركة وضعف عنصر التشويق . ولا أعتقد أن رواية المرحوم حامد الدمنهوري الثانية : « ومرت الأيام » قد أضافت جديداً إلى روايته الأولى ، بل هي انتكاسه – فيما أرى – بالنسبة للتطور المنتظر في فنه القصصي . ففي الأخيرة تخلخل واضح في البناء ، وضعف في التشخيص وتكلف في الحوار ، وهي تخلو من تلك الروح المرحة المتفائلة ، والفكاهة الحلوة ، التي لمسناها في بعض فصول روايته الأولى : « ثمن التضحية ».

ومهما يكن ، فإن المنية قد اختطفت حامد دمنهوري وهو لا يزال في سن العطاء والإنتاج (١٣٤٠ – ١٣٨٥ هـ). وقد فقدنا بوفاته قصصياً واعدا كان حريا أن يسد هذا الفراغ الذي نحسه في ميدان القصة الطويلة والأدب القصصي بصورة عامة .

كان أديبا ملتزما ، حيا ، مهذبا ، هادئا وذا أخلاق فاضلة . ورواية « ثمن التضحية » صورة طبق الأصل لشخصيته ، إنها أقرب إلى السيرة الذاتية .

« رحمه الله رحمة واسـعة »

د . منصور ابراهيم الحازمي

الرياض في ٨-١٠-١٣٩٩ . هـ

مقدمة الطبعة الاولى

بقلم الأستاذ عبد الله عبد الجبار

ان الرواية أو القصة الطويلة عمل فني ضخم بل لعلها أضخم الأعمال الفنية على الإطلاق ، ولا يستطيع التحليق فيها إلا ذوو المواهب القوية ، والخيال الخلاق . وما أشبه الروائي أو القصاص الناجح بلاعب الشطرنج الأعمى الذي يتغلب على منافسيه من المبصرين ! ! والسر في نجاحه أنه يدرك ببصيرته النافذة ، وذاكرته الواعية رقعة اللعب في واقعها ، وفي كل احتمالاتها ، التي تنشأ عن تحريك هذا الحجر أو ذاك من الأحجار التي تلعب في مجاله أو في مجال خصمه على السواء . وأي خطأ جوهري في هذا الإدراك يسبب له الفشل أو الإخفاق .

ولم أشبهه بالأعمى إلا لأصور مدى صعوبة المهمة التي يتصدى لها الروائي الفنان . فإن عليه أن يعي الأحداث ، والأشخاص ، والزمان ، والظروف ، والأحوال ،وطبائع النفوس ، وسمات العصور ، ويرسم بدقة صراع العواطف ، والمبادىء والأفكار ، ويعي في ذاكرته مختلف العادات والتقاليد وأعظم الأشياء . إن عليه أن يخلق نموذجاً بشريا

واحداً من عشرات الأشخاص الذين يصادفهم في الحياة . وإن عليه أن يرسم بالكلام ما يؤدي به أبرع الممثلين — بالحركات والنبرات — المشهد الذي يقول فيه « قيصر » هذه الجملة : « حتى أنت يا بروتس ؟ ! » .

وقد تكون القصة خيالية أو واقعية ، عاطفية أو إنسانية ، أو إجتماعية ، أو وطنية ، أو مزيجاً من هذه الألوان جميعها أو بعضها ، وقد تكون قصة « أبطال » ، أو قصة « أحداث » ، وقد تكون قصة تمثل الطبقة الأرستقراطية أو البرجوازية ، أو العمالية مما لا محل لتفصيله .

ومهما قيل في الخصائص التي يتسم بها العمل الفني الناجح ، فإن انطباعاتي كقاريء عادي — قبل أن أكون أديباً ناقداً — تؤكد لي شيئاً من أهم أسباب نجاح الفنان . فحينما تقرأ أثراً من الآثار الفكرية أو الأدبية ، فتجد فيه صورة نفسك ، أو بيتك أو قطاعا صغيراً أو كبيراً من محيطك ، أو محيط غيرك ، وتلمح في ثناياه آلامك ، وآمالك وأهدافك ، ومراميك ، وحينما ينقل إليك المؤلف تلك الصور صادقة مليئة بالحركة والحياة ، ولا تملك إلا أن تمضي في القراءة إلى النهاية يقال حينئذ : إنه قد حدث بينك وبين ذلك الأثر تجاوب فني وروحي .

وإذن فنحن بإزاء خيط سحري يجذب به المؤلف القاريء ، ويظل حريصاً في كل خطوة يخطوها ، وكل فصل من فصول قصته على ألا ينقطع ، ولك أن تسميه براعة « التقنية الفنية » أو توفر عنصر التشويق ، أو غير ذلك من الأسماء .

على أن نجاح القصة نجاحاً حقيقياً لا يكفي فيه ذلك المهماز السحري الذي يسوق القاريء إلى متابعة القصة من أولها إلى آخرها ، فإن المضمون ، أو المحتوي ، أو الحقائق الباقية ، لها أثرها العظيم في ذلك النجاح ، فأي عمل فني مهما كان مشوقاً ولا يحوي سوى التفاهة ، أو الضحالة ، أو الأفكار المبتسرة ، أو المنحلة ، أو المنحرفة ، لا يكتب له البقاء والخلود ، فإن مهمة الفنان ـ عن طريق الفن ، لا عن طريق الوعظ ـ أن يبصرنا بحقائق الحياة الخالدة ، وأن يوقظ في نفوسنا الإنسان .

* * *

أمثال هذه الخواطر عن القصة والقصاص كانت تدور بذهني وأنا أقرأ قصة الأديب الحجازي « حامد دمنهوري » الذي عرفناه شاعراً غنائياً رقيقاً ، قبل أن يقتحم ميدان القصة بهذه المحاولة الموافقة الناجحة .

وأول ما يلفت نظر القاريء في قصة « ثمن التضحية » هي أنها قصة منتزعة من صميم البيئة الحجازية ، فالحديث عن « هول الليل » و « الدجيرة » وحياة الأسرة الحجازية المتوسطة ، وتقاليد البيع والشراء في « سويقة » ، وهموم التجار ، وأحاديثهم عن إيجار الدكاكين والمنازل ، أتكون كالعام الماضي أم تكون طليقة حرة الخ . .

* * *

وقصة « ثمن التضحية » تعتبر من قصص « الشخصيات » وإن عنى المؤلف عناية فائقة بالحوادث التي وفق في تسلسلها وتتابعها إلى حد بعيد ، وكان لهذا التوفيق أثره في توضيح معالم شخصية البطل ، وسائر الشخصيات الأخرى .

والغاية الجوهرية من هذه القصة هي تصوير البيئة الحجازية في فترة من فترات العهد الحاضر ؛ تبدأ بالحرب العالمية الثانية ، والتطور الذي طرأ على تلك البيئة ، والعوامل الجديدة التي اقتضت تغيراً عقلياً وحيوياً في حياة المثقفين الذين اتصلوا بالتعليم الجامعي خارج بلادهم ، وأصبحوا أطباء ، أو مهندسين ، أو زراعيين ، أو اقتصاديين إلخ .

وهي من ناحية أخرى ، تصور مشكلة خطيرة اقتضاها تفتح أعين المتعلمين الجامعيين على بنات مثقفات من بيئة

أخرى غير بيئتهم ، يتجاوبن معهم تجاوباً روحياً وثقافياً .. وهذا التجاوب الثقافي جعل بعض الشبان يختارون شريكات حياتهم من تلك البيئة . ولو اقتصر الأمر على الزواج من إحدى البلاد العربية ، لكان الأمر هيناً – وبخاصة إذا كان في حدود معقولة – فالعروبة كلها وطن واحد ، ولكن الطامة الكبري هي اختيار الزوجة من أمريكا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، والنمسا ، وغيرها من البلاد الغربية ، مما نجم عنه في كثير الأحيان عديد من الفواجع والمآسي .

ولعل أهم الأسباب في اللياذ بالأجنبيات ، والإنصراف عن بنات الوطن ، هو تلك الهوة السحيقة في الثقافة ، والمستوى العقلي بين أولئك الشبان ، وبين بنات بلادهم الجاهلات ؛ فإن تعليم البنت في قلب الجزيرة ما زال حتى الآن تقف دونه معوقات كثيرة ، مما حدا بالمخلصين من رجال التعليم ودعاة الإصلاح الوطنين إلى التفكير جديا في هذا الأمر الخطير ، فإن « مآل بناتنا إلى البوار » على حد تعبير الصحفي المخلص الذي عرض هذه المشكلة أخيرا على شخصية مسئولة كبيرة ، وطلب منه بإلحاح السماح رسميا بتعليم البنات حتى تحل هـــذه المشكلة ، مشكلة

انصراف الشبان المثقفين عن الزواج من بنات الوطن، وأحال المسئول الكبير الأمر على وزير المعارف، الذي وعد بتنفيذ الفكرة ، والتغلب على العقبات التي تمنع تعليم البنت العربية .. وإن كان الوطنيون الواعون ماضين في بذل أقصى الجهد لتعليم بناتهم بطريقة أو بأخرى في داخل البلاد أو في خارجها.

وبطل هذه القصة ، إذ يدوس على قلبه ويضحي بحبه في سبيل الزواج بإحدى بنات وطنه – يضرب لشبابنا مثلا رائعاً عن الواجب المقدس حيال فتيات الوطن اللواتي لا ذنب لهن فيما هن عليه من جهل وتقهقر .

وأديبنا نفسه لم تند عنه فلسفته ، فهو متزوج من ابنة عمته ولعل لوناً أو ألوانا من الصراع في قصته هذه تمثل طرفاً أو أطرافاً من حياته العاطفية .

* * *

وفي هذه القصة نتمثل كما سبق أن أشرنا لونا من التطور الذي طرأ على حياة الأسرة الحجازية ، فابتعاث البعوث إلى الخارج شيء لم يألفه الحجاز من قبل . . . حقاً إن « أحمد » سيعود من مصر وشيكاً ، سيعود طبيباً يشرف نفسه وأسرته ، ويخدم وطنه أجل الخدمات ، وكذلك سيفعل أخوه «يحيى » وسيسر والدهما بلا شك بارتيادهما هذا المجال الجديد في الحياة . . . ولكن الشيخ « عبد الرحمن » – وهذا اسم والد

البطل – شعر بعد وفاة أخيه بالفراغ ، شعر أنه يوشك أن يودع شيئاً عزيزاً عليه ... ولم يكن يؤلم الشيخ «عبد الرحمن» ما سيئول إليه محله التجاري من كساد قدر ما كان يؤلمه هذا التغير المنتظر في حياة الأسرة ، فهذه الفترة ليست كفترات الكساد السالفة التي كثيراً ما تعرض لهـا المحل . ليست سحابة صيف ثم تنجلي ، وإنما سيقرر فيها مصير تاريخ الأسرة في المستقبل . . . ليس هناك في الأسرة من سيحل بدلا منه في القيام بشئون تجارته فابناه قد توجها لدراسة أبعد ما تكون عن التجارة . . . ولم يكن الشيخ «عبدالرحمن» يفكر في سعة الحياة ورغدها . إذ أن ابنيه سيكون في وسعهما أن يوفرا هذا الجانب . وإنما كان تفكيره منصرفاً إلى تتبع تاريخ أسرته في التجارة ، تاريخها الذي وعاه من أبيه وجده في مجالسهما ، لقد كان تاريخاً حافلا بالكفاح المرير والجهاد الطويل ، تاريخاً يتسم بالأمانة والإستقامة ، وهما رأس مال التاجر . هل قدر لهذا التاريخ أن ينتهي في هذه الفترة ، وتبدأ الأسرة حياة جديدة تبعد بها عن ماضيها ؟ وهل قدر أن يكون هو نفسه الصفحة الأخيرة من هذا التاريخ .

تغيرت مواعيد الشيخ « عبدالرحمن » في الدكان فكان بقاؤه فيه لا يتعدى ساعة قبل الظهر وساعة بعد العصر ،

وما تبقى من الزمن يترّكه للصبيان يباشرون العمل ، ويقدمون له الحساب اليومي في مطلع كل مساء . . حتى لكأنه بهذا التصرف يستسلم للأمر الواقع ويتعجل النهاية . . نهاية هذا التاريخ الطويل من أعمال التجارة . .

ولم يكتف « حامد » بالعبارة القصصية المتقنة ، وإنما عمد في بعض الأحيان إلى توخي الجمال الفني في الأسلوب . ومن السهل على القاريء أن يلاحظ ذلك .

* * *

وقصة « حامد دمنهوري » كقصص « أحمد السباعي » وثيقة اجتماعية للحياة الحجازية في تطورها في العصر الحاضر و « السباعي » و « الدمنهوري » كلاهما يعني بتصوير حياتنا الإجتماعية ، وإبراز طابعها وسماتها الخاصة . وقد وفقا في ذلك إلى حد بعيد . وإذا لاحظنا أن « السباعي » أقدر على إعطائنا النكهة الخاصة لمجتمعنا البلدي ، فإننا نلاحظ أن « الدمنهوري » أقدر على الصياغة الفنية ، والتكتيك الفني للقصة . فكثيراً ما يفسد « المعلم » الكامن في شخصية « السباعي » جو قصصه الساحرة ، إذ يبرز فجأة ، ويحمل عصاه الغليظة ؛ وينهال بها ضربا على رأس « السباعي »الفنان، وعلى رأس القراء أيضا .. وليس كذلك «حامد» الذي تذكرنا

خطواته في العمل القصصي ، بأعمال الروائي العربي الجهير الأستاذ « نجيب محفوظ » .

* * *

وقد أحسن المؤلف حين أدار النقاش حول الفنون الجميلة ، من شعر ، وموسيقي ، وتصوير ، واهتمام « فائزة » بتلك الفنون اهتمامه بها ، ولكننا كنا نود لو ذكر لنا لوناً ولو مقتضباً عن استذكاره هو وزميله « مصطفى » في الكتب الطبية ، وهي محور دراستهما ، حتى يعطينا صورة واقعية من حياتهما العلمية ، وكان من الممكن أن يدع «فائزة» تضيق ذرعاً « بالفيزيولوجيا » و « الأناتومى » أو تتمشى مع طبيعتها المهذبة الميالة للثقافة فتفيد إلى حد ما من نقاشهما وثقافتهما الطبية .

وفي الفصل الأول نرى ذلك الصراع الذي نشأ في نفس البطل « أحمد » بين زواجه بابنة عمه « فاطمة » والإكتفاء بوظيفة حكومية عادية ، وبين اكماله الدراسة في مصر ،حيث يصبح طبيباً يقدم لوطنه أجل الخدمات الإنسانية .

وتمضي الفصول بعد ذلك متدرجة ، حتى إذا وصلنا إلى الفصل الحادي عشر بعد دخوله الجامعة ، وتعرفه بصديقه « مصطفى » يقفز قفزة جديدة ، لأننا نجد لوناً جديداً من

الصراع وهو تعرفه بـ « فائزة » تلك التي رأى فيها صورة ثانية لـ « فاطمة » وتتطور تلك المعرفة في الفصول التالية من اعجاب واستلطاف إلى حب عنيف .

ولكن « أحمد » لا يلبث حتى يثوب إلى عقله ، ويتذكر عهده والرباط المقدس الذي ربطه بابنة عمه ، ويضع حداً لهذا الحب الجديد الذي لا يجد له أثراً كبيراً في « فائزة » . ولكم كنت أود لو ارتفع أديبنا إلى قمة أعلى في الصراع ؛ فيشب الحب في القلبين بحيث تأبى « فائزة » أن تتزوج من خطيبها الذي تقدم لها ، وتهدد بالإنتحار إن لم تتزوج «أحمد» . . . إلخ . ثم يحلل ذلك الصراع على نحو يرضي الفن القصصي . ويعود البطل إلى ابنه عمه . فإن القاريء يشعر في الفصول الأخيرة ، وبعد وفاة « عبدالرحيم » والد «فاطمة» وذهاب «أحمد» إلى الحجاز ، ثم رجوعه ثانية لمصر لإكمال دراسته ، يشعر بأنه قادم على ذروة جديدة في الصراع ولكن القصة تمضي إلى ختامها دون أن يجد ما كان يتوقعه ويترقبه بلهفة عارمة .

ومهما يكن من شيء فإن هذه الملاحظات العابرة لا تقلل

من شأن هذه القصة الناجحة التي يسعدني أنَ أقدمها للقاريء العربي في كل مكان كنموذج رائع للفن القصصي في قلب الجزيرة ؛العربية .

٢٨ رمضـان سـنة ١٣٧٨ هـ
٦ ابريــل سـنة ١٩٥٩ م

عبد الله عبد الجبار



١

كانت خديجة تجلس على مقعد خشبي أمام الموقد في المطبخ الذي يقع بأعلى المنزل ، وبيدها مروحة تذكي بها النار ، وهي تهيء عشاء أولادها الصغار وهم « يحيى » التلميذ بالمدرسة الإبتدائية ، و « زينب » وهي في التاسعة من عمرها ، و « زين » التي لم تتعد الخامسة بعد .

كان ذلك بعد أن أدت صلاة المغرب في الطابق العلوي من المنزل ، وهو الطابق المعد لجلوس العائلة واجتماعاتها ، وقد تعود أولادها الثلاثة أن يتناولوا عشاءهم عند مطلع المساء . أما « أحمد » ابنها الأكبر فقد تعود على تناول عشائه مع والديه بعد صلاة العشاء ، لدى عودة والده من الحرم .

كان المطبخ نظيفا وأنيقا في بساطة ؛ فمنذ أن بلغت « زينب » التاسعة من عمرها أسندت إليها أمها الإشراف على نظافة وتنظيم المطبخ ، كمقدمة لتوجيهها إلى العناية بجميع أعماله ، وتدريبها على القيام بمهامه الكثيرة المتفرعة ، ومقدمة من الأم للتخلي عن تلك المهام تدريجيا لابنتها الكبرى ، التي تعدها منذ الآن لإحتلال مركز « سيدة المنزل » .

وقد كان لـ « زينب » في أوقاتها القصيرة التي تقتضيها بالمنزل بعد عودتها من « مدرسة الفتاة » التي تتلقى بها مباديء القراءة والكتابة ، متسع للإضطلاع بما أوكلته إليها أمها ، إلى جانب اهتمامها باستذكار دروسها ، وهي وإن لم تكن قد تلقت شيئاً يذكر في الثلاثة الأعوام الماضية في تلك المدرسة ، إلا أن رغبتها في التعليم كثيراً ما دفعتها إلى مطالبة أخويها « أحمد » و « يحيى » إلى مساعدتها ، في استذكار القليل مما تتلقاه في المدرسة على يديهما .

وقد كان استعداد أخويها لتلك الإستعانة مختلفا ؛ فبينما كان « أحمد » يرحب بتلك المساعدة ، ويشجع أخته على الإستزادة من المعلومات الأولية ، كان « يحيى » يضيق ذرعا بهذا الإتجاه من أخته ، وكثيرا ما انفجر فيها غاضبا :

– اتركي العلم لنا ، وانتبهي لأعمال المنزل ، هذا هو عملك الأساسي في الحياة .

أو يقول لها في معرض التهوين من أهمية رغبتها :

– سوف لا تفيدين من اجتهادك شيئاً سوى التعب . اسأليني ماذا استفدت من المدرسة إلى الآن ؟ ! لا شيء وأمامي طريق طويل ، لا أدري متى ينتهي وإلا م ينتهي ؟!

وبالرغم من عدم اقتناع « أحمد » بسلوك « يحيى » وآرائه ، إلا أنه كان يقابل تلك الآراء بالصمت المطبق ، وكأنما يترك للأيام الإجابة على ما يدور في خلد أخته من أسئلة تحتاج إلى الإجابة التي تبلل غلتها ، أو يظهر لها وجه الصواب في اهتمامها بتعليم القراءة والكتابة ، إلا أن اهتمام « أحمد » بتحقيق رغبتها بما يبذله من مجهود متواصل معها ، قد أكد لها صواب ما اتجهت إليه ، خاصة وأن « أحمد » لا يصدر في آرائه إلا عن حكمة وعقل ، فقد كان في نظرها — ونظر والديها كذلك — مثالا للشباب العاقل ، والطالب المجتهد ، الذي قارب نهاية الدراسة الثانوية بالكد المتواصل ، والسهر المستمر .

أما « يحيى » فلم يزل طفلا لم يدرك قيمة تعليم الفتاة ، ومن ثم فليس لآرائه في هذا المجال أيه قيمة يعتمد عليها .

ونادت السيدة « خديجة » على الخادم الصغير « عمر » ليحمل صينية الطعام إلى أولادها . واحتاط الثلاثة بالصينية : « يحيى » و « زينب » و « زين » . وجلست أمهم على مبعدة منهم ، متجهة إلى القبلة ، تستأنف التسبيح ، وترقبهم عن كثب ، وجلس « أحمد » بالقرب من النافذة وهو يستذكر دروسه .

ولاتني السيدة «خديجة» من رفع صوتها في التسبيح وهي

في جلستها تلك ، وكأنما تنبه أولادها إلى التزام الأدب ، والسكينة ، وهم على الطعام .

وعلى حين غفلة من الأم وهي مستغرقة في التسبيح تصيح « زين » الصغيرة ، بأن « يحيي » كبر اللقمة ، فتصيح فيه أمه :

– كان يجب عليك أن تتعلم آداب الأكل في المدرسة ، قبل أن تتعلم القراءة والكتابة . .

فيرد عليها بأن « زينب » تحول بينه وبين طبق البيض . فتكذبه هذه وتستشهد بـ « زين » التي تؤدي الشهادة بجانب أختها ، ولا تنسى أن تشفع تلك الشهادة بإخراج لسانها لأخيها ، وكأنها تتحداه .

كان ذلك مقدمة لبدء الشجار بين الإخوة الصغار ، إذ التفت « يحيي » إلى أمه مغيظا ، وقد أخذ الغضب منه مأخذه ، محاولا أن يشكو أخته الصغرى التي تطاولت عليه ، وسرعان ما ارتد إلى نفسه عندما رأى أمه مستغرقة في التسبيح ، مغمضة عينيها نصف اغماضة ، في اتجاهها على القبلة ، وقد أخذ جسمها يهتز إهتزازاً إلى الأمام ، وإلى الخلف .

لقد أدرك أن أمه بعيدة عنهم – رغم قربها – كما أنه

حسب إحساسه التجريبي يعرف أن أمه سوف لا تنصفه من « زين » إذ أنها الأثيرة لديها من بين إخوتها ؛ لها الدالة عليها في شتى الأحوال ، حتى في تعديها على إخوتها ، فيلتفت مرة أخرى إلى شقيقته ، وقد رسم اليأس على محياه ما يشي بخيبة أمــله .

تجلى ذلك في تقطيب جبينه ، وإزورار ما بين حاجبيه ، ولكنه – مع ما ظهر على ملامح وجهه من يأس ظاهر – يتفتق ذهنه – الذي يسعفه كثيراً بالحلول العاجلة لمثل هذه المواقف – عن طريقة يثأر بها لكرامته ، فيلتقط المشبك الذي يشبك به ثوبه ، ويخز به أخته الصغرى دون أن يبدو عليه أي أثر للحركة التي قام بها ، فتصرخ الصغيرة باكية مولولة ، وتنزعج الأم ، وتسرع إلى « زين » ، ويكون « يحي » قد هرب إلى سطح المنزل ، فتصله الأصوات متداخلة من غير تميز ؛ صراخ أخته « زين » ، ووعيد أمه ، ولا يلبث غير قليل حيث تخفت الأصوات ، فيدرك إنتهاء المعركة وتلاشي آثارها ، فيعــود إلى المجلس على أطراف أصابعه ، ميمما شطر فراشه ، حيث يرى « زين » وقد نامت في حجر أمها .

أما « زينب » فقد تأهبت لإعادة ترتيب الأطباق في الصينية

وجمع ما تناثر على أرض المجلس من فتات الخبز .

وحين تشعر الأم بـ « يحيي » وقد تسلل إلى فراشه ، تتوعده بالعقاب ، وتنذره بالجزاء شأنها كل ليلة .

ووسط المعركة التي قلبت نظام البيت ، وأشاعت الفوضى فيه ، لا يبدو على « أحمد » أي أثر للإنفعال ، أو المشاركة في فض النزاع الذي يتكرر كل ليلة ، وفي هذا الوقت على مرأى منه ؛ تاركا لأمه القيام بهذه المهمة ، على طريقتها في التربية ، تلك الطريقة التي تتسم دائما باللين ، فلا يتعدى جزاؤهـا الوعيد الذى يتكرر خلال كل معركة تنشب بين أولادها ، وقد أصبح لتكراره جرس خاص تعود عليه مع مرور الأيام ، وقد أصبح تعودهم على سماعه لا يحمل إلى أذهانهم أي معنى من معاني الوعيد .

وعادت « زينب » بعد برهة من المطبخ ، وبعـد أن توضأت استعداداً لصلاة العشاء ، جلست إلى جانب أمها ، آخذة سمتها إلى القبلة ، وأخذت تتابعها في التسبيح والتمتمة ، وتقلدها في الإهتزازات الرتيبة ، والتفتت إليها أمها ، وتأنت لحظة وهي تتأملها في حنان ورفق ، وكأنما ترى فيها نفسها ، وتحس فيها طفولتها الراحلة ، أو ربما تخيلت ابنتها وقد

درجت مدارج الشباب ، وفي كلمات مقتضبة هامسة أمرتها أن تعد أواني الشاي ، وتهيء مكاناً لجلوس أبيها ؛ فقد حان موعد عودته .

وحينما قامت « زينب » تلبي رغبات أمها كان آذان العشاء يصعد من مآذن الحرم صافيا رقراقا ، يصلهم من بعيد في نبرات وإن بعد صداها ، إلا أنها واضحة كل الوضوح ، فران الصمت عليهم ، وردد كل منهم في سره ما يهتف به المؤذن في دعائه المتصاعد إلى أجواء السماء .

وكان « أحمد » يجلس بالقرب من النافذة على الأريكة الخشبية العريضة المكسوة بقماش حريري مشجر ، مستنداً بيمناه على وسادة ضخمة ، وقد وضع كتابه في حجره ، متتبعاً الآذان في صمت ، حينما التفتت إليه أمه في انزعاج تأمره بتغطية رأسه ، فيصدع لأمرها بوضع يمناه على رأسه ، وكأنما يرى في ذلك ما يكفي للتعبير عن إطاعة أمر أمه ، ولكنها تشير له إلى « غترته » المعلقة ، فيسرع إلى التقاطها ، ويضعها على رأسه ، ولكن أمه لا تكتفي بذلك ، بل تسارع إلى التعليق على ما بدر منه قائلة :

— لقد نصحتكم مراراً بتغطية رءوسكم وقت ؛ الأذان

فلقد كبرتم في السن ، ولكن عقولكم آخذه في النقصان .
ما فائدة العلم الذي تتعلمونه إذا لم تستخدموه فيما يفيدكم ؟.

وبالرغم مما كرره « أحمد » مراراً أمام والدته من أن أمثال هذه التعليمات ، أو الطقوس ، ليست من الدين ، فهو لم يقرأ عنها شيئاً فيما بين يديه من كتب ، ولم يتلق من أساتذته ما يفيد بأنها من صميم تعاليم الدين ، إلا أن أمه تحاول تثبيت ذلك في ذهنه بشتى الطرق ، فقد أشارت له مرة بأن والديها قد لقناها ذلك منذ صغرها ، فحاول هذه المرة كذلك أن يناقشها فيه ، إلا أنها أشارت إليه بالصمت ، وعادت إلى جلستها على السجادة متجهة نحو القبلة ، فيرى في هذه الحركة ما يقنعه بصدق رأيه ، ويؤكد له صواب اعتقاده .

وعاد « أحمد » إلى كتابه الذي بين يديه على حين قامت أمه لأداء صلاة العشاء ، وما لبث بعد قليل أن مد رأسه من نافذة المجلس ، يستطلع الحركة في الزقاق الذي يحتل منزلهم نهايته ، فيجده هادئاً يخيم عليه السكون ، ويلف معظمه الظلام ، سوى قطع صغيرة من أضواء المنازل المترامية على أرض الزقاق، وبصيص ضئيل من الضوء الخافت ينبعث من شقوق فانوس البلدية المعلق في أول الزقاق ، ذلك

الفانوس الذي اقتصرت مهمته على تعريف المارة بمدخل الزقاق ، وقد أحس « أحمد » بانقطاع الحركة من زقاقهم أن صلاة العشاء قد بدأت في الحرم ، وأنها لا تلبث أن تنتهي ، حيث يعود أبوه إلى المنزل بعد أداء صلاة العشاء جماعة في المسجد ، ويجمع « أحمد » كتبه ويضعها على الرف ، ثم يعود إلى النافذة في إنتظار مرور الشيخ « محمد » ، جارهم في ذلك الزقاق ، وقد تعود أن يراه كل ليلة عائداً إلى منزله قبل والده . وهو وإن لم يستطع عادة أن يتبين الشيخ « محمد » بوضوح ، إلا أنه يستطيع أن يميزه وهو مار تحت الفانوس بمشيته الرتيبة متوكئاً على عصاه ، وهو يردد دعاء خاصاً يعتبر امتداداً لأدعية ما بعد الصلاة .

ويفاجأ « أحمد » حينما يـــرى أباه عائداً قبل الشيخ « محمد » ، فيخبر أمه المستغرقة في التسبيح عقب الصلاة ، فينتزعها النبأ من فوق سجادتها ، وتقف متوجسة خائفة ، كما تبدأ في افتراض الفروض وتأويل الأسباب مع ابنها لهذه العودة المبكرة على غير العادة ، حيث يدخـــل الشيخ « عبد الرحمن » في هدوء تفترضه الزوجة هدوءاً مصطنعاً . ولا بد أن في الأمر مكروها على عادتها في التشاؤم من كل تغير يطرأ على ما تعودته من تلقي الأمور في ترتيب وانتظام ،

فأعدت نفسها سريعا ، وفي لحظة خاطفة ، لسماع ما تكره ، مع ما يصحب هذا الإعداد من مظاهر القلق النفسي ، والخوف مما يخبئه القدر ، فحال لون وجهها وارتعش جسمها رعشات متتالية ، واغرورقت عيناها بالدموع التي احتبستها للحظة المناسبة ، ولكن الشيخ « عبد الرحمن » وقد خبر زوجته طيلة العشرة الزوجية ، وعرف ترقبها المشوب بالتشاؤم دائما لأي أمر حادث سارع لطمأنتها :

– ليس في الأمر شيء .

وعندما وقع نظره على ابنه « أحمد » تأني في كلامه ، ودعاه إليه ، ميمما شطر مكانه المعد لجلوسه ، وطال صمته لحظة أو لحظات خالها « أحمد » دهرا ، وظهر عليه الإنفعال والترقب لحديث أبيه الذي لم يتعود أن يشركه مشاركة مباشرة فيما يهم الأسرة من أمور عادية . وقد توقع « أحمد » أن الأمر يمسه دون سواه .

وبدأ الشيخ « عبد الرحمن » حديثه في هدوء :

– لقد كنت مع أخي « عبد الرحيم » ، ودار حديثنا حول ابنته « فاطمة » التي بلغت الآن الرابعة عشرة من عمرها ، وقد أصبحت ببلوغها هذه السن أهلا للزواج .

وكان الشيخ « عبد الرحمن » في حديثه يصعـــد نظره في « أحمد » علّه يسبر غور انفعالاته ، ويستشف مدى قابليته لهذا الحديث ، فلم يلحظ على ابنه سوى آثار الترقب الممزوج بالرغبة في الإستماع إلى ما يخصه من هذا الحديث .

واستأنف والده الكلام يوجهه إليه وحده :

— أنت تعلم أن هناك ما يشبه الاتفاق بيني وبين عمك ، على تزويجك من « فاطمه » ، لقد كان ذلك من زمن لاتدركه . منذ ولدت « فاطمة » ، وأنت لم تتعد الخامسة بعد . إن حديثنا الليلة كان امتـــدادا لأحاديث جرت بيني وبينه ، في فترات متفاوتة من العامين الأخيرين ، وقد رغب إلى البت فيه هـــذه الليلة ، نظراً لأنك سوف تنتهي من دراستك بعد ثلاثة شهور معدودة .

لم يفاجأ « أحمد » بهذا الحديث ؛ فقد كان ينتظره منذ أن شب عوده واستوى ؛ ومنذ أن بدأت والدته منذ عام أو يزيد تردد على سمعه أمنيتها العزيزة :

— أتمنى على الله ألا يميتني إلى أن أفرح بك .

لقد توقع ذلك وانتظره ؛ فقد كان حديث والدته كثيراً ما يدور على مسمع منه حول هـــذا الأمر ، إلا أنه كان

في كثير من الأحيان حديثاً عابراً ، لا يحمل سوى معنى الأمنيات التي تجيش بقلبي الوالدين .

ولقد كان شعوره دائماً نحو هذا الأمر شعور الواثق من أمر محقق الوقوع ؛ كما كان شعوراً يتسم بالرغبة في التعجيل بتحقيق هذا الأمر . ولو لم يشعر هو برغبة والديه في تحقيق زواجه من ابنة عمه ، لكان هو السابق في مفاتحتهما فيه ؛ وكثيراً ما دفعته قوى خفية إلى سؤال أبيه عن رأيه الأخير في هذا الزواج ، وموعد تحقيقه ، ولكن يعود إلى نفسه لائماً إياها على ما يتصوره من إحراج في إلقاء مثل هذا السؤال على والده ، فهو لم يزل في نظر نفسه تلميذا بالمدرسة .. لا يحق له أن يتكلم فيما لا يعنيه .. وشئون الزواج وخاصة ابنة عمه .. من اختصاص والده وعمه فقط .

على أن « أحمد » وإن راودته الرغبة في ذلك السؤال ، وألحت عليه كثيراً في خلواته ، إلا أنه شعر في هذا العام بقوة أخرى أخذت تزحم الرغبة المتأججة في وجدانه ، وتنفس عليها ما احتلته من أقطار تفكيره .

تسللت إليه – مرة – فكرة عارضة ، خطرت له في

معرض حديث له مع بعض زملائه في السنة التوجيهية ، عن اتجاه كل منهم بعد تخرجهم .

إنه يذكر قول « عصام » لهم باعتداد :

– إن أباه يحبذ إستمراره في دراسته الجامعية ، لعدم حاجته إلى جهود ابنه « إن لدى أبي من دخل أملاكه ما يغنيه عن مشاركتي له في كسب العيش ، كما أن ما يرد باسمنا من الحجاج يبلغ كل عام أربعمائة حاج ، أعتقد أن أبي في غنى عن مجهودي حتى بعد تخرجي » .

أما « عبد السلام بن عثمان » المعلم البنا ، ذلك الرجل الكادح الذي يتحصل على الرغيف بالمجهود الجبار المتواصل ، فقد قال :

– إني استطعت أن أقنع والدي بأن أستمر في دراستي الجامعية ، وقد قبل والدي – عن طيب خاطر – أن يتحمل هذه التضحية ، على أن الفضل في ذلك يرجع إلى جارنا الأستاذ « على » فقد بين له ثمرة التعليم الجامعي :

« إن ابنك يا شيخ « عثمان » سوف يعود إليك حاملا في يده شهادة جامعية ، وسوف يتساوى بابن فلان وابن فلان ، وأنت أعرف بهم مني ، وربما فاقهم في الحياة

العملية ، اتركه يجرب حظه فقد خلق لجيل آخر ؛ كما أنه سوف يحمل عبء شيخوختك المقبلة » .

ولقد نقل والدي طرفاً من ذلك الحديث الذي دار بينه وبين الأستاذ « على » إلى والدتي ، ليعرف رأيها لأول مرة في مثل هذه الأمور ؛ فقد اعتاد أن يبت في أمورنا برأيه ، كما تعود سماع كلمات الموافقة والتأييد من والدتي لكل رأي يراه ، ولقد تشجعت والدتي في الإفصاح عن رأيها في هذا الأمر ، على جهلها بدور المدرسة في التثقيف والتربية ، وجهلها بمراحل التعليم ، فقالت :

« إني أؤيد رأي الأستاذ « على » في ضرورة استمرار « عبد السلام » في الدراسة ، وقراءة القرآن ، وسوف يعود إلينا عالماً كبيراً إن شاء الله » .

وقد رد عليها والدي بتصحيح رأيها في مستقبلي فقال لها : « سوف لا يكون عالماً له حلقته ، وله تلاميذته ، كعلماء الحرم ، إنه سوف يزاول عملا يتمشى مع ما يتعلمه في الجامعة » .

فما برحت أن أكدت رأيها على وجه آخر :

« كله قرآن ، وكله بركة » .

تذكر « أحمد » كل ذلك .

ولم يكن حينذاك قد انتهى إلى رأي في هذا الموضوع ؛ لم يكن قد استشار أباه أو توسط لدى أمه . . بل إنه في اللحظة ذاتها كان بعيداً عنهم بخياله ، وإن صدمته أفكار زملائه ، وما سمعه منهم من آمال عريضه منبثقة عن تفكيرهم ، في ضرورة استمرار كل منهم في دراسته الجامعية ، ولقد ردت إليه تلك الأفكار بعض ماسها عنه ، فبدا أمامهم وكأنه غائب عن مجلسهم ذاك .

وطالما ردد في نفسه قبل هذه الجلسة حديث العاطفة :

« يا لهؤلاء الشبان ! إنهم في سني ، ولكنهم لم يعيشوا بعد في تجربتي العاطفية ، إن حديثهم يدور دائماً حول المستقبل البعيد ؛ لقد خلت حياتهم من الدافع الحقيقي للحياة ، إني أرثى لهم ، فحياتهم بلا هدف ولا غاية ، فهم في فراغ لا نهائي . فراغ غير محدود ؛ فما جدوى هذه الحياة ؟ إن خفقة من خفقات قلبي تعدل كل حياتهم مجتمعين » .

لم يكن « أحمد » يعرف لذلك الشيء العظيم ، الذي عاش في وجدانه ينبض بالحياة ، والأمل المشرق ، معنى يستطيع الإفصاح عنه أو شرحه ؛ ولو سئل عنه لأعياه الجواب ،

ومع ذلك فقد أحس به قوياً في قلبه ، عظيما في جوانب نفسه ؛ لقد عاش ذلك الشيء العظيم في قلبه منذ طفولته ؛ نما معه وكبر دون أن يعرف كنهه .

لقد تسرب إليه منذ زمن بعيد ، زمن الطفولة البريئة ، حينما كان يلعب مع ابنة عمه « فاطمة » في المنزل ، وحينما كان يهزه الشوق للعب معها بعد عودته من المدرسة ، عصر كل يوم .

كان حالما منذ طفولته ، يجلس على مقعده في الفصل الدراسي ، وهو يتخيل اللعب مع « فاطمة » في المنزل .

وعندما تعلن صفارة المدرسة انتهاء اليوم الدراسي ، يكون قد أعد عدته للإنصراف ، فينهب الأرض نهباً وهو عائد إلى داره .

وهي – هي الطفلة الوادعة التي تنتظر « أحمد » ، فما إن يبدو من أول الطريق حتى تسأله قبل أن يصل بصوتها الضئيل :

« ماذا اشتريت لي اليوم ؟ » .

فيشير لها بيمناه « أن اطمئني فقد جئت لك بطلباتك ؛ حلوى وحمص ولوز » .

وما إن يضع قدمه على عتبة المجلس ، حتّى يقذف بحقيبة كتبه « هذا فراق بيني وبينك » فيبدأ يوم جديد في حياة طفلين ، لا يعيان سر الحياة ، ولا يدركان كنه العواطف المتسربة برفق إلى وجدان كل منهما .

في ذلك الحديث المتناثر الذي تجاذب أطرافه الزملاء وهم على مقاعدهم الدراسية ، يذكر « أحمد » ما قاله حينما اتجهت أنظار زملائه إليه :

« إني لم أستشر والدي بعد ، ولم أعرض الأمر عليه ، إن العام الدراسي في مقتبله ، وإن الأمور مرهونة بأوقاتها ، وظروفها ، ولا أعتقد أن والدي يمانع في ابتعاثي ضمن بعثه الحكومة .

ومنذ ذلك اليوم بدأت الفكرة الطارئة تتعظم وتتضخم ، وتلح عليه إلحاحاً قوياً ، حينما يخلو إلى نفسه :

« إني في مقتبل العمر ، و « فاطمة » لم تزل في الرابعة عشرة من عمرها ، وكلانا لم يتجاوز سن التجارب ، ولو أضفت الأعوام القلية القادمة إلى الأعوام الطويلة التي قضيتها في الدراسة ، لم أخسر شيئاً من مستقبلي الذي تخيلته ، وشيدته في أحلامي ، بل إن هذا المستقبل الذي عشت فيه حلماً

سوف يصبح أكثر ضمانا ؛ سوف أكتسب على وجه اليقين تجارب جديدة من الوعي ، وأكون حينذاك قد شارفت السادسة والعشرين ، سن الزواج السعيد ، وهناك ما هو مهم – بالنسبة لي على الأقل – هؤلاء الزملاء إنهم ليسوا أكثر استعداداً مني للدراسة العالية ، ومع ذلك فقد حرصوا منذ الآن على تذليل العقبات متى تعترضهم ،إنها فرصة لا تتكرر ، وسوف تفوت من عمري كاللمحة الخاطفة ، إن لم أناضل في سبيل تحقيقها مع والدي وعمي » .

شعر « أحمد » منذ ذلك اليوم أن رغبته في الدراسة قد أصبحت تنافس في قواها عاطفته نحو ابنة عمه ، ولقد كان يفكر قلقاً محتاراً في حل لهذه المشكلة ، ويستغرق في التفكير ساعات وساعات يخرج بعدها أكثر حيرة وقلقا ، وكأنه يدور في حلقة مفرغة .

كان « أحمد » متربعاً أمام والديه ، ونظره إلى الأرض ، وهو يلهو بإصبعه في البساط الذي يجلس عليه،وحينما توقف والده عن الكلام في انتظار إجابته ، رفع نظره عن الأرض ليبدأ كلامه في تؤدة ، ولكن الأب بادره بملاحظة عنت له حينذاك :

– تفكر جيداً في هذا الأمر ، وقد رغب عمك في أن نبت في الأمر ، ونبلغه الجواب في أقرب وقت ؛ نظراً لأن كثيراً من معارفه وأصدقائه ، قد تقدموا له خلال هذا العام بطلب يد « فاطمة » ، وقد ردهم رداً جميلا ، اعتماداً على ما سبق الإتفاق عليه بيننا في هذا الأمر ؛ وإني متأكد على كل حال من رغبتك ، ولذلك فقد أبلغته الرد بالإيجاب في حينه ؛ ولكن عمك يود من ناحيته سماع إجابتك المبنية على رغبتك الشخصية .

– إني موافق يا أبي على تحقيق رغبتك ، وهي رغبتي كذلك ، خاصة وأن في ذلك ما يحقق بقاء التئام شمل هذه الأسرة ، وإني حريص من جانبي على توثيق هذا الإلتئام . بدأ بذلك جوابه . . .

وتمهل برهة أشعرت والده أن لحديثه بقية وإن لم يحدد اتجاهه ؛ واستأنف كلامه قائلا :

– وتمشيا مع رغبة عمي التي أبداها لك في أن يكون لرأيي اعتبار في هذا الأمر ، فإني أقترح أن يعقد القران الآن ، ويؤجل الزفاف إلى أن أتخرج من الجامعة .

– الجامعة ؟ ! « قالها الأب بانزعاج » . ومتى تتخرج من الجامعة ؟ إنك لم تزل في المرحلة الثانوية ، وهل يعقل – وأنت الشخص المتعلم – أن تفرض عليها الانتظار طوال هذه المدة ؟ .

فقال « أحمد » :

إن المدة أقصر مما تتصور ؛ إني الآن في السنة التوجيهية ، وسأقضي في الجامعة مدة لا تزيد على سبع سنوات إذا قدر لي تحقيق رغبتي في الإلتحاق بكلية الطب ، إني لا أتصور كيف أقف بمحض اختياري عند هذه الدرجة ، مع توفر استعدادي ورغبتي في مواصلة الدراسة . ومن ناحية أخرى فإن « فاطمة » لم تزل في الرابعة عشرة من عمرها .

فأجابه والده بلهجة تنم عن المضايقة من الاقتراح الذي لم يتوقعه :

– إني أعرف ذلك ، ولم يكن لدي مانع من الانتظار إلى آخر العام ، حيث تتحصل على الشهادة الثانوية التي تتيح لك العمل في أي إدارة من الدوائر الحكومية ، براتب مناسب ، وعلى ما أظن قد درستم في هذه المدرسة علوماً كثيرة ، لم نسمع بها في زماننا ، ولا أظن أن الوظائف في بلادنا تحتاج إلى علم أكثر مما تحصلتم عليه ، إني أعرف

الكثير من أبناء أصدقائي ، وقد شغلوا وظائف لا بأس بها ، ودون ان يبلغوا درجتك ؛ وإني أعتقد أنك بعد تخرجك من الجامعة سوف تبدأ من حيث بدءوا ، وعليك أن تتمرس بحياة الوظائف التي تحتاج إلى مران عملي طويل .

لم يعزب عن بال « أحمد » صعوبة ما ينتظره لدى مناقشة هذا الأمر مع والده ، وصعوبه إقناع والده بوجهة نظره ، فكثيراً ما سمع منه في مناسبات مختلفة ما ينم عن رغبته في انقطاعه ، عن الدراسة ، وهي وإن لم تكن رغبة واضحة في حديث واضح ، إلا أنها كانت ترد عرضاً في أحاديث متفرقة ؛ فقد قال في معرض حديث له صباح يوم من الأيام:

« لا أدري لم يشق أبناء اليوم على أنفسهم في الإستذكار ؟ وما هو هذا العلم الذي يسهرون على استظهاره الليل الطويل ؟ فإن بلادنا ليست في حاجة إلى كل ذلك » .

كما وجه الحديث ذات يوم إلى زوجه ، على مسمع من « أحمد » وإخوته :

« لقد رأيت اليوم «عبدالغني » ابن جارنا الشيخ «محمد» ، وعهدي برؤيته منذ زمن طويل ، فعرفت منه أنه موظف

بوزارة المالية براتب مناسب ؛ إنه من زملاء « أحمد »
في المدرسة الإبتدائية على ما أعتقد » .

ولما كان الحديث موجها — حينذاك إلى زوجه فقد
علقت عليه بقولها :

« إن والدة « عبد الغني » كانت في زيارتنا قبل يومين ،
وسألتها عن المحفوظ ابنها فقالت :

إنه يعمل بوزارة المالية كاتب واردة ، وإنه لا يبرح
الوزارة إلا بعد انصراف جميع الموظفين ، إنه مجتهد في
عمله ، أقر الله به عين والديه » .

والتفت إلى أمه كالمستغيث في طلب المعونة ، وأعاد النظر
إلى أبيه ، فرآه مستغرقاً في التفكير ، منتظراً إجابته .

وأدرك « أحمد» ضرورة استثارة عاطفة الأبوة في أبيه،
فقال بعد لأي . :

— إني رهن إشارتك يا والدي ، وإني أعرف فيك
حرصك العظيم على مستقبلي، وسعيك في — تحقيق كل — ما
يعود علي بالفائدة ، لقد جرى حديث بيني وبين زملائي
في المدرسة حول هذا الموضوع ، وقد عرفت أنهم حصلوا

جميعهم على موافقة آبائهم على السفر إلى خارج البلاد ، للإستمرار في الدراسة والتحصيل ، حتى « عبد السلام عثمان » .

— « عبد السلام عثمان » ؟ إني أعرفه . هل هو زميلك ؟

— نعم . إنه من التلاميذ النجباء .

— ولكني أعرف أن حالة والده المادية تستدعى الإستعانة بمجهوده في القيام بشئون أسرته ، والانقطاع عن الدراسة . إن والده قد نيف على الستين ويعول عائلة كبيرة .

— هذا ما عرفته من« عبد السلام » فإن والده سوف يقدم هذه التضحية رغم حاجته إليه . وإن حالتنا المادية والحمد لله أحسن بكثير من حالتهم .

— كلا يا بني لم يطف بخيالي ما تشير إليه ، إننا في غنى عنك ، ولكن ألا تعتقد أنك قد بلغت من السن ما يستوجب معه أن تعنى بشئون تجارتنا ، والإطلاع على أعمالنا التي سوف تكون مسئولا عنها في المستقبل ؟ .

— ألا تعتقد يا أبي أن انقطاعي عن الدراسة ، وتفرغي لأعمال التجارة ، فيه قيد لي قد لا أتمكن من الفكاك منه إذا اعترض تجارتنا في المستقبل أي عارض ؟ كما أن استعدادي لمزاولة التجارة ضعيف .

فرد عليه أبوه :

– إنك تفترض الفروض البعيدة ، لقد عاشت أسرتنا من عهد جدك إلى اليوم على دخل هذا الدكان ، والتجارة لا تتطلب منك سوى الإستقامة والذكاء .

وتأني الشيخ « عبد الرحمن » لحظة استأنف بعدها الكلام قائلا :

– إننا خرجنا عن جوهر الحديث الذي بدأنا فيه ، وإن الأمر على كل يحتاج إلى مشورة عمك .

– لا أعتقد أن عمي سوف يمانع في ذلك إذا أردت أنت ذلك .

كانت والدة « أحمد » قد تركت المجلس حينما شارف الحديث نهايته ، وبعد برهة كانت قد أعدت العشاء الذي حمله الصبي إلى المجلس .

وكانت « زينب » تجلس أمام معدات الشاي ، في انتظار فراغهم من تناول الطعام حيث يبدأ السمر العادي ؛ أخبار السوق والبيع ، وأخبار الأهل والجيران ، وينتهي بالنسبة لـ « زينب » عندما يتدلى رأسها على صدرها إيذانا بانتهاء سهرتنا ، وتأذن لها أمها بالنوم ، حيث تسرع إلى فراشها

بجانب أختها « زين » وفي خيالها بقايا من حادث شجارها مع « يحيى »، وأخرى من أحاديث أبيها لا تلبث أن تنمحي رويداً رويداً ، وقد ضمها سلطان النوم بين ذراعيه الحانيتين .

وحينما خلا المجلس من « زينب » إحتلت الأم مكانها ، أمام معدات الشاي ، وفي مواجهتها جلس الأب متكئاً بيمناه ، وجلس « أحمد » بعيداً عنهما ، والتفت الشيخ « عبد الرحمن » إلى ابنه يسأله عن آخر الأخبار ، فأجابه « أحمد » بعد أن زحف في مواجهة أبيه قائلا :

– إن هجوم « رومل » قد توقف في (العلمين) منذ مدة ، والحلفاء ما زالوا يحشدون القوات والمعدات في هذه الجهة ، لمواجهة الهجوم المنتظر ، وتفيد الأخبار أن مفتاح الموقف الحربي قد أصبح في يد الحلفاء ، كما أن هناك تغييراً في قيادة هذه الجبهة .

– إن ما يهمنا نحن – أهل هذه البلاد – هو انتهاء الحرب . لقد عانينا منها الكثير ، وكأننا نعيش في وسط جبهة القتال .

قال « أحمد » :

– إنها على كل حال حرب عالمية شملت بدمارها كل المعمورة .

ـ ولكن ، كيف يكون سفركم والبحر الأحمر في خطر من الغواصات ، كما أن مصر تعتبر اليوم جبهة قتال وهي مركز لجيوش الحلفاء ؟ .

وأجاب « أحمد » في سرور ظاهر من مجرى الحديث :

ـ سوف يظهر الموقف خلال الشهرين القادمين ، فإذا ما سيطر الحلفاء على جبهة الصحراء الغربية ، أصبح البحر الأحمر في أمان .

قال الأب في تنهد :

ـ متى تنكشف هذه الغمة ؟ لعن الله الكفار .

وهنا قالت السيدة « خديجة » :

ـ في حرب الترك أكلنا الذرة ، ولبسنا الدوت ،وشربنا الشاي بالتمر ، إني أذكر تلك الأيام وأنا صغيرة ألعب في الزقاق .

فرد عليها الشيخ « عبد الرحمن » ضاحكا :

ـ إن الذي يعرف الفرق بين الذرة والقمح ليس صغيرا . لا أذكر تلك الأيام .

فأجابته ضاحكة :

– إنك لا تذكر ما حدثتني به ليلة البارحة من ذكرياتك في حرب الترك ، وكيف أخرجهم الشريف من مكة ، إن نسيانك للحديث دليل الكبر .

فصمت الوالد وسرح بفكره فيما تقوله زوجته :

« إنه يذكر الأحداث التي صاحبت خروج الأتراك من مكة ، بتفصيلاتها الدقيقة كما لو حدثت بالأمس القريب ، لقد كان شاباً يافعاً يعيش في كنف والديه ، تحت ظلال وارفة من الحنان والرفق الأبوي . لم يكن يحس بالحياة إلا أنها نزهة ممتعة ، أما الآن وبعد أن مرت عليه الأحداث ، فقد عرف أن الحياة مسئولية ، وجهاد ، وتضحية ، لقد خبر الحياة : حلوها ومرها ، سعادتها وشقاءها ، ولقد عاصر تلك الحرب فتى يافعا لا يعي من المسئولية شيئاً . أما هذه الحرب فيعاصرها زوجاً وأباً وجداً منتظرا ، وما أشد الفرق بين الحالتين ! ! .

« ما أسرع مرور الزمن ! هأنذا أعاصر حربين عالميتين ، وألمس ما جرته على بلادنا من ويلات ، إننا نعتمد في مقومات حياتنا الضرورية على ما تنتجه البلاد الأجنبية : الغذاء ، والكساء ، والدواء ، وإن مصيرنا مرتبط بهذا البحر ، نتجه

إليه في انتظار ما تقذف به البواخر على مرافئنا من قوت ، وما تتفصل به علينا من كساء ، والويل لنا إذا انقفل البحر ، وسدت المنافذ » .

وطافت على محياه سحابة قاتمة حينما ذكر ابنيه « محمودا » و « محمدا » :

« لقد لحدتهما في عامين متتاليين ، وعشت بعدهما أجتر الأحزان ليل نهار ، ولو عاشا لأصبح « محمود » في الثالثة والعشرين و « محمد » في الحاية والعشرين ، الحمد لله على كل حال ، فهذا « أحمد » قد أصبح رجلا ، ولكن لا أرى فيه من صفات إخوته شيئاً ، إنه منطو على نفسه ، قليل الكلام ، كثير التفكير ، مهزول الجسم ، كأنه مسئول ، عن هذا الكون ، وها هو ذا اليوم يحدثني عن رغبته في مواصلة الدراسة ، سيبعد عنا سبعة أعوام ، أو ثمانية ، أو عشرة ، لا أدري ، إني أدعو له على كل حال بالتوفيق » .

وحينما أحس « أحمد » بالصمت قد ران على مجلسه ، استأذن من والديه ، متجها إلى الطابق العلوي المعد لنومه ، ومتأبطا كتبه حيث يستأنف استذكاره إلى منتصف الليل .



كانت الساعة الثالثة صباحا عندما اتخذ الشيخ «عبدالرحمن» طريقه إلى دكانه في « سويقة » ماراً بشارع « المسعى » مسلما على من يلقاه من أصدقائه في الطريق .

وعندما حاذى باب السلام الصغير لمح جاره الشيخ «سالم» مقبلا من الحرم ، فتمهل قليلا في سيره إلى أن حاذاه ، ومد إليه يمناه يحييه تحية الصباح :

— صباح الخير يا شيخ « سالم » .

— صباح الخير يا شيخ « عبد الرحمن » .

وسار كل منهما إلى جانب الآخر ؛ الشيخ « عبدالرحمن » بقامته المتوسطة ، وجسمه النحيل ، ووجهه المستطيل ، وسمرته الخفيفة ، والشيخ « سالم » بقامته القصيرة ، وجسمه الممتلىء ، وهو يميل يمينه ويسرة في مشيته ، واضعاً على كتفه سجادة الصلاة ، وبيمناه مسبحته الطويلة .

سارا صامتين كأنما ينتظر كل منهما أن يفتح رفيقه باب الكلام ، الذي كان يبدأ عادة بسؤال أو كلمة عارضة ،

يلتقطها أحدهما من فم أحد المارة ، أو تعليق على حادث يعرض لهما في الطريق . ولم تكن الظروف تضن عليهما بذلك ، فقد كان حظهما وافراً في هذه الناحية .

كثيراً ما تلاقي الشيخ « عبد الرحمن » وجاره الشيخ « سالم » في هذه البقعة بالذات ؛ فقد كان كل منهما يتوجه إلى دكانه في وقت معين ، لا يتقدم دقيقة ولا يتأخر ثانية إلا فيما ندر من الظروف ، ولأمر خارج عن إرادتهما ، يؤخرهما أو يؤخر أحدهما عن موعده ، أو يحيد به عن طريقه المرسوم في الذهاب إلى الدكان .

كان الشيخ « سالم » ذا صوت ضخم ، مليء بالتعبير إذا تكلم ، يصحب حديثه — عادة — بإشارة من يديه ، وكثيراً ما يقف وهو منهمك في الحديث ، باسطاً يديه إلى رفيقه ، مشيراً إليه بالوقوف ليشرح حديثه ، وكأنما يتهيأ له أن السير قد يحول بينه وبين ما يرغب في شرحه .

التقط الشيخ « سالم » منظراً من المناظر التي عرضت له في شارع « المسعى » وبحركة من يمناه أشـــار للشيخ « عبد الرحمن » قائلا :

— أنظر يا شيخ «عبدالرحمن» إن «صالحا» الفاكهاني يخلي حانوته ، هل يطمع في حانوت ذي موقع أحسن من هذا

الموقع ؟ أنه مخطيء إذا تصور ذلك ، « فالمسعى » سوق مكة التجارية في أي فرع من فروع البيع ، ولكن لا بد أن في الأمر سراً لا ندركه . إني أعرف هذا الرجل ، وأعرف حرصه ووعيه .

إن لديه حاسة ترشده إلى مواضع الكسب والربح ، وتبعده عن مظان الخسارة والكساد . لا أدري ! ربما يكون قد عثر على حانوت أفضل في نفس الشارع .

كانا في ذلك الوقت قد شارفا نهاية طريقهما في شارع « المسعى » وبدا على يسارهما الخان – مبدأ سويقة – ذو الحوانيت المتلاصقة المواجه بعضها بعضا ، لا يفصل الحانوت عن مقابلة سوى مترين ، يمثلان عرض الشارع الذي يسير فيه مئات المارة ، متلاصقين متدافعين ، يميل السائر فيه – عادة – يمنة ويسرة ، باحثا عن فرجة بين الأجسام المتراصة .

وعندما أخذا اتجاههما في صعود الدرجتين اللتين يبدأ منهما ذلك الخان التجاري العتيق ، وتوكأ كل منهما على ركبته ، متأنياً في الصعود ، التفت الشيخ « عبدالرحمن » إلى رفيقه واصلا ما انقطع من حديث .

– لقد آن الأوان يا شيخ «سالم» لإخلاء « المسعى » من جميع الحوانيت ، ومن ثم إستخدام هذه البقعة في غرضها الأصيل . إن « المسعى » مشعر مقدس ، يؤدي فيه الحاج أو المعتمر شعيرة مقدسة من شعائر الدين ، والمفروض في ذلك – على أقل تقدير – إخلاؤه من الحوانيت ، والباعة المتجولين الذين ينادون على سلعهم ليل نهار ، إن الساعي تتوزعه النداءات المتكررة ، والأصوات المزعجة ،والضجيج المتعالي ، فيشغله عما هو فيه من دعاء وإبتهال ، زد على ذلك ما نراه من الحيوانات السائبة التي تسعى مع الساعين ، وتعرقل سيرهم .

كان الشيخ «سالم» يصغي إلى حديث رفيقه في استغراب : إذ أن مفتاح حديثهما كان عن انتقال « صالح » الفكهاني من دكانه ، فما لمحدثه ينتقل هذه الإنتقالة المفاجئة إلى الحديث عن الإصلاح ، ووجوب إخلاء حوانيت « المسعى » من أصحابها ؟ هذا إلى أنه – هو ذاته – لا يعني بمناقشة الأمور العامة إلا فيما يتصل منها بمصالحه الشخصية ، ولا ينظر إليها إلا من زاوية مصلحته الخاصة .

إن دائرة عمله تتمثل في التجارة ؛ الربح والخسارة ، الرواج والكساد ، ارتفاع الأسعار وانخفاضها ، التعرفة

الجمركية على المنسوجات ، أجور الحمل ، إيجار الدكان : أجور الصبيان . ثم ما يتصل بالتجارة من نتائج شراء أربعة قراريط من منزل بحارة « الباب » وقيراطين في منزل بسوق « المعلاة » ، وقطعة أرض فضاء في « جرول » وخرابة بـ « الشامية » ، وأما ما خلا ذلك فهراء في هراء ، في البلاد حكومة وهي أعرف منا بالإصلاح ، ولكن ما للشيخ « عبد الرحمن » والتعرض لمثل هذه الموضوعات الإصلاحية الخطيرة ؟ ! ألا يقدر نتائجها بإحساس التاجر الحصيف ؟ .

قال بعد تفكير :

— ألا تقدر نتيجة ما أشرت إليه يا شيخ « عبدالرحمن » بالنسبة لنا كتجار في هذا الخان الملاصق لـ « المسعى » ؟ . لا شك أن الملاك سوف يضاعفون علينا إيجار حوانيتنا ، نتيجة لإزالة الحوانيت في مكة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء التجار الصغار الذين سيجلون عن حوانيتهم مساكين ، أين يجدون مثل هذا الموقع التجاري ؟ في «الحريق» أم في « جرول » ؟ وأين نبحث عنهم نحن المستهلكين العاديين ؟ أين تبحث عن الصيرفي إذا طلب ابنك « يحيى »

قرشين وليس لديك تفاريق ؟ أتبعثه ليصرف الريال في « المعابدة » ؟ .

وكانا قد وصلا — حينذاك — إلى نقطة تقابل حانوتيهما المتواجهين في « سويقة » فاتخذ الشيخ « عبد الرحمن » اتجاهه إلى حانوته ، أما الشيخ «سالم» الذي كان مستمراً في حديثه فقد وقف عند نقطة التقابل منتظراً من رفيقه الوقوف ليكمل له حديثه عن نتائج إخلاء حوانيت « المسعى » ، وقد بدا من تحمسه وتحفزه لإلقاء المزيد من تلك النتائج على مسمع جاره أن آفاق الحديث اتسعت أمامه ، وأن خاطره قد أسعفه بمزيد من تلك النتائج الإقتصادية الّتي غابت عن ذهن رفيقه .

بدا كل ذلك حين انتزع الطاقية من رأسه ، وحملها في يسراه مرسلا نظره عبر الشارع في تفكير عميق ، وكأنه يقـــول :

« انتظر ، لدي المزيد من تلك النتائج ، وإن في جعبتي الكثير مما غاب عن ذهنك ، مما لا تعيه عقول التجار العاديين ، الذين لا يحسبون لكل عمل حسابا في المكسب والخسارة ».

لم يسمع سوى كلمة « بعد إذنك » وكأنها آتية من مكان بعيد ، أو كأنها صدى ضئيل لصوت يصله من واد عميق .

لم يتبين في تلك اللحظة استئذان صاحبه بوضوح ، إذ وصل إلى نقطة ثرة من فيض خواطره ، وتداعى المعاني في ذهنه ؛ مما جعله يغيب عما حوله .

وتنبه فجأة على أثر لكزة في ظهره من حامل يحمل فوق رأسه مقطفا مليئا بالخضروات والفواكه ، متخذا طريقه في عجل ، والعرق يتصبب منه ، فاستدار الشيخ « سالم » إلى حانوته وهو يحوقل قائلا لصبي الدكان :

— السلام عليكم .

كان الشيخ « عبد الرحمن » قد صعد إلى حانوته بعد أن خلع حذاءه وناوله الصبي ، وخلع بعد ذلك معطفه ، وجلس على طرف دكانه ، ثم وضع ساعته على صندوق النقود ؛ وما لبث أن فتح دفتر اليومية ، . وكتب التاريخ بأعلى الصفحة الجديدة بعد أن « بسمل » في سره ، ثم أغلقه وأعاد وضعه بجانبه .

كان هذا العمل إيذانا بيوم جديد في صباح جديد ، يكرره الشيخ « عبد الرحمن » في حانوته كل يوم ، منذ أن صار مسئولا عنه بعد وفاة والده .

من خمسة عشر عاما خلت وهو يقوم بهذا العمل آليا ، منظم الحركات ، مرتب الخطوات ، طوال تلك الفترة ، حتى أصبح جزءاً من حياته ، لا يشعر به وهو يؤديه ؛ ولا يفتقده إذا لم يؤده إعتقاداً منه بأنه قد قام به حتما .

في تلك الساعة من صباح ذلك اليوم — وقد بدأ الشارع العتيق يستيقظ ببطء على أصوات المارة ، وتحت أقدام العابرين القلائل — جلس الشيخ « عبد الرحمن » متربعاً بواجهة دكانه ، يستعرض في ذاكرته حديثه مع جاره الشيخ « سالم » ، ونقاشه مع ابنه في الليلة السابقة ؛ وما ينتظره من نقاش مع أخيه « عبد الرحيم » في موضوع « أحمد » و « فاطمة » .

وهو وإن لم يكن قد هيأ في ذهنه الطريقة التي سوف يناقش على أساسها هذا الموضوع ، إلا أنه بدا متهيباً من الحديث ؛ لا لشيء سوى أن هذا الموضوع دقيق بالنسبة لأخيه ، يستدعي منه الدقة في التعبير ، والاحتراس في المناقشة ، إنه يعرف في أخيه إحترامه لآرائه ، كما يحمل هو لأخيه العطف على رغباته وأمانيه .

هذا ما درجا عليه من قبل خمسة عشر عاما : منذ وفاة والدهما ، أي منذ أن تحمل هو أعباء الأسرة ، والقيام

بمسئولياتها ، ورعاية مصالحها ، يشاركه أخوه في ذلك مشاركة تامة عملا ومشورة .

إنه لا ينسى لأخيه الأصغر « عبد الرحيم » كده ، وعمله ، وطاعته ، ومشاركته له في كثير من الظروف التي مرت بهما منذ وفاة والدهما .

لقد مارس أخوه الأعمال التجارية خلال الخمسة عشر عاما كشريك له في هذا الحانوت ، واكتسب خبرة تجارية في السنوات الأخيرة من هذه الفترة ، مما يتيح له الإنفصال في العمل إذا أراد .

ولم ينس الشيخ « عبد الرحمن » انزعاج أخيه من فكرة الإنفصال حين عرضها عليه ذات يوم . عرضها عليه كمكافأة يسر بها أخوه ، نظراً لصغر عائلته التي تتمثل في زوجه ، وابنته « فاطمة » .

وتوارُد هذه الذكريات على ذهنه وهو في جلسته بحانوته هذا الصباح ، فتح أمامه باب الأمل في إقناع أخيه بوجهة نظر « أحمد » في الإكتفاء بعقد القران ، وتأجيل الزفاف ، بل إنه استعرض في مخيلته معاملة أخيه له خلال الفترة التي مرت بعد وفاة والدهما . وفكر في مدى مطابقة أعماله لأقواله ، فوجد في كل ذلك تأييداً لرأيه في أخيه .

وطافت على ثغره ابتسامة ارتياح ، وشاع في وجهه السرور للنتيجة التي وصل إليها ، أو النهاية التي استنتجها ، وتوقع حدوثها .

وبينما هو مستغرق في إشباع عاطفته باللمحة الباسمة التي بدت له في خياله ؛ والبارقة المضيئة التي شعت على وجدانه ، وكأنها تيار من القوى الخفية تزود قلبه بالأمل ، إذ رأى الشيخ « سالم » يقفز من حانوته مقبلا عليه ، وقد انقبضت أساريره ، واتخذ مكانه بجانبه في واجهة الحانوت ، فبادره بقولـــه :

— خير إن شاء الله يا شيخ « سالم » ؟ .

وتمهل الشيخ « سالم » برهة وجيزة ، وكأنما أراد أن يضفي على الحديث — قبل البدء فيه — أهمية تدفع صاحبه إلى أن يتجه إليه بكل جوارحه . وعقب فترة الصمت تنحنح استعداداً للحديث ، والتفت إلى الشيخ « عبد الرحمن » في اهتمام بالغ وقال :

— أتذكر حديثنا ونحن في « المسعى » قبل برهة ؟ .

وتمهل الشيخ « عبد الرحمن » في إجابته ، وهو يستعرض حديثه في ذلك الصباح ، وأجاب على مهل :

– نعم . إخلا « المسعى » من الباثعين المتجولين ، وأصحاب الحوانيت .

فأسرع هذا في إلقاء السؤال الذي يليه :

– أتذكر ما قلته لك إذا أخليت هذه الحوانيت ؟ .

– نعم . نعم . ولكن ما غرضك يا شيخ « سالم » من هذه الأسئلة ؟ تكلم في الموضوع .

ورفع الشيخ « سالم » قدميه المتدلتين على أرض الشارع آخذاً هيئة صاحبه في التربيع ، وبادره الشيخ « عبد الرحمن » قائلا :

– هل هناك بحث في إخلاء حوانيت « المسعى » ؟ .

وكان بهذا السؤال قد فوت فرصة ذهبية على الشيخ « سالم » . الرجل الذي كان إذا تكلم يصمت دقيقة بعد كل كلمة أو جملة ؛ كما كان يحرص على صياغة أحاديثه في تعبيرات تمثيلية ، وقد أراد الشيخ « عبد الرحمن » أن يختصر من الوقت الذي سينفقه في الحديث مع جاره ، ويتفرغ للمهم من شئونه الخاصة ، فقد شارفت الساعة الثامنة والنصف ، وهذا موعد قدوم أخيه « عبد الرحيم » من المنزل .

وأجابه الشيخ « سالم » على تساؤله :

– ياليت ؛ ليس هناك أي خبر عن إخلاء حوانيت « المسعى » . ولــكن الخــبر هو زيادة أجور المساكن والدكاكين .

إلتفت الشيخ « عبد الرحمن » إلى محدثه قائلا :

– ومن أين لك بهذا الخبر ؟ إني لم أر شخصا يحدثك منذ أن وصلنا إلى هنا .

وخفض الشيخ « سالم » من صوته وكأنه يخاف من إشاعة الخبر ؛ أو أنه يشفق من تحقيقه إذا أشيع :

– إن الصبي « مشير إلى حانوته الذي يقع أمامه » هو الذي حمل إلي هذا الخبر بمجرد وصولي إلى الدكان .

قال الشيخ « عبد الرحمن » ضاحكا :

– إنها تحية الصباح إذن .

وانفجر الشيخ « سالم » غضبا وهو يقول :

– يا له من صبي مشئوم ! يحمل إلي الأخبار السيئة من هذا الصباح ، كأنما يلذ له النكد في البكور .

وقال الشيخ « عبد الرحمن » وهو مازال يضحك :

– ولكنه يا شيخ « سالم » صبي أمين ولبق .

– نعم . إنه أمين في نقل مثل هذه الأخبار ؛ ولبق

في طريقة إلقائها ؛ تصور يا شيخ « عبد الرحمن » أقول له : صباح الخير . فيصبحني بهذا الخبر المشئوم .

وضحك الشيخ « عبد الرحمن » من طرافة الموازنة قبل أن يسأله :

– ومن أين جاء بهذا الخبر ؟ .

ورد الشيخ سالم في تؤدة قائلا :

– يقول إن المالك مر عليه قبل مجيئنا ، وأخبره بأن قريبا من أقربائه سمع من أحد أصدقائه المتصلين ببعض الموظفين بأن الحكومة تفكر في إطلاق حرية العقار .

وأدرك الشيخ « عبد الرحمن » من تسلسل الرواية بالصيغة التي سمعها أن الخبر مكذوب ، قصد به التشويش على الشيخ « سالم » لما هو معروف عنه من حرص وبخل .

وحين أدرك نقطة الضعف في رواية الخبر ، أراد أن يجعل من هذا الموضوع مادة لحديثه مع جاره الحريص ، يكشف به عما يجول بخاطره حول هذا الأمر ، فالتفت إليه قائلا :

– لا أظن أن الملاك سوف يقبلون أقل من الضعف إيجارا لعقارهم .

انزعج الشيخ « سالم » لهذا الإفتراض الذي يفوق الخبر ذاته سوءا ، وقال بانفعال :

— الضعف ! فال الله ولا فالك ياشيخ . كيف ندفع ضعف الإيجار الحالي ؟ إن هذا غبن لا نقبله ، إني أفضل قفل دكاني على أن أدفع ضعف إيجاره الحالي .

وكان للإنفعال الذي ظهر على ملامح وجهه ، أثر في إستمرار الشيخ « عبد الرحمن » في توجيه الحديث الوجهة التي تزعج الشيخ « سالم » فقال في ثقة :

— على كل حال ؛ فإن دكاني ترجع ملكيته لرجل طيب ، وكريم ، إني أتوقع بقاء دكاني على مستواه الحالي دون زيادة .

ولكن الشيخ « سالم » سارع إلى نفي الإفتراض الذي افترضه صاحبه قائلا :

— إني أعرف أصحاب العقار ، وأنا خبير بهم ، إنهم شرهون لا يرعون للضعفاء ضعفهم ، ولا ينظرون إلى المستأجرين نظرة عطف أو شفقة .

كان الشيخ «سالم» نفسه يملك منزلين صغيرين في «جرول» ومنزلا في «المعابدة » وبضعة قراريط مشتركة في منازل

متفرقة ، وكان بطبيعة التاجر الحريص في اختلاف دائم مع المستأجرين القلائل ساكني تلك المنازل ؛ وقد حضر الشيخ « عبد الرحمن » كثيراً من تلك المناقشات التي كانت تدور بين جاره والمستأجرين ، وكان يتدخل لفض الخلافات بين الجانبين ، ويسوي الأمور لصالح الطرف الآخر ، مستخدما في ذلك دالته على جاره . ولذلك فقد شعر الشيخ « سالم » بالحرج من انقلاب رأيه في أصحاب العقار على مسمع من جاره ، فهو نفسه من أولئك الذين وصفهم بالشره ، وعدم العطف على المستأجرين ، وتحرك من جلسته بسرعة متخذا طريقه إلى حانوته ، وهو يردد :

« الله يدبر أمورنا وأمور الخلق جميعاً » .

كانت سويقه آنذاك ، وبعد أن بدأ الضحى ينشر ضوءه على الأسواق ، قد اتخذت مظهرها المعتاد ، فقد فتحت جميع الحوانيت أبوابها ، وعرضت على واجهاتها ألوان المنسوجات الحريرية ، ورصت على رفوفها . أنواع الأقمشة القطنية والصوفية كما تدلت من العوارض الخشبية شتى أنواع المطرزات ، ما بين ذهبي ، وفضي ، وأصفر ،وأحمر.

وبالرغم من أن الشمس – في مثل هذا الوقت – قد بدأت تتسنم الأفق ، وتصلى جميع الأسواق بحرارتها الموقدة ،

وضوئها الوهاج ، إلا أن نصيب هذا الشارع من النور لا يتعدى قطعاً صغيرة من الضوء ، تتخلل ثقوب المظلة العتيقة ، فتبدو متناثرة على أرض الشارع ، وكأنها قطع نقود فضية تلمع في الظلام .

وبدأ الشارع يضج بالمارة والسائرين الذين يتخذون من هذا الشارع ممرا لهم ، وطريقا إلى وجهاتهم التي يقصدونها ، وما لبث أن تلا ذلك توافد المستبضعين ، والمتسوقين ، فبدأت بذلك أحاديث المساومات ، ونقاش البيع والشراء ، والمجادلات في الجيد والأجود ، والسميك والشفاف ، ووارد الهند وصنع لندن ، والمخزون والجديد ، إلى آخر ما هنالك من التعبيرات التي تعتبر امتداد للبيع والشراء : « هذه أحسن بضاعة وردت إلى اليوم . ابحث بنفسك في كل سويقة عن مثل هذا النوع ، أسعارنا أرخص الأسعار . ريال وربع ، ريال إلا ثمن ، ثلاثة ريالات ونصف الثمن » .

وكان الشيخ « عبد الرحمن » مستغرقا في كتابة خطاب حينما وصل أخوه « عبد الرحيم » إلى الدكان مسلما عليه بانحناءة بسيطة ، فوضع الخطاب الذي لم يتمه على صندوق النقود بجانبه ، وبدأ حديثه مع أخيه ــ كما يبدأ عادة ــ بالسؤال

عن حاله وحال أهل البيت ، ثم مستأنفا الحديث بعد فترة صمت قصيرة عن حديث الصباح ، وإشاعة خبر تأجير العقار ، شارحا لأخيه تفصيلات الحديث ، والمناقشة التي جرت بينه وبين الشيخ « سالم » .

وبينما هو آخذ في الحديث الشيق الذي أشاع السرور في وجه أخيه ، إذ أقبل بعض المشترين على الحانوت ، فترك أمرهم إلى أخيه « عبد الرحيم » ، بينما استدار هو إلى استئناف كتابة خطابه الذي كان قد وضعه على صندوق النقود . ولا يلبث أن ينظر إلى أخيه بين كل آونة وأخرى ، مصغيا إلى حديثه مع المشترين ، مرتاح النفس إلى سير المساومات ، وإلى لباقة أخيه في إقناع المساومين ومداورتهم ، وإلى حديثه الطلي ، ومناقشته ذات الطابع الفكاهي مع الزبائن ، وابتسامته التي يرسمها بإحكام على ثغره ، وهو يحدثهم عن مزايا ما يعرضه عليهم من منسوجات : « غسيل ، وكوي ، ولبس ، وجمال في اللون ، وروعة في النقش ، وأخيرا رخص في الأسعار » .

وتنبه الشيخ « سالم » وهو يرسل نظره خارج دكانه إلى وجود « عبد الرحيم » فبادره بالتحية أرسلها عبر الشارع :

— صباح الخير يا أخ « عبد الرحيم » .

وانتزع صوته « عبد الرحيم » من خضم مناقشاته مع زبائنه الذين تكاثر تواردهم ، وتوالت أفواجهم مع تقدم النهار ، ورد عليه التحية معقبا على ذلك بسؤاله :

ـ ما الأخبار يا شيخ « سالم » ؟

فرد عليه مشيراً إلى الشيخ « عبد الرحمن » :

ـ أسأل أخاك فلديه أهم الأخبار ، أخبار تهمنا جميعاً ، اسأل الله ألا يحققها .

وعاد « عبد الرحيم » إلى حديثه مع الزبائن ، مستأنفا عمله بهمة ونشاط ، مقبلا عليه بجماع قلبه ، ومد صبي الدكان وهو جالس الصينية التي يحملها بين يديه ، وقد رصت عليها أقداح الشاي الصغيرة ، وتناول الشيخ « عبد الرحمن » واحداً ورفعه إلى فمه ، ورشف منه رشفة صغيرة ، تمهل بعدها قليلا متذوقا طعم الشاي في أناة ، مرسلا نظره إلى خارج الدكان من فرجة بين الأجسام المتراصة أمامه ، وإذا به يفاجأ بابنه « أحمد » مقبلا عليه ، على غير عادته ، مما كاد معه أن يكذب عينيه .

وما كاد « أحمد » يحاذي الدكان حتى بادره أبوه بسؤاله عما أتى به ؛ وجال « أحمد » بنظره في الحانوت حيث رأى عمه منشغلا بالزبائن ، فأنحى على أذن أبيه هامساً :

— هل تفاهمت مع عمي ؟

وصعد الشيخ « عبد الرحمن » نظره إلى ابنه في أناة ؛ عله يعرف السبب الذي دفعه إلى الخروج من المدرسة قبل الإنصراف . وعاجله في حدة مشوبة بشيء من القلق :

— ما الذي أخرجك من المدرسة ؟ .

وأجابه « أحمد » بصوت منخفض :

— استأذنت من المدير لعرض نفسي على الطبيب .

وتساءل الأب في انزعاج ظاهر :

— الطبيب ! ؟ هل تشكو من مرض ؟ .

— وقال « أحمد » في بساطة محاولا أن يهون على أبيه :

— مرض بسيط ؛ فقد شعرت بدوار في الحصة الثانية ، وخرجت على أثر ذلك من الفصل ؛ ولم أستطع العودة ؛ وقد أذن لي المدير بمراجعة الطبيب والراحة بالمنزل .

وتوقف الأب في حديثه وتساؤله ، بينما انهالت على فكره الهواجس .

« مرض بسيط . دوار . مراجعة الطبيب . ثم راحة بالمنزل . إذن فقد تحقق ما افترضته وهما من الأوهام . لقد

لاحظت اضمحلال صحته ، واصفرار وجهه منذ أيام ، وها هو ذا اليوم يعود إلى وهو يشكو من دوار يضطره إلى ترك المدرسة .

وتساءل في سره :

« هل قدر لى في المجهول شيء جديد ؟ لقد عاش لي « أحمد » بعد أخويه « محمود » و « محمد » اللذين أودعتهما الثرى في ظروف أذكرها بأحداثها الأليمة ، لقد عفى الزمن على تلك الأحداث ، واندملت جروحها ، وإن تركت أثرها ذكريات أليمة قاتمة . ولكن ما لهذه الأشباح تتوارد أمامي الآن ! وفي هذه اللحظة بالذات ! إن « أحمد » سوف يعيش ، فقد تغلب على الأمراض منذ صغره » .

وكان « عبد الرحيم » قد فرغ من عمله الذي بين يديه ؛ وما إن رأى « أحمد » حتى تهلل وجهه سروراً ؛ وافتر ثغره عن ابتسامة عريضة . وحيا « أحمد » الذي التفت إليه مبتسما ، وأسرع إليه يقبل يده في انحناءة مهذبة ، فما كان من « عبد الرحيم » إلا أن سحب يده وهو يربت على كتف « أحمد » وقد ازدادت ابتسامته إشراقاً ، كما ازدان وجهه بإشراقة الحب الذي يكنه لـ « أحمد » .

لم يلحظ «عبد الرحيم» على ابن أخيه مظاهر الإعياء أو المرض ، فهو لم يحمل بعد جرثومة الوهم والقلق كأخيه الأكبر ، ومن ثم لا يفترض المرض في أحد أفراد الأسرة إلا بعد التأكد منه ، وجريا على عادته في التفاؤل قال موجهاً كلامه إلى « أحمد » :

— ما شاء الله صحتك جيدة .

وكأنما راق للأب هذا التفاؤل الذي أخرجه — لحظة — من دوامة الوهم القاتل ، فأراد أن يستزيد منه ، وابتسم ابتسامة الرضا لما قاله أخوه وكأنه يردد : « إن شاء الله . أو حقق الله تفاؤلك » .

ولكن الوهم الذي يعيش فيه أبي أن يزايله ، حتى في هذه اللحظة الباسمة ، التي أشرقت عليه بتفاؤل « عبد الرحيم » ؛ فقد عاوده بصورة مخففة وطفيفة .

تمثل ذلك في سؤاله لأخيه :

— ألم تلحظ الإعياء على « أحمد » وهذا الاصفرار الذي اكتسى به وجهه ؟ .

قالها في لهجة تنم عن أنه في حاجة إلى كلمة أخرى تؤكد له التفاؤل الذي يبتغيه ، وتنقذه من القلق المسيطر عليه .

ورد عليه أخوه :

ـ كلا . كلا . إني أراه في صحة جيدة ، ولا تنس أن « أحمد » نحيل القوام ، أما الصفرة التي تتوهمها فأعتقد أنها نتيجة سهره في المذاكره .

والتفت الأب في أسى ظاهر إلى أخيه ، في الوقت الذي أشار فيه إلى « أحمد » قائلا :

ـ هذا ما نصحته به مرات عديدة ، لقد كانت النتيجة هذا الدوار الذي شعربه اليوم ، مما اضطره إلى الخروج من المدرسة لمراجعة الطبيب .

ووجد « عبد الرحيم » في حديث أخيه ردا على تساؤله الذي جاش بخاطره ، عن السبب في خروج « أحمد » من المدرسة في مثل هذا الوقت من النهار . كما أدرك السبب في قلق أخيه الذي اتسم به حديثه . وسأل « أحمد » محاولا بذلك أن يخفف حدة القلق الذي استولى على أخيه الأكبر ، وفي لهجة تنم عن تهوين الأمر عليه :

ـ دوار في رأسك ؟ وهل الدوار مرض يا شباب اليوم ؟ متى نمت ليلة البارحة ؟ .

وبوغت « أحمد » بالسؤال . ففي إجابته إن صدق إحراج لموقفه ، وخاصة إذا ما تواردت الأسئلة المحرجة إلى ذهن عمــه .

لقد قضى ليلته السابقة في صحو دائم ، ومر عليل الليل ثقيلا مضنيا بخطواته المتئدة . وكأنها خطوات مارد جبار . لقد أحس بتلك الخطوات في تلاشي أصوات المدينة ، ثم في إنطفاء مصابيح المنازل ، ثم في الصمت العميق الذي خيم على الكائنات ، ثم في صياح الديكة في الهزيع الأخير من الليل وهي تتعجل الصباح ، وتناديه بأصواتها المتصاعدة في الأفــق .

إنه لم ينم ليلته . لم يقضها في المذكرة . بل قضاها مستلقيا على فراشه مفتح العينين ، يستعرض موقفه من الأمر الذي كان موضوع نقاشه مع أبيه ، لقد توزعت نفسه بددا . وتواردت على ذهنه شتى الاحتمالات ، وكثــير من الافتراضات ، كما اتخذ في ذهنه لكل احتمال مخرجا ، ولكل افتراض حلا ، إذا قالوا . . قلت . . إذا سألوا . . أجبت . .

ولكن . . ما أسعده لو أن عمه يوافق على تحقيق رغبته ! . إذن لأدرك الهدفين .

وخرج صوته متخاذلا في وجل وخوف ، فسوف يجيب عمه على تساؤله بغير الحقيقة . سيكذب ويختلق عذرا لسهره الذي أضناه ، وعهده بالكذب منذ زمن بعيد . زمن الطفولة ، حينما كان يختلق الحوادث في ذهنه ، وهو عائد إلى المنزل قبل آذان المغرب ممزق الثياب . مشوه الوجه بتراب الأزقة والشوارع ، وتقابله أمه على باب المجلس . ويقف هو على الدرجة السفلى ، ويسرد الحادثه المختلقة في يسر وسهولة ، مشيراً إلى ثوبه الممزق ، وكيف أنه تعثر الآن فقط أمام باب المنزل ، وتمزق ثوبه . ليس للعب دخل في تمزيق الثوب . ولم يكن الركض والجري سببا في تعفير وجهه بالتراب . ويصحب حديثه المكذوب بدمعتين كاذبتين يؤكد بهما حديثه .

وقال مجيباً عمه على سؤاله :

ــ لقد نمت الساعة الخامسة بعد أن قمت ببعض الواجبات المدرسية ، وقد أرقت قليلا قبل أن أنام .

وبدت على وجهه سمة ارتياح وهو يجيب عمه على سؤاله ، وكأنما ألقى عن كاهله حملا ثقيلا ناء بحمله .

وظهر الإقتناع على وجه عمه ، إلا أنه عقب على ذلك بقوله :

– على كل حال لا أرى في الأمر ما يستدعى مشورة الطبيب . قليلا من الراحة وسوف تطيب . والتفت «أحمد» إلى أبيه هامسا في أذنه :

– لا تنس « مشيرا إلى عمه بطرف أصبعه ».

وابتسم أبوه ابتسامة ذات معنى أدركه « أحمد » مما بث الإطمئنان في نفسه القلقة ، وقال الأب في صوت سمعه « عبد الرحيم » :

– إذهب إلى المنزل ، وسنفكر في عرضك على الطبيب .



اجتاز « عبد الرحيم » الأزقة الطويلة الملتوية التي تؤدي إلى بيته ؛ وشارف الساحة الواسعة التي يقع المنزل في نهايتها .

وقد بدا متئدا في خطوه ؛ بقامته الطويلة ، وجسمه المتناسق التركيب ، ووجهه الباسم المشرق ذي اللون القمحي ، وبدا في أحسن حالاته ؛ وهو مقبل على داره ، يشغل نفسه بما يشغلها به دائما ؛ التفكير في زوجه وابنته « فاطمة » ، عائلته التي يشقى لها ، ويسعى في الحياة من أجلها ، هذه العائلة الصغيرة التي ملأت عليه دنياه . يقبس من ابتساماتها قبسا مضيئا ينير طريق الحياة ، ومن سعادتها طاقة تمده بالقوة ، وتدفعه إلى مضاعفة جهده ، ليهييء لها سعادة أعظم وحياة أفضل .

هذه عائلته الضئيلة في عددها العظيمة في أثرها ، فقد تمثلت دنياه الرحيبة في ابتسامة ندية يراها على ثغر زوجه « صفية » ، أو لمحة من سعادة يجدها على محيا ابنته «فاطمة» .

كان الوقت ظهرا والشمس تصلى الأرض بحرارتها المستعرة ، وتلسع الوجوه بحرارتها الشديدة القاسية ، وكان « عبد الرحيم » قد اجتاز منتصف الساحة ، ورفع عينيه إلى نوافذ منزله ، وقد تعود أن يلمح عيني « فاطمة » وهي ترقبه من وراء خصاص النافذة ، في عودته ظهر كل يوم ، وكأنما تحييه أو تحرسه بنظراتها ، أو كأنما تستعجل الزمن لرؤيته ، والتزود بما يفيض به وجدانه من الحب العظيم الذي يكنه لها .

كان ذلك الإنتظار الذي تعوده من ابنته منذ صغرها حتى أصبح عادة لها ، أو فريضة تؤديها في وقتها المحدد — منهلا من المناهل العذبة الثرة ، ترتاح نفسه إلى الإنتهال منها ، وواحة من العواطف الطبيعية يأنس قلبه باللجوء إليها .

وأتاه صوت ضئيل من خلفه لم يستطع أن يميزه :

— عمي « عبد الرحيم » ! ؟ .

والتفت إلى مصدر الصوت ، حيث رأى « كاملا » ابن شقيق زوجته يحمل كتبه بيسراه ، وسأله في دهشة موشاة بحنان دافق ، وابتسامة رقيقة لينة :

— ما الذي جاء بك إلى هنا في وقت الظهيرة يا « كامل »؟.

وابتسم الطفل الصغـــير حينما آنس العطف من عمـه « عبد الرحيم » ومد يده مسلما ، وأجاب على سؤاله :

ـ سوف نتغذى عندكم اليوم .

ضحك « عبد الرحيم » وهو يقول متسائلا :

ـ من غير دعوة ؟ ! .

وكأنما أحس الطفل بالحرج ، فتحولت أساريره من الانبساط إلى الانكماش ، وأجاب في تلعثم :

ـ اسأل أمي . هي التي دعتني إلى منزلكم .

وانفلت مسرعا أمام « عبد الرحيم » الذي واصل سيره في أناة وتؤدة إلى أن وصل منزله .

استقبلت « فاطمة » أباها على باب الطابق الأول المفتوح على مصراعيه ، حيث بادرته قائلة :

ـ لدينا ضيوف .

وأومأ برأسه قائلا :

ـ لقد عرفت ذلك ؛ فقد قابلت « كاملا » ابن خالك وهو قادم إلى هنا .

وفي داخل المجلس وقف « عبد الرحيم » يخلع ملابسه ، ووقفت « فاطمة » غير بعيدة منه ، تتناول منه الملابس قطعة

قطعة ، وتطويها في عناية ، وتضعها في ترتيب بعضها على بعض .

كانت تقف منتصبة القامة ، وكأنها تمثال قدّ من الحياة الجميلة المرغوبة ، وكانت إلى الطول أقرب ، ناحلة الخصر ، قمحية اللون إلى بياض ، دقيقة التقاطيع ، حلوة الملامح ، يزدان رأسها بهالة من الشعر الأسود المسترسل . على أن أهم ما يلفت الرائي إليها عينان سوداوان سخيتان بالتعبير ، تظهر عليهما خوالج نفسها ، فيبدو فيهما بريق السعادة في لحظات مرحها ، ويزداد توهجهما حينما تضحك ، كما يخبو تألقهما في أوقات حزنها – وقلما تحزن – فهي لم تزل في الرابعة عشرة من عمرها .

وهي وإن لم تكن قد اكتملت محاسنها كأنثى ، إلا أن الخطوط الأولى قد أوضحت ما ستكون عليه هذه الصورة الحية ، وللزمن – بعد ذلك – أن يملأ الفراغ ، ويلون الظلال ، ويكمل الخطوط ، حيث يضفى على الصورة الكاملة معناها الأخير . وتعبيرها الذي يهدف إليه .

وعندما انتهت من ترتيب ملابس أبيها التفتت إليه قائلة :

– إن خالي سوف يتغذى معك .

فرد عليها وهو يمم شطر النافذة :

– سوف انتظره .

وبعد فترة صمت استأنف حديثه قائلا :

– لم لم تخبريني بمجيئهم من الصباح ؟ إذن لدعوت عملك لتناول الغذاء معنا .

أجابت « فاطمة » وهي في طريقها إلى الباب :

– لم يأت رسولهم مبكراً .

وعندما شارفت عتبة المجلس وهي خارجة سمعت أباها يكمل حديثه قائلا :

– لا أظن أن ظروف عملك تسمح له اليوم بمجيئه ، لمرض « أحمد » .

شعرت « فاطمة » وهي في خطوتها الأخيرة بأن قوة ما قد تشبثت بقدمها . فلم تستطع أن تتقدم خطوة إلى سبيلها ، ولم تستطع أن تعود إلى أبيها تستوضحه جلية الأمر . فوقفت بغير إرادة منها عندما صافح سمعها الخبر الذي ألقاه والدها عن مرض « أحمد » ، وشعرت بقلق لم تألفه ، وتتابعت دقات قلبها بصورة لم تتوقعها .

وأشفقت على نفسها من هذا الموقف ؛ فهي لم تتعود من نفسها مثل هذا الشعور .

إن « أحمد » ابن عمها لم يكن في إحساسها — إلى ما قبل لحظات فقط — سوى ذلك الطفل الصغير الذي ألفته ، وارتاحت إليه ، الطفل الذي يحمل إليها « الحاجة » وهو عائد من مدرسته كل يوم ، ويضع ما يحمله بين يديها ، تقسمه القسمة العادلة بينهما ، النصف له والنصف لها . ولا يرضى هو بذلك فيضيف إلى نصيبها جزءاً كبيراً من نصيبه ، وزاد من شعورها بالإشفاق أنها لم تتبين حقيقة هذا الشعور ، ولم تتبين هذه القوة التي أوقفتها هذه الوقفة الحائرة المترددة لقد كان من الطبيعي أن تتلقى خبر مرضه كأي خبر عادي ، لا يلابسه قلق ؛ ولا تقيده قوة تتشبث بقدميها ؛ وكأنها قيد حديدي وضع بغتة بقدميها فيمنعها عن الحركة .

وسألت نفسها — وهي في وقفتها — ما سر هذا الاهتمام ؟ وقلبت الأمر على شتى الاحتمالات ، تناقشه في ذهنها بفلسفة الفتاة التي لم تتعد سن الصبا إلا منذ عامين ، وعلى ضوء بيئتها العامة المحافظة ، فلم تحظ بنتيجة مرضية ، واستمعت إلى نفسها وهي تقول بصوت ضعيف :

مسكين « أحمد » .

وأرادت أن تعود إلى أبيها تستوضحه جلية الأمر الذي أقلقها ، ولكنها لم تستطع ، فقد غلبها الحياء ، وأخذت طريقها إلى الطابق العلوى ، مطرقة الرأس ، في حيرة وقلق ، ووجدت أمها مستغرقة في الحديث ، فبادرتها بالخبر في فزع :

— أمي ألا تعلمين ؟ ! إن « أحمد » مريض .

وتوقفت أمها عن الحديث فجأة ، والتفتت إليها في اهتمام ظاهر بالأمر ، وردت :

— « أحمد » مريض ! ؟ منذ متى ؟ وما مرضه ؟ .

وردت عليها « فاطمة » قائلة :

— لا أدري ، إن والدي أخبرني بذلك الآن .

وأطرقت الأم مفكرة في الأمر ، ووقفت « فاطمة » أمامها في صمت ، وكأنما تستحثها على سؤال أبيها . وفيما هما كذلك إذ وصل إليهما صوت « عبد الرحيم » يعلن مجيء « كمال » شقيق زوجته . فالتفتت قائلة :

— هيا يا « فاطمة » اصعدي إلى المطبخ ، وأعدي الأطباق على قسمين منفصلين ، وسوف ألحق بك حالا

وفي الطابق السفلي جلس « كمال » على رأس الخوان بعد أن أعدت ترتيبه وتنظيمه « فاطمة » . وجلس على يمينه « عبد الرحيم » ، وجلست « فاطمة » أمام أبيها غير بعيد عن خالها ، يفصلها عنه مكان يتسع لشخص واحد على الأكثر .

التفت « كمال » مخاطباً « فاطمة » :

– ألم يأت « كامل » من المدرسة ؟ .

وأجابته وهي تتناول طبقه وتضع فيه بضع ملاعق من الشوربة :

– إنه سيتناول غذاءه مع والدته وعمته ، وقد رأيته معكر المزاج على غير عادته .

وضحك « عبد الرحيم » وهو يقول :

– أنا الذي عكرت مزاجه ؛ استدعيه يتناول غذاءه معنـــا .

وما إن قامت « فاطمة » – وهي لم تبدأ بعد في تناول طعامها – حتى التفت « كمال » إلى « عبد الرحيم » قائلا :

– ما الذي تم في الأمر الذي حدثتني عنه ؟ .

وصمت « عبد الرحيم » لحظة مفكرا في الأمر الذي يقصده صهره ، ثم استدرك متسائلا :

– أتقصد موضوع « فاطمة » و « أحمد » ؟ .

وأومأ « كمال » مجيباً بالإشارة وهو يدنى رأسه من الطبق الذي أمامه بعد أن رفع الملعقة إلى فمه .

وأجابه « عبد الرحيم » :

– دار حديثي اليوم مع أخي حول هذا الأمر ، وقد تم إتفاقنا على عقد القران ، وتأجيل الزفاف إلى أن ينتهي « أحمد » من دراسته الجامعية في الخارج .

وبعد أن صمت لحظة استأنف حديثه ، وكأنما يهدف بذلك إلى الإجابة عن سؤال يتوقعه من صهره ، فقال :

– إن لـ « أحمد » رغبة في مواصلة دراسته ، وإني أؤيد رأيه خاصة وأنه متقدم في دراسته .

ووصل إليهما صوت « فاطمة » وهي على الباب تمسك ابن خالها ؛ وتدفعه برفق إلى داخل المجلس ، فأمسكا عن الحديث الذي خاضا فيه . بينما التفت إليها خالها قائلا وهو يبتسم :

– منذ زمن بعيد لم أتناول هذا الطعام ذا النكهة الزكية .

ثم ملتفتاً إلى « عبد الرحيم » مستأنفاً حديثه :

– ولكن هذا ليس من المصلحة ؛ فجودة الطعام تغرينا بالإكثار منه ؛ وهذا يلحق العجز بالميزانية .

وعقب « عبد الرحيم » وهو ينظر إلى « فاطمة » :

– ماذا رأيت ؟ هذا قليل من كثير ؛ إن فاطمة قد أصبحت طاهية يشار إليها بالبنان . لقد اشترت كتابا في الطهي ؛ وهي مكبة الآن على دراسته .

قال « كمال » مبتسما وهو يسدد نظره إلى « فاطمة » :

– ما شاء الله ! وهل استطاعت قراءته ؟ .

وأجابه « عبد الرحيم » قائلا :

– إنها لم تترك القراءة والكتابة منذ أن تركت المدرسة قبل عامين ؛ وأنا الآن أساعدها في أوقات متفرقة على الاستمرار في الاستذكار .

واتسعت ابتسامة خالها وهو يقول :

– لا تكوني كالسيدة التي أدخلت معها كتاب الطهي إلى المطبخ . ولم ترفع رأسها عن الكتاب إلا على رائحة الطعام المحروق .

وضج الإثنان بالضحك بينما أطرقت « فاطمة » وعلى ثغرها ابتسامة الرضا لمجرى الحديث ، الذي كانت هي مركزه ومداره. وكأنما أثار فيها الحديث، شعورها بالاعتزاز بما أتقنت من شئون المنزل الأخرى ؛ فقالت على استحياء :

– إن ماكينة الخياطة قد أخذت كل وقتي ؛ وخاصة بعد أن اشترى لي أبي كراس النماذج الذي أستعين به في تفصيل الملابس .

ورفع الإثنان أعينهما في ضحكة مكتومة لم تش بها الشفاه ؛ وإنما عبرت عنها النظرات المتبادلة بينهما .

لقد تمثلت لهما في تلك اللحظة الوجدانية المشتركة « فاطمة » الطفلة التي تتكلم كثيرا ؛ وتسأل كثيرا ؛ تتكلم في كل ما يخطر لها على بال . وتسأل عن كل ما يقع عليه نظرها ؛ تتحدث في التافه من الأمور ؛ وكأنه ذو أهمية بالغة لدى محدثها ؛ ولا تقنع بما دون الإصغاء الكامل من مستمعيها ؛ فإذا ما عن لأحد أن يلتفت يمنة أو يسرة قفزت إليه ، وهي تدير رأسه إليها لتكمل له الحديث ؛ بل إنها إذا ما أحست من أحد مستمعيها غياب ذهنه عن متابعة حديثها توقفت عن الكلام فجأة . تنتزعه بذلك عن تفكيره وسرحانه ؛ فيستعيد استحضار ذهنه لحديث الطفلة .

هذه هي « فاطمة » الطفلة ، تمثلت لهما في القفزة الذهنية التي نقلت بها الحديث من ناحية إلى أخرى ، وكأنما تلفت إليها الأنظار بأسلوب آخر جديد ، اكتسبته بتطورها من الطفولة إلى الفتوة . ليس هناك فارق – في الحقيقة – بين جوهري الأسلوبين ، فحديثها الأخير هو نفس الحركة التي تستخدم فيها يدها في إدارة رأس المستمع إلى حديثها .

وهكذا تهيأ لها أن تعيد الحديث مرة أخرى إلى الدائرة التي أرادتها ، وأن تركزه في كل ما يثير فيها شعور الاعتزاز ، كفتاة أصبحت أو ستصبح سيدة لمنزلها ، بعد أن كاد اتجاه الحديث أن يبعد عنها ، ويفلت من بين يديها .

وراق لخالها أن يرضي كبرياءها ، ويظهر لها اهتمامه بالخبر الجديد ، فاستدار إليها في دهشة قائلا :

– ولماذا لم نسمع عن ذلك قبل الآن ؟ إنها مفاجأة سارة ، سوف أبعث إليك الأقمشة الجديدة التي اشتريتها لـ «لطيفة» لتقومي بتفصيلها ، كما أني أرغب في أن تعلميها أصول التفصيل ، هل لديك مانع ؟ .

ووقع حديث خالها موقعاً حسناً من نفسها ، مما أدار رأسها إعتزازاً وفخراً ، فقد أصبحت في نظره أستاذة

في التفصيل والحياكة ، إلى جانب أستاذيتها في الطهي ، عدا شئون المنزل الأخرى التافهة ، التي لم يصبح من اللائق على فتاة مثلها الافتخار بإتقانها ، لتترك تلك الشئون تفتخر بها الفتيات الصغيرات .

وأجابته في ثقة واعتداد :

— إني مستعدة لذلك ، أرسل لي الأقمشة ، وابعث « لطيفة » ثلاث مرات في الأسبوع .

وتحركت فاطمة من مكانها تجمع فتات الخبز وبقاياه المتناثرة ، وتجمع الأطباق الفارغة والملاعق ، بعد أن فرغ أبوها وخالها من تناول الأكل ، ونادت على « سالم » الخادم الذي كان واقفاً بباب المجلس ، وأقبل إليها حيث حمل الأواني إلى المطبخ ، ووصل إليها صوت أمها وهي تخاطبها بعد أن أقبلت تحيي أخاها :

— اصعدي يا « فاطمة » إلى زوج خالك ، وسوف أقوم أنا بخدمة أبيك وخالك ، لقد أعددت معدات الشاي فا بعثيها مع الصبي .

وقامت « فاطمة » وفي ذهنها بقايا من أحاديث المائدة ، تلك الأحاديث التي بثت في عواطفها نشوة أحست بها

دافقة قوية ، ظهر أثرها على محياها ، وقد اصطبغ بإشراقة وضاءة ، وابتسامة بدت على ثغرها زاهية ندية . كما ظهر أثرها على صورة أخرى ؛ في فقدان سيطرتها على أعصابها . فقد ندت عنها حركة لا إرادية ، أطاحت بالوشاح من رأسها ، وانسدل شعرها الأسود على ظهرها ، مما دفعها إلى الإسراع نحو باب المجلس ؛ ممسكة شعرها بكلتا يديها تلمه في ربطته السابقة .

لم تكن « فاطمة » راضية كل الرضا عن ترك أبيها وخالها ؛ فقد كانت تعد نفسها لسماع أي حديث بينهما عن مرض « أحمد » ، لقد كانت تنتظر بفارغ الصبر أن يخوضا في هذا الحديث ، ولكن تصرفاتها الصبيانية قد فوتت عليها تلك الفرصة ؛ فقد أعادتهما إلى الحديث والتساؤل عما تتقن من شئون المنزل ، وما لا تتقن ، بعد أن كاد حديثهما في هذا المجال يصل إلى نهايته .

وهي بحكم طفولتها الوجدانية لم تفرغ من مناقشة نفسها في سر اهتمامها بهذا الخبر ؛ تسيطر الفكرة عليها لحظة بإلحاح وقوة ، وما تلبث أن تنقشع بغتة ، وكأنها تطرد من ذهنها اقتناعها بهذا الإهتمام .

لقد كانت في درجة من التبلبل الفكري ، فهي في حاجة إلى إقناع نفسها – أولا – بأنها مهتمة بمرض « أحمد » ؛ وعندما يصل تفكيرها إلى هذه النقطة ما تلبث أن تكذب نفسها بقوة وإصرار ، وتحاول جاهدة إفتراض عكس هذا الشعور كحل للخروج من أزمتها النفسية ، ولم تصل « فاطمة » إلى نتيجة تشبع رغبتها في المعرفة ، معرفة أغوار نفسها ، فقد أعياها البحث بوسيلتها التي استخدمتها للوصول إلى شيء ما ، شيء مجهول لا تعرف كنهه .

وأخذت طريقها إلى الطابق العلوي ساهمة شاردة ، وجلست صامتة أمام زوجة خالها تعد أواني الشاي ، وترتب الأقداح ، في الصينية المعدة لذلك ، كما أمرتها أمها . . وفي الدور السفلي ، جلست « صفية » في مواجهة أخيها وزوجها ، حيث وضعت أمامها معدات الشاي ، في صينية من الحجر ذي الرسوم الزخرفية ، وعلى يمينها وضعت « السماور » في صينية معدنية .

قال « عبد الرحيم » موجهاً الكلام إلى زوجته :

– أرىأن تذهبوا اليوم لزيارة « أحمد » فقد عاد من المدرسة مريضاً .

وكانت « صفية » تمسك بيمناها المنشفة ، تمسح بها أطراف الصينية الحجرية ؛ وحوافي الأقداح ، وما إن سمعت حديث زوجها حتى تركت ما بيدها فجأة ، والتفت إلى زوجها التفاته تدل على إهتمامها بالحديث ، وهذا ما تقوم به عادة عندما يحدثها حديثا يتصل بأمور الأسرة ، وأحوال العائلة ، ولعلها تشير بذلك — عادة — إلى أنها قد فرغت له بكل جوارحها ، تتلقى كلماته في إصغاء وانتباه ، لا يشغلها عنه تفكير في أي أمر من الأمور العارضة ، وهي في تهيئها الذهني ، ومظهرها الذي يدل على ذلك ، وتوقفها عن الحركة خلال حديث زوجها ، إنما تضيف ميزة يعتز بها زوجها إلى جانب ما يعتز به من خصالها الأخرى الفاضلة .

وأجابته في صوت خفيض ، فيه من التأثر قدر ما فيه من الرغبة في الاطمئنان على صحة « أحمد » :

— لقد أخبرتني « فاطمة » بذلك نقلا عنك ، ولم تخبرني بالتفاصيل .

وأجابها « عبد الرحيم » يطمئنها ، ويهديء من روعها :

— إنه إعياء بسيط من كثرة السهر ، ولكن أخي — كما تعرفين — قلق دائماً على أبنائه ، وخاصة على « أحمد » ، إني

لم ألحظ عليه أي عرض من أعراض المرض ، ولكن أخي أشار إلى صفرة في وجهه ، وإعياء على سماته لم أتبينها – في الحقيقة – من أول وهلة .

قالت « صفية » في لهجة تنم عن أساها ، وفي نبرة توشى بقلقها ، فقد خرج صوتها غير واضح ، وكأنما قد غص حلقها بحشرجة بكاء :

– كفى ما عانى أخوك من موت ابنيه اللذين سبقا « أحمد » .

وتوقفت عن الكلام فجأة ، فقد أحست بإختناق صوتها ، وعبرة إنسابت على خدها ، وشعرت بعجزها عن مواصلة الحديث الذي بدأته ، وعن التعبير بما جال في نفسها آنذاك : (إن الجروح لا تندمل كما نتصور ، لا بد من ندبة أو أثر ، إن الزمن بأحداثه ، وانفعالاتنا مع تلك الأحداث ، يلقى على جروحنا طبقة رقيقة تحجبها عن أعين الناس ، ولكن الجريح نفسه يحس بآلامه ، ويعيش معها في صمته وأوقات وحدته).

وتنهدت في عمق كأنما تنفث في زفرة كل آلامها ، وهواجسها ، وقلقها ، وقالت تختم حديثها ، وقد تصورت « أحمد » أمامها :

– أقر الله به عيون والديه إن « أحمد » مثال الشاب الذي يفخر به أهله .

وكأنما تحول مجلسهم الذي ران عليه الصمت إلى مجلس حزن ، أطرق كل من فيه إلى الأرض متفكراً ، وأحس « عبد الرحيم » بمسئوليته في ذلك ، إذ أن التبعة تقع عليه في فتح باب الحديث عن مرض « أحمد » ، وهو يعرف حب زوجته لـ « أحمد » ومنزلته لديها .

و « عبد الرحيم » – نفسه – كان يحمل لـ « أحمد » في قلبه الحب العظيم ، إلا أن نظرته المتفائلة لم تترك مجالا في نفسه للقلق والوهم، على أنه يلتمس الأعذار دائماً لزوجته، فهي امرأة على كل حال ، تحمل من طاقة الحنان – كأم – أضعاف ما يحمله هو ، وقلب الأمهات دائماً واجف خائف قـــلق .

كان « أحمد » بالنسبة إلى « صفية » ابنا ، وإن لم تلده هي فقد ولدته ابنة عمها « خديجة » و « خديجة » وإن كانت تكبرها بأعوام إلا أنها شريكة صباها ، ومودع سرها ، تستنير برأيها في كل ظرف ، وبتجربتها في كل جليل من أعمالها ، مما يحتاج إلى مشورة أو رأي ، و «أحمد »

بالنسبة إليها – كذلك – رجل الأسرة في المستقبل ، وعريس « فاطمة » المنتظر ، ولا تدري « صفية » مبعث هذا القلق الذي استولى عليها في هذه الجلسة ، وبعد أن سمعت بمرض « أحمد » . أهو القلق على « أحمد » ذاته ، أم هو الخوف على مستقبل « فاطمة » ؟ ، الخوف من تعثر حظها مع زوج لا تعرفه .

لقد بنت لنفسها صرحا من الآمال ، شيدته حجراً حجراً ، ووضعت لبناته بإحكام ودقة ، ليست هي فقط ، بل جميع أفراد الأسرة شاركوا في بناء الصرح الذي شارف على الانتهاء ، ما أبشع أن ينقض هذا الصرح في لحظة ، وينهار البناء في لمحة ، قبل أن يتوجوا تلك الآمال بلحظة سعادة ، بزواج « أحمد » من « فاطمة » ، منتهى آمال الأسرة ، وقمة أمانيها .

و « أحمد » ذاته – كانت تحس به وهو يبحث عن الدروب التي تؤدي به إلى هدفه ، كانت تحس ذلك منه – دون أن يلحظ – في أحاديثه ، وفي نظراته ، وفي استيحائه عندما يقع نظره على « فاطمة » ، وفي إطراقته ، وفي مخالسة النظر إليها .

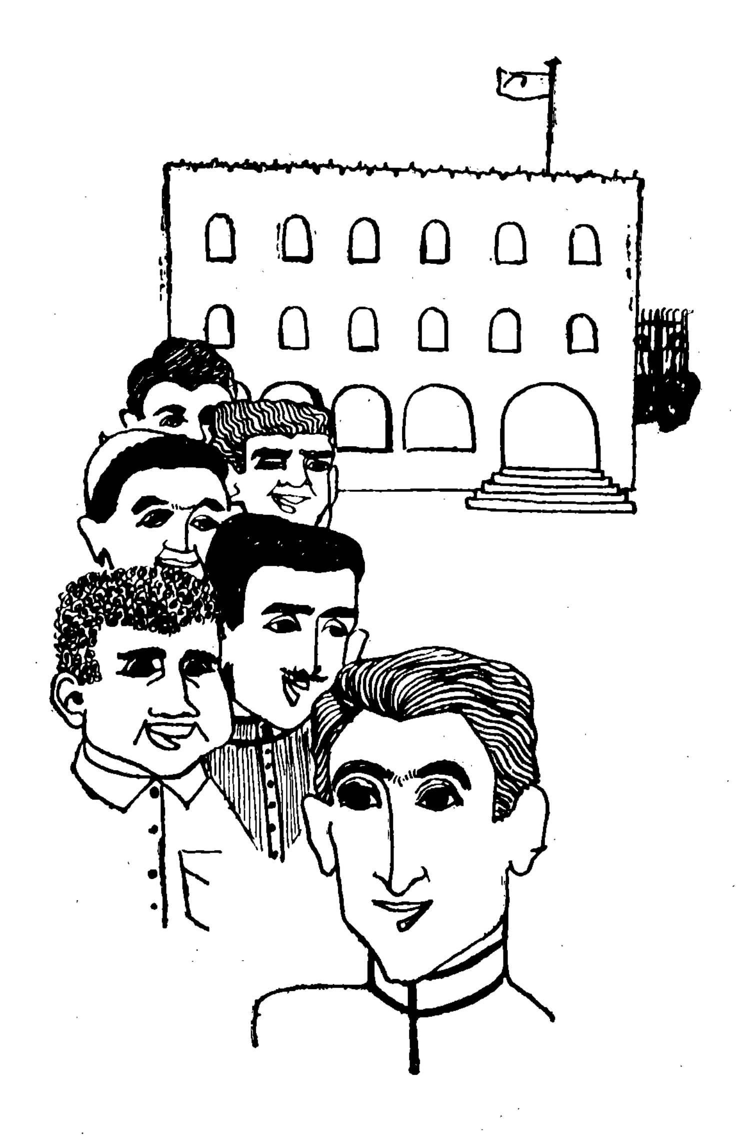
صورة مشرقة رسمتها الأيام منذ زمن طويل ؛ منذ أن كانا صبيين يلعبان في دهليز المنزل . وتشبثت يد « صفية » بلا شيء ، وكأنها تقبض على الصورة بإصرار ، خوفا من أن تخطفها يد أقوى وأشد من يدها .

وكما ألقى بهم « عبد الرحيم » في هذه الدوامة من الصمت الحزين ، عاد إلى حديثه ، محاولا بذلك أن ينتشلهم من هذه الدوامة برفق ، فقال :

– إن مرض « أحمد » بسيط لدرجة إني لم ألحظ عليه أي تغيير ، وسوف لا نحتاج – إن شاء الله – إلى عرضه على الطبيب .

وكأنما قد أزال قلقها ، واطمأنت على صحة « أحمد » بهذه العبارة المطمئنة ، ووجدت فيها بارقة من الأمل الذي تبتغية ، فبدأ على محياها وشى ابتسامة مشرقة ، هي ابتسامة الأمل الذي يضيء لكل قلق موهوم ظلام يأسه ، ويضفي عليه ظلا من الطمأنينة والسكينة . وقالت في صوت هادىء معبر :

– رحمتك يـــا رب .



[من الطبعة الأولى]

٤

كان الطلبة في فناء مدرسة تحضير البعثات الثانوية ، وقد تجمعوا على شكل حلقات متفرقةفي الفناء الواسع ، وتعالى ضجيجهم وهم يتحدثون بأصوات مرتفعة ، في انتظار صفارة الدخول إلى فصولهم الدراسية .

واجتاز « أحمد » باب الفناء بقامته النحيلة . ممسكا بحقيبة كتبه في يده اليسرى ، متئدا في خطوه ، باحثا بعينيه بين جموع الطلبة عن جماعته ، واتجه إلى يمين الفناء حيث كان يقف زملاؤه ، واجتاز طريقه إليهم على مهل . وما إن اقترب منهم حتى لمحه « عصام » فصاح في زملائه مشيرا إلى « أحمد » الذي كان قد وصل إلى مكان وقوفهم :

— هذا هو « أحمد » .

والتفتوا إليه في وقت واحد ، واندفعوا إليه مسلمين ، وانتظم بعد ذلك جمعهم في حلقة كبيرة ، وارتفعت أصواتهم قليلا بعد أن كانوا يتحدثون في هدوء . وابتدأ « عصام » الحديث بصوته الجهوري :

– إني أرى « أحمد » في صحة طيبة ، ويبدو أنه يتمتع الآن بصحة أحسن من الفترة التي سبقت وعكته الأخيرة .

ورد عليه « إبراهيم » باسطا يديه في اتجاه « أحمد » :

– مرض أسبوعا وارتاح ثلاثة أسابيع ، مدة شهر كامل بعيدا عن المدرسة ، أين لي مثل هذه الإجازة ؟ .

وقاطعه « حسين » مصعدا نظره إلى قامة « إبراهيم » ، وكأنه يلفت نظر زملائه إلى طول « إبراهيم » المفرط :

– إنك في إجازة دائمة ، لعب الكرة في النهار ، والبلوت في الليل ، ألا تضجر يا أخي من كثرة اللعب ؟ .

ورد عليه « إبراهيم » بسرعة ، وكأنه يخاف من اقتناع زملائه بآراء « حسين » في الكرة والبلوت وقال :

– البلوت ، إنه يفتق الذهن ، وخاصة إذا ما توجه الشخص إليه ، وتفرغ له ، وحصر تفكيره في التكتيك الذي يتخذه زميله في اللعب ، إن الشخص منا يستفيد كل يوم تجربة جديدة فيه ، إنه بحر ليس له ساحل ، البلوت والكرة سيان ، رياضة العقول ورياضة الأبدان .

وبعد أن صمت لحظة بدا خلالها متردداً في مواصلة الحديث فوجيء بـ « حسين » وهو يقول :

– البلوت مضيعة للوقت . اقرأ واكتب ، ذاكر دروسك ، إنك في السنة النهائية .

واستدار « إبراهيم » في وقفته متخذا موقف الأستاذ في الفصل ، وقال في إقتناع بما يقول :

– بأي الأمور نملأ أوقاتنا ؟ إن حياتنا فراغ في فراغ ، قراءة الكتب ؟ يكفي ما نحن فيه من كرب عظيم في المدرسة ، « ثم أشار إلى بناية المدرسة » هنا العلم ، وهنا التحصيل ، وإذا ما فاتنا ذلك في الفصل فسوف لا نجد عوضاً عنه فيما نقرأ في الخارج ، ساعة من التحصيل هنا تعادل ليلة من الاستذكار في المنزل .

فقال « أحمد » وهو ينظر إلى « إبراهيم » :

– إننا الآن في سنتنا النهائية من دراستنا الثانوية ، وأمامنا بعد ذلك مرحلة دراسية جديدة ، تختلف عن المرحلة الحاضرة من شتى الوجوه ، سنواجه إلى جانب واجباتنا الدراسية مجتمعا جديداً ، يتطلب منا بعض الوقت للتعرف على أصوله وتقاليده ، حياة لانعرفها . وتقاليد نجهلها ، وقيما في الحياة جديدة . كل ذلك سوف يستنفد من انتباهنا طاقة كبيرة كنا نصرفها في التحصيل والاستذكار ، إن ذلك

يستدعي منا مضاعفة الجهد في مرحلتنا الحاضرة . والتفرغ لدراستنا في الفترة الباقية من هذه السنة ، حتى إذا انتقلنا إلى الجامعة كان استعدادنا طيباً ، مما يهيء لنا مسايرة غيرنا من الطلبة المصريين .

وصمت « إبراهيم » متظاهراً بالاستماع إلى « أحمد » ، وما انتهى الأخير من حديثه حتى صاح « إبراهيم » قائلا :

— منذ زمن لم نسمع هذه الأحاديث الشيقة .

وتأنى لحظة ثم استأنف حديثه متسائلا :

— ألم تسمعوا آخر الأخبار ؟ .

وأجاب « حسين » بلسان الجماعة :

— لقد سمعناها . ماذا تحمل من الأخبار المهمة غير أخبار البلوت والكرة ؟ .

وقال « إبراهيم » في تحمس :

— لقد تركت لك ميدان المناقشة في الدرس ، ولو منحني الله طموحا فيه لمنيتم جميعا بمنافس قوي ، ولكن هذه إرادة الله .

وبدأ الفناء يفرغ من التلاميذ الذين اتجهوا إلى فصولهم

مسرعين ، بعد سماع الصفارة ، ولم يبق فيه سوى هذه الجماعة التي أخذت طريقها على مهل ، وكأنما يرى أفرادها في أنفسهم ما لايرونه في بقية التلاميذ الصغار ، طلاب السنوات الأولى ، ونبههم المراقب الذي أقبل من نهاية الفناء يحمل العصا في يمناه إلى أن المدرس بالفصل ، والمدير على باب الإدارة ، فأسرعوا متجهين إلى حجرتهم الدراسية .

وجلس « أحمد » في مقعده بالصف الأول ، تبدو على وجهه سمات التفكير . أهي وحشة الجدة من أمر بعد انقطاعه شهراً عن المدرسة أم تداعي الذكريات ؟ .

فقد طافت بمخيلته أطياف بعيدة من مرضه الأخير ، مرضه الذي أحس به وهو يجلس في مقعده هذا قبل شهر ، وأمام هذه السبورة التي بدت له – يومذاك – وكأنما هي أفق عريض مظلم ، اختلطت فيه المرئيات كأشباح تتراقص أمام عينيه .

لقد بدأت الوعكة في أعقاب ليلـــة قضاها مسهداً ، مابرحت ذاكرته تحتفظ بدقائقها وتفصيلاتها جزءاً جزءا ، ولم يقدر في ذلك اليوم وهو آئب إلى المنزل ، أن الوعكة سوف تكون مرضا ممضا قاسيا ، يبعده عن المدرسة ، ويبعده عن زملائه

فيها طوال شهر من الزمن . لقد ارتفعت درجة حرارته قبل أن يعوده الطبيب عصر ذلك اليوم ، وسمع تشخيص الطبيب لمرضه وهو يهمس به لأبيه :

« إعياء شديد ، نتيجة الإرهاق والسهر ، إن ابنك يحتاج إلى عناية بالتغذية ، وراحة بالمنزل » .

ولم يسمع شيئاً بعد ذلك ، ولم يع ما دار حوله بعد ذلك الحديث المقتضب ، الذي سمعه من الطبيب ، فقد زاد إعياؤه في اللحظات التالية ، وراح في سبات متقطع ، تترامى له الأشباح خلاله ، فيفزع من سباته في هذيان مستمر ، وهو لا يذكر شيئاً من الحوادث التالية ، كما لم يشعر بالزمن الذي مر به وهو في رقدته تلك ، بعد خروج الطبيب ، مما أثار القلق في أهله الذين احتاطوا به ؛ يستمعون إلى هذيانه في غيبوبته .

وقد عاده الطبيب مرة أخرى مساء ذلك اليوم ، ورتب له علاجا إضافياً على العلاج الذي وصفه في الزيارة الأولى .

وانقطع والده عن الدكان ؛ كما انشغل عمه بملازمته ، وقسم أوقاته بين الإشراف على شئون الأسرة ، والاتصال

بالطبيب ، وأما عائلة عمه فقد انتقلت منذ ليلة مرضه إلى هذا المنزل .

وصحا ذات ليلة على همس قريب ، وصل إلى سمعه كبقايا صدى يتردد في واد عميق ، وفتح عينته متردداً وغير مصدق ، وجال بهما في المكان الذي يرقد فيه ، يريد أن يتعرفه ويتعرف الزمن الذي هو فيه .

ولمح في أقصى الحجرة مصباحاً خافت الضوء ، لم يتبين به الأشياء التي أمامه . وأحس بيد ناعمة تتحسس جبهته ورأسه في حنان ورفق ، فوضع يمناه على تلك اليد يتحسسها ، ويختبر مقدرته في التعرف عليها . وعندما أعياه البحث التفت إلى يمينه في إعياء ، وإذا به يفاجأ بأمه وهي تجلس بجانبه ، فيجذب يمناها بوهن من فوق جبهته ، ويضعها على خده . ولم تقدر أمه لتلك الحركة إلا أنها حركة لا إرادية ، تعودتّها منه خلال مرضه في الليالي السابقة .

لم تكن تعرف أن « أحمد » قد بدأ يفيق من غيبوبته ، وأنه شعر بها ، وأحس بنفسه منذ تلك اللحظة . فالتفت إليها وهو مفتح العينين ، وكأنما ينبهها إلى صحوه . فرآها وقد تدثرت بـ « شرشف » أبيض من « البوال » الخفيف ،

انسدل على أعلى صدرها ، وبدا وجهها الأبيض أشد بياضاً مما يعهده ، لعله نور الإيمان برحمة الله ، والطمأنينة التي يسبغها على المؤمن الصادق في ساعات شدته .

وعندما أحست بنظراته ، وشعرت بصحوه ، لاحت له دمعة انسابت على خدها ، وهي تناديه بصوت تحبسه حشرجة البكاء :

ـ « أحمد » كيف حالك ؟ .

وأجابها في صوت ضعيف خافت :

ـ أمي . . الحمد لله . أين أبي ؟ .

وأجابته وقلبها يرجف من الفرحة بصحو ابنها :

ـ أبوك هنا ، وعمك ، وخالتك « صفية » . أنت هنا بينهم ، وتحت رعاية الله .

وإذا ارتفع الهمس بينه وبين أمه ، وسمعه من بالمكان ، إذا به يرى أباه ، وعمه ، وزوجة عمه ، وقد أقبلوا عليه متهللين فرحين ، ترتسم على وجوههم البسمات المشرقة المضيئة . ويدور بعينيه في حركة لا إرادية ، وكأنه يبحث عن شيء . ويشعر بحركة ـ آنذاك ـ خارج باب المجلس ، تظهر

على أثرها « زينب » وهي تبتسم لـه ، وتقبل « فاطمة » ويراها ، ويقتنع بأنها الشيء الذي يبحث عنه .

أقبلت إلى المجلس ، ورآها أمامه وقد ارتدت ثوباً أزرق اللون ، في بهجة السماء الصافية ، مقفول الصدر ، يصل إلى قدميها ، فبدت فيه فارهة الطول ، وقد وضعت على رأسها خماراً شفافاً بلون ثوبها ، فبدا شعرها الأسود لامعاً من وراء الخمار .

دخلت على استحياء مرتبكة الخطوات ؛ وألقت نظرة سريعة على « أحمد » وهو راقد رقدته تلك ، وأخذت مكانها بجانب أمها ، وبعد أن عدلت وضع الخمار على رأسها ، وجمعت ثوبها على أطرافها ، همست إلى أمها مبتسمة ، وهي تتجه بنظرها إلى « أحمد » ، واطمأن كل من بالمنزل على « أحمد » منذ تلك اللحظة .

كانت تلك الليلة هي بدء صحوه بعد ثلاث ليال قضاها في غيبوبة متقطعة ، لا يعي من الحوادث حوله شيئا ، تلتها أربع ليال أخرى ، أخذ خلالها يتماثل إلى الشفاء في بطء .

طافت تلك الحوادث على ذاكرتـه وهو في مقعـده

بالفصل » وانتبه على صوت الأستاذ « صفوت » مدرس الرياضة وهو يقول :

– لقد تغيبت شهراً كاملا عن الدراسة ، فعسى أن تضاعف جهدك ، لتعوض ما فاتك .

وبدأ الدرس كما يبدأ عادة ، واتخذ كل طالب جلسته المفضلة التي اعتاد بها الإصغاء إلى الدرس ، فهذا « أحمد » يتوجه بكل طاقته الذهنية إلى استيعاب الدرس الجديد ، واضعاً يديه الاثنين على درج المقعد أمامه ، متتبعاً المدرس بنظره وهو يتحرك أمام السبورة . وهذا « حسين » وقد أراح خديه على يديه ، مصغياً إلى المدرس في هدوء وتفرغ ، وكأنما وضع كل أفكاره ومتاعبه في فناء المدرسة ، قبل دخوله إلى الفصل .

أما « إبراهيم » – ومكانه في مؤخرة الفصل – فقد بدأ – حين بدأ المدرس في الشرح – يتحرك في مكانه قلقاً ، يحاول التطلع إلى وجوه زملائه ، وكأنما يبحث عما تعبر عنه تلك الوجوه ويلتفت يمنة إلى جدار الفصل ، ثم يلتفت إلى يساره بغتة ، مرسلا نظره إلى خارج النافذة القريبة منه ، يتتبع الطائر الذي مرق بجوار النافذة ، حركات

ليس لها هدف ، وليس لها دافع حقيقي سوى القلق الذي يستولى عليه عندما يدخل حجرة الدراسة ، ويختتم تلك الحركات بأن يمد قدمه اليمنى خارج مقعده ، في الفراغ الذي يفصله عن حائط الحجرة ، ثم يصعد زفرة من أعماقه ليودعها كل ما يشعر به من قلق ، ويحدث صوت زفرته أثراً في الفصل ، يضاعف من حدته هدوء الطلبة ، واسترسال المدرس في الشرح ، وتتجه أنظار الطلبة إليه وهو في تلك الحالة من الضجر ، ويتوقف المدرس عن الحديث .

وعندما يجد نفسه محاصراً بأنظار زملائه ، يسارع إلى رفع سبابته ، وكأنه يهم بسؤال المدرس ، ومع ما يصاحب هذه الحركة من إتقان في التمثيل ، فإن زملاءه يضجون بالضحك ، يشاركهم المدرس بتعليق مرح ، وما يلبث أن يسود الهدوء الفصل ، ويستأنف المدرس عمله ، وعندما يحين وقت الانصراف ، يكون « إبراهيم » قد تهيأ له بفرح وتحمس شديدين ، وما إن يرتفع صوت الصفارة حتى يكون قد اجتاز باب الفصل ، رافعاً يديه الإثنتين إلى أعلى ، ويتنفس طويلا قبل أن ينطلق مسرعا إلى فناء المدرسة .

كان تدافع الطلاب عنيفاً عند باب المدرسة ، بعد أن

أعلنت الصفارة انتهاء اليوم الدراسي ، وكان ضجيجهم عاليا صاخبا في الفناء الذي اجتازوه على عجل ، ثم بدأ الضجيج يخفت على مهل خارج أسوار المدرسة ، موزعا على الأزقة المتفرعة ، التي تحيط بالبناية من شتى جهاتها .

وبدا الفناء خالياً إلا من بعض الطلاب الكبار ، طلاب السنة الخامسة التوجيهية ، فقد اتخذوا طريقهم نحو باب الخروج في تأن ، وهم يتحدثون في أصوات خفيضة ، كأنما يهمسون همسا . وبدت بناية المدرسة في نهاية الفناء ، وكأنما قد تعطلت من حليها وزينتها ، يرنو عليها الصمت في وحشة مفزعة ، وحشة أحس بها « أحمد » وزملاؤه وهم يجتازون الفناء ، فبدءوا يلتفتون وراءهم في صمت ، وكأنما سرى فيهم شعور بالكآبة أوحى به منظر البناية الموحش ، وأشار « أحمد » إلى المدرسة في أسى ظاهر وقال :

– سوف نطوي بعد شهور صفحة حافلة من حياتنا المدرسية ، ولا ندري بعد ذلك أيلتقي جمعنا هذا في مكان واحد ؟ كما ضمنا هذا البناء خمس سنوات متتالية .

وتساءل « حسين » وقد تجمع الرفاق في صف واحد :

– بم يوحي إليـكم منظر المدرسة في هـذا الصمت الموحش ؟

والتفت إليهم « إبراهيم » في فزع قائلا :

– أهو درس آخر أيها الإخوة ؟ دعونا بالله من أحاديث الفلسفة والشعر .

ثم موجها كلامه إلى « حسين » :

– بم يوحي إلينا منظر المدرسة ؟ أنا أجيبك يا أخي ، وسأكفيك بإجابتي مؤنة الإنتظار ، والتفكير ؛ ونظم الشعر ، وتنميق الحديث .

وتأني لحظة قبل أن يستأنف حديثه قائلا :

– هل رأيت التلاميذ الصغار وهم يتراكضون مسرعين في الخروج من باب المدرسة ؟ لم يجرون إلى خارج المدرسة بهذه السرعة ؟ إنهم يسرعون إلى حريتهم التي فقدوها داخل هذه البناية ، إنهم يهربون من شبح المراقب وهو يمسك العصا في يمناه ، إن العصا قد سلبتهم حرية الجري ، وحرية الصياح ، وحرية اللعب ، إني أرثى لحالهم ، فأمامهم سنوات وسنوات حتى يصبحوا في المرحلة التي نحن فيها الآن .

وتوقف قليلا عن الحديث قبل أن يتساءل :

– هل عرفتم الآن بم يوحي إلينا منظر المدرسة ؟ هيا بنا إلى بحث آخر غير هذا البحث الذي أعاد إلى أذهاننا كآبة الفصل ، ووحشة المدرسة .

ثم استأنف حديثه بعد فترة تفكير :

– ما رأيكم في رحلة إلى « وادي فاطمة » نقوم بها يوم الجمعة بمناسبة شفاء « أحمد » ؟ .

وصاح به « عصام » :

– إننا لم ننته بعد من الحديث الأول ، لقد أجبت على السؤال ، على معرفتنا بشعورك قبل الإجابة ، لقد عرفناه في حصة الرياضة ، وقد أبديت تذمرك بالطريقة التي لفتت أنظارنا إليك . إنك تنعي الحرية التي صادرتها عصا المراقب بين جدران المدرسة ، وهأنت ذا تحاول مصادرة حريتنا في الكلام .

وسارع « أحمد » بالدفاع عن « إبراهيم » بقوله :

– إنكم – أيها الإخوان – لم تتفهموا ما يقصده « إبراهيم » . إن « إبراهيم » لا يكره المدرسة ، ولا ينفر من

حجرة الدراسة ، وإنما يتخيل الآن المدرسة المثالية ، وقد عاش في تلمس هذه المثالية التي يهدف إليهـــا في التربية ، فلم يجد حقيقة لما تخيله .

وبالرغم من أن زملاء « إبراهيم » و « إبراهيم » نفسه – يعرفون أنه يكره المدرسة ، وينفر من حجرة الدراسة ، إلا أنه وجد في كلام « أحمد » ما ينقذه من نقد ، زملائه فسارع إلى الموافقة بهزة من رأسه تشجيعا لـ « أحمد » في وهمه الذي توهمه ، وفي تخيله الذي انساق إليه .

ووجد « أحمد » متسعا للتعبير عن آرائـــه الخاصـــة ، فاستأنف حديثه قائلا :

– أين جمعيات النشاط المدرسي ؟ لا حفلات ، ولا ندوات في المدرسة ، ولا رحلات خارج المدرسة ، أين الفرق الرياضية ، والجمعيات العلمية ؟ إن بالمدرسة ستة أفراد من لاعبي الدرجة الأولى في الكرة . إنهم ينتمون إلى النوادي الأهلية ؛ ففيها مجال لنشاطهم ، وميدان لتحقيق هواياتهم ، إن « إبراهيم » معذور في نقدة .

وبدا على « إبراهيم » اقتناعه بأن هذه الآراء هي آراؤه

حقاً ، وأن « أحمد » ربما سمعها منه في يوم لا يذكره ، وكأنما شجعه هذا الاقناع على العودة إلى الحديث الذي نفر منه قبل قليل ، وحاول أن يصرف زملاءه عن الخوض فيه ، فقال يخلط الهزل بالجد :

— إن لي نظريات كثيرة في التربية ، لا أظن أن الوقت قد حان للكشف عنها .

ورد عليه « عصام » ضاحكا :

— طرفا منها فقط .

فقال وهو يرد على « عصام » بضحكة أخرى :

— التصريح بنوم التلاميذ في الفصل .

وحينما ضحك زملاؤه سارع إلى اتخاذ موقف جاد قائلا لزملائه :

— انتبهوا إلى باب المدرسة ، لماذا يقفلونه على التلاميذ ؟. هل المدرسة سجن يخشون فرار سجنائه ؟ وهذا المراقب

— مع احترامي لشخصه — لماذا يمسك العصا في يده طيلة نهاره ؟ وما مصير هذه الأجيال الصاعدة التي يبث فيها الخوف منذ نعومة أظفارها ؟ .

وتأني « إبراهيم » لحظة قبل أن يستأنف حديثه قائلا :

ــ ما رأيكم في هذه الأفكار ؟ .

ورد عليه « حسين » بقوله :

ــ البركة فيك ، عندما تعود بعد بضعة أعوام دافع عن هذه الأفكار .

ومط « إبراهيم » شفتيه وكأنه يعترف بعجزه مقدما عن تحقيق شيء من هذه النظريات التي كان يتحدث فيها .

وكانوا قد وصلوا حينذاك إلى الشارع العام ، حيث يفترقون ــ عادة ــ ويتجه كل منهم إلى منزله ، وتذكر « إبراهيم » أمرا كاد ينساه ، فأشار إليهم بيديه للتجمع ، وتساءل بعد أن أصغوا إليه :

ــ ما رأيكم في الإقتراح الذي اقترحته بصدد الرحلة ؟ .

وأجابوه بصوت واحد :

موافقون

وكالعادة في رحلاتهم السابقة ، أوكلوا إلى « إبراهيم » و « عصام » القيام بشئون هذه الرحلة ، وتحديد الاشتراك . واستأذن « أحمد » و « عصام » من زملائهما متخذين طريقهما إلى منزليهما المتجاورين ، وعندما تلاشى صوت

الجماعة التي سارت في اتجاه مخالف لاتجاههما ، قال «أحمد» متسائلا :

ــ لست أدري . أقدر لزمالتنا أن تستمر فترة أخرى أم أننا سنفترق وتبتلعنا طرق متفاوته ؟ إني أحس بهذه الزمالة وقد أصبحت جزءا مني ، وقطعة حية افتقدتها خلال مرضي الأخير ، فافتقدت بذلك كل ما يشعرني بالحياة .

قال « عصام » مبتسما :

ــ لا تفلسف الحياة ، خذها على واقعها تجدها محتملة ومستساغة ، هذه هي الحياة ، اجتماع وفرقة ، أفراح وأتراح ، وهل تريدها نمطا واحدا متجانسا ؟ إذن لكرهنا الحيـــاة .

وصمت « أحمد » مفكرا فيما يقوله عصام ، سابحا مع خياله في تصور الفترة التي سيقضيها بعيدا عن أسرته : أبيه وأمه وأسرة عمه ، إنه لم يفترق عن والديه وأسرته في يوم من الأيام ، عاش بينهم جميع أيامه السابقة ، وها هو ذا الآن يسعى في طريق مجهول ، نحو مستقبل غامض ، لا يدري من أمره شيئاً ، ما المكتوب له فيه ؟ غيب ولا شك .

غيب بأحـــداثه ، وظروفه ، وصوره ، وتراءت له

« فاطمة » وهي تنتظره ، تنتظر أوبته بعد أعوام تقصر أو تطول .

هل قدر له أن يرى ذلك اليوم المشرق الجميل الذي تخيله ليوم العودة ؟ وهل سيتوج نجاحه بزفافه إلى « فاطمة » أو أن الغيب قد ادخر له في ضميره ما لم يتوقعه ؟ .

وكأنما خشي — وهو في غمار خيالاته المنثالة عليه من أن ينهدم صرح آماله الذي شيده ، فأبعد التشاؤم عن خاطره بقوة وحزم ، والتفت إلى « عصام » وهو يردد في سره جملته التي سمعها منه قبل قليل :

(لا تفلسف الحياة . خذها على واقعها تجدها محتملة مستساغة) .

وعندما حاذى زقاق منزله استأذن من « عصام » ، وبدت له شرفات المنزل وقد زايلتها الشمس ، كما لحظ امتداد رقعة الظل أمام المنزل ، فأدرك تأخره عن موعد عودته ، وما إن اجتاز باب الدار حتى صافح سمعه صوت أخيه « يحيي » وهو يعلن قدومه ، فقد كانت الأسرة في انتظار طعام الغداء .

٥

استيقظ «أحمد» على صوت أخته «زينب» وهي تهز «يحيى» هزات متوالية :

— «يحيى» «يحيى» ، هيا استيقظ إن أبي في انتظارك .

وانتبه «يحيى» بعد لأي ، وتحرك في فراشه ، وتذكر أنه في اجازة منحت له بعد طول انتظار ، وقفز جالساً وهو يزيح النوم عن جفونه بظهر يمناه ، وكأنما يستطلع وجه اليوم السعيد ، الذي انتظره منذ أمد . وحينما رأى أخاه «أحمد» مستلقياً على فراشه أشار إليه قائلا :

— وأخي «أحمد» ؟ .

وأجابته «زينب» وهي تدفعه بيمناها ، كأنما تستعجله :

— إنه مستيقظ .

وسألها «يحيى» :

— هل سيذهب إلى المدرسة غداً وبعد غد ؟ .

فأجابته في تذمر من أسئلته الكثيرة :

— نعم . ولماذا يتغيب ؟ .

وتمطى « يحيى » وتثاءب ، ثم استأنف حديثه وهو لم يزل على الفراش :

— إن أستاذ الحساب تغيب أسبوعا حينما تزوج ، و « أحمد » سيتزوج اليوم . لم لا يمنح نفسه إجازة ؟ .

وكأنما قد نفد صبرها ، فصاحت فيه بصوت مرتفع :

— اليوم العقد فقط ، أما الدخلة فمؤجلة .

وكان « أحمد » ينصت إلى الحديث الدائر بين « زينب » و « يحيى » في ارتياح ، تبدى في اهتمامه لمجرى الحديث ، وإنصاته الكامل له ، على أنه ما لبث أن صاح في أخيه « يحيى » :

— كفى حديثاً وثرثرة من هذا الصباح .

وفوجيء « يحيى » بصوت أخيه ، فقفز من فراشه مذعوراً ، وبعد أن لملم إزاره في عجلة وارتباك ، أسرع إلى الطابق السفلي ، وهو يلقي نظرة عجلى بطرف عينيه على أخيه ، حملها كل معاني الأسف ، حيث فوت عليه حديثه الشيق مع أخته « زينب » .

ولما أن بعد صوت « يحيى » التفت « أحمد » إلى أخته يستطلعها الأمور ، ويستوضح منها معالم اليوم الجديد ، وهو وإن لم يكن في حاجة إلى ذلك ــ اكتفاء بما شعر به من أن هذا اليوم يومه ، هو فيه قطب الرحى ، ومدار الحديث ، ومركز الإهتمام ــ إلا أنه أحس مع ذلك بحاجة إلى المزيد ، مما يؤكد لديه ذلك الشعور .

تمثل ذلك في سؤاله لأخته :

ــ فيم يتحدث أبي وأمي ؟ .

وعندما اطمأن إلى أنه كان مدار حديثهما سأل أخته ثانية :

ــ متى ستذهبون إلى بيت عمي ؟.

وأجابته وهي منهمكة في طي فراش أخويها ، ووضعه في ركن الحجرة :

ــ إن أبي سيذهب بعد الإفطار ، وسيأخذ معه « يحيى » ، وسنلحق به نحن بعد أن ننتهي من أعمال المنزل .

كان « أحمد » واقفاً بقرب النافذة المفتوحة ، متجهاً ببصره إلى الأفق ، وهو يستمع إلى حديث أخته التي كانت تقف على مقربة من باب المجلس ، وقد أحس بانتهائها

من عملها عندما سمع وقع أقدامها تبتعد عنه ، وبصوتها و هي تنبهه إلى أنها ووالدتها في انتظاره على طعام الإفطار .

لم يشعر « أحمد » قبل ذلك الصباح بأهمية يومه الذي يعيش فيه ، وهو وإن كان – في اعتبار إحساسه العاطفي – امتداداً لأيامه السابقة ، إلا أنه – من نواح أخرى – يعتبر هدفاً قد وصل إليه ، بعد طول سعي وراء تحقيقه ، وهذا ما ضاعف لديه الشعور بالانتقال من حال إلى حال ، وهو أشبه بالشعور الذي يحس به – عادة – من يجد نفسه في ثراء مفاجيء ، تتجاذبه الفرحة بالثروة الطارئة ، والخوف من زوالها فجأة ، لقد تطور هدفه منذ ذلك اليوم ، وأصبح ممثلا في الحرص على ما حصل عليه .

كان « أحمد » يناقش هذه الحقائق في نفسه ، وهو جالس في انتظار زملائه الذين دعاهم لتناول الغذاء معه بمنزل عمه.

وكان قد فتح ضلفتي النافذة في الطابق الأول ، مواجهاً في جلسته الساحة الممتدة أمام المنزل ، وكانت تصل إليه أصوات الصاعدين والهابطين ، أقارب ، وذوي أرحام ، دعوا لمشاركة الأسرة فرحتها ، ومساعدة أفرادها في تهيئة

المنزل الكبير لاستقبال المدعوين إلى حفل القران ، مساء ذلك اليوم .

كان المنزل يضج بتلك الأصوات ، أصوات النساء بأعلى المنزل ، وأصوات الأطفال الذين اتخذوا من ذلك اليوم عيداً صغيراً ، أبعدهم عن جو المدرسة .

لقد أكملت تلك الأصوات مجتمعة الصورة التي تخيلها لذلك اليوم ، منذ أن صحا من نومه في الصباح ، على صوت الحديث الدائر بين « زينب » و « يحيى » ، صورة لم يسبق له أن أحس بنبضاتها الحية ، وبمعناها العميق لأنه لم يعش فيها ، لقد سبق أن رأى صورا لذلك اليوم ، في حفلات كثيرة دعي إليها ، ولكن موقفه فيها كان موقف المشاهد فقط ، وكان يشارك عن بعد – في الفرح – مشاركة لا تعدو المجاملة لصديق أو قريب ، أما اليوم فهو بطل القصة ، ونجم المسرح .

وقفز من مكانه لاستقبال زملائه الذين أقبلوا من أول الساحة ، وقد علا ضجيجهم ، وتشابكت أصواتهم في أحاديث لم يتبينها ، يتزعمهم « إبراهيم » بإشاراته ، مستعينا بذلك في التفوق على زملائه في نقاشهم ، الذي بدا حاداً

وحماسيا في بدء اجتيازهم مدخل الساحة ، وما إن قربت خطواتهم من المنزل حتى خفتت أصواتهم شيئاً فشيئاً ، انتهت أخيراً إلى ما يشبه الهمس ، بينما التفت كل منهم إلى ملابسه يهذب ما بدا فيها من تشويش ، أو ينفض ما علق بها من غبار الطريق .

وكان « أحمد » واقفا على باب الدار ، وقد ارتسمت على محياة ابتسامة عريضة ، عندما بدأ زملاؤه يجتازون عتبة البيت ، وهم يحيونه بحماس واشتياق ، وكأنما هو آئب إليهم من سفر ، ويزجون إليه التهنئة بحرارة ممزوجة بمرحهم المعهود ، وكان « إبراهيم » أسبقهم إلى ذلك ، عندما شد على يد « أحمد » قائلا :

ــ لقد أثرت في الحماس للزواج بعد أن كدت أتراجع ، إني أهنئك وأهنيء نفسي على هذه الشجاعة ، (ثم ملتفتا إلى زملائه) اتركهم على ترددهم ، سوف تمر بهم الأعوام الطوال أسرع مما يتصورون ، وحينئذ سيندمون على ما فاتهم.

ورد عليه « أحمد » وهو مازال يبتسم :

ــ سنكون روادهم ، وسيلحقون بنا عاجلا أو آجلا .

فقال « عصام » ضاحكاً وبصوت مرتفع :

– إنه مصير كل حي .

ثم موجها الكلام إلى « إبراهيم » .

إن « أحمد » – على كل حال – سيؤجل الدخول إلى أن يكمل دراسته العالية ، أما أنت فسنجدك بعد أعوام أبا لستة أطفال .

ورد عليه « إبراهيم » وقد بدا من صوته تخاذل حماسه الأول :

– إني فخور على كل حال ،إذ أكد لي « أحمد » صواب المبدأ الذي اعتنقه ، أما إنجاب الأولاد فذلك أمر آخر ، خارج جوهر المبدأ .

كان الحديث يدور بينهم في صعودهم درج المنزل . وما إن وصلوا إلى الطابق المعد لجلوسهم ، حتى بدأوا يخلعون معاطفهم في عجلة ، ويتسابقون إلى الجلوس بالقرب من النوافذ المطلة على الساحة الرحيبة ، وجذب كل منهم وسادة من الوسائد الموضوعة مثنى مثنى على الأرائك الخشبية ، المكسوة بالدمقس الأزرق . ووضع « إبراهيم » الوسادة في حجره ، ثم اتكأ بمرفقيه عليها ، وأسند رأسه بباطن راحتيه ، وسرح – فجأة – بفكره إلى مجالات بعيدة كل البعد عن مجلسه .

بدا ذلك واضحا في نظرته العميقة المسترسلة . كان كأنما احتوته دوامة من التفكير ، قاده إليها حديث زميله « عصام » عن رغبة « أحمد » في تأجيل الدخول بعروسه ، أما هو فسيكون أباً لستة أطفال ، خلال الفترة التي سيدرس فيها زملاؤه في مصر . نصف درزن في بضعة أعوام ، ثم ستة آخرون يكمل بهم الدرزن ، سيصبح المنزل مرعى يضج بصياح الأطفال ، أو مدرسة هو مديرها ، أو مراقبها ، ويمسك في يده العصا ويهش بها على هذا القطيع الآدمي ليل نهار ، وحوقل في سره عندما تخيل صورة القطيع المنتظر ، وصورته وهو يمسك العصا في يــــده ، وهتف في صوت خفيض « ربنا يستر » .

وجاء الجواب – على حين غفلة منه – على لسان «عصام» الذي صاح بأعلى صوته :

– لقد آن أوانك يا « إبراهيم » وبعد أيام قلائل سوف تصبح زوجاً سعيداً ، الله يرحمك .

وفي هذا الوقت الذي كان فيه الطابق الأول من المنزل يضج بضحكات الشباب ومرحهم ، ونكاتهم المتبادلة ، وحديثهم الذي لا ينقطع عن الزواج والأولاد تارة ، وعن الدراسة والإمتحان تارة أخرى ، والذي ينتهي كل مقطع

منه بنكته يلقيها أحدهم ، تليها ضحكات متصاعدة ، ثم فترة صمت تتيح لكل واحد منهم أن يفكر تفكيراً عاجلا في الحديث الذي يليه ، أو تتيح له الانفلات من الصخب ، يفكر فيما يعنيه من خاصة أمره ، كانت الأدوار العليا تضج – هي الأخرى – بصخب السيدات وأحاديثهن التي لا تنتهي إلى غاية .

وكانت « صفية » والدة « فاطمة » حركة دائبة بالمنزل ، تحيى فئة من السيدات ، وتعد مكانا لجلوس فئة أخرى من سيدات الأسر المجاورة والأقرباء ، تصعد إلى الطابق العلوي ، تشرف على راحة المدعوات ، ثم تنزل إلى الطابق الأوسط ، تستقبل الأخريات . وكانت التمنيات الطيبة تتردد على أفواه القادمات ، و « صفية » ترحب بهن ، وقد ارتسمت هالة من السعادة على محياها ، تنم عنها ابتسامة بيضاء ، لم تفارق شفتيها ، وهي ترحب بضيوفها . لقد كان اليوم يومها . يومها الذي انتظرته وتخيلته منذ أمد بعيد ، منذ أن ولدت « فاطمة » . وكانت السيدات يكون جماعات متآلفة ، بالطابقين اللذين أعدا لاستقبالهن ، تتكون طبيعيا ، يجمع كل فئة تقارب السن ، أو القرابة ، أو الشوق .

ويبدأ الحديث عن الماضي ، ثم عن الحاضر ، وعن آباء

الأبناء ، ثم يتطرق حديث جماعة منهن عن السيدة «مصباح» التي انفصل عنها ابنها بعد زواجه ، بينما يتطرق حديث جماعة أخرى إلى « سعدية » الشابة ، التي عادت إلى بيت أبيها ولما يمض على زواجها سوى ثلاثة أشهر .

وبين كل فترة وأخرى يرن صدى « الغطرفة » في المنزل ، فيتوقف الحديث لحظة ، ثم يعود .

أما الشابات من الأوانس فقد انتحين ركنا في الطابق العلوي ، يشاركن « فاطمة » فرحتها ، ويلغطن في أحاديث أقل جدية من أحاديث الكبار ، وكانت « فاطمة » مدار أحاديثهن ، ومركز اهتمامهن، وهي وإن حاولت ألا تظهر فرحتها أمام الأخريات ، إلا أن اضطراب حركاتها ، وتلجلجها في الحديث ، كانا دليلا على أنها تواجه منذ اليوم حياة جديدة كل الجدة على عاطفتها ، حياة تشعر فيها بأن من حقها — منذ اليوم — أن تفكر في ابن عمها ، بعد أن كانت تنفر من التفكير في أمره ، كما أصبحت تشعر — منذ اليوم كذلك — أن هذا التفكير ، قد أصبح ملكاً خالصاً لها ، لا تلام عليه .

وهي في انتظار خطوة أخرى ، ربما تطول سنوات وسنوات ، يوم أن يصبح من حقها أن تتحدث مع غيرها

في أمور ابن عمها ، عريس اليوم ، ورجل المستقبل ،وتناقش أموره بحرية تامة ، لا يقيدها هذا القيد الذي تشعر بقسوته .

كان حديث « فاطمة » وصاحباتها في ركنهن في الطابق العلوي حديثا ذا شجون ، حديثا من هنا وآخر من هناك ، وكان محوره ومداره : « ماذا أرتدت « زكيه » من ثياب ؟ وما تحلت به « لطيفة » من حلي ؟ وما اختارت « فوزية » من ألوان ؟ » .

وحينما يقترب حديث أترابها من « أحمد » ، وخاصة عن سفره المرتقب لمواصلة دراسته ، كانت « فاطمة » تتهرب من الخوض معهن في هذا الحديث ، على حبها وتشوقها إلى ذلك ، كأنما كانت مشفقة على هذه السعادة التي تغمرها من أن تشوبها لمحة من كدر ، في هذا اليوم السعيد ، أو كأنما كانت تضن على هذا الأمر من أن يصبح موضوع نقاش عام ، وهو ما يخصها وحدها ، دون هذا الجمع الذي جاء يشاركها الفرحة .

وكانت عروس اليوم « فاطمة » ترتدي ثوباً حريرياً ، محلى بزهرات مطرزة من القصب الفضي ، وتحلى جيدها بعقد من اللؤلؤ ، كما تدلى من أذنيها حلق من الألماس ، تصل حلقاته إلى ما يوازي صدغيها ، وفي إحدى يديها ،

سوار من الألماس ، وبالأخرى ساعة ذهبية مرصعة بالأحجار أما شعرها فقد صففته على مهل ، وتركته من غير وشاح ، وفيما هي آخذة فيه من الحديث ، إذ سمعت صوت « أحمد » وهو آخذ طريقه نحو الطابق الثالث تتبعه جلبة الحمال ، فجرت إلى داخل المجلس ، تتوارى عن عينيه ، وتبعتها لداتها في ذلك .

ووقف « أحمد » برهة يبحث عن الغرض الذي جاء من أجله ، ومن ثم التفت إلى الحمال ، وأمره بحمل السجاجيد المدرجة بجوانب المجلس ، والمساند المرصوصة على أطرافه .

وحانت منه التفاتة مقصودة إلى داخل المجلس ، حيث وقفت « فاطمة » بين أترابها ، وعندما وقع نظره عليها — على عروسه التي انتظرها منذ أمد بعيد — لم يستطع أن يسترجع النظرة ، ويكتفي بما رأى . فقد كانت أجمل مما عرف ، وأبهى مما تصور ، كانت قطعة من الخيال الذي طالما تمناه في أحلامه ، وقد أدرك — في لمحة خاطفة — بريق السعادة الطاغية في عينيها النجلاوين المعبرتين ، وارتاح شعوره لهذا الذي رآه ، ورضي عن نفسه ، كأنما امتلك الدنيا في نظرة عابرة .

وعندما غادر المجلس أخذت كل فتاة مجلسها في إحدى

النوافذ ، يشاهدون من تحت خصاصها بدء الاستعداد للحفل ، في الرحبة المتسعة ، وكان الناس قد فرغوا من صلاة العصر ، وانتشرت ظلال البيوت المقابلة على الساحة ، فبدأ شباب الحارة يتوافدون على المنزل ، وشمر كل منهم عن ساعديه استعداداً للعمل ، ووزعوا أنفسهم فرقا متعددة ، تعرف كل فرقة ما نيط بها من عمل ، على أن أكثرهم انتظر في الساحة ، ريثما خرج الحمال بالدكاك الخشبية ، فقاموا بتنظيمها وترتيبها في حلقة كبيرة ، دائرتها المنازل المحيطة بالساحة ، ووضعوا عليها السجاجيد ، ونظموا المساند على مرافق تلك الدكاك ، وظهورها ، على حين جاء السقاة يتقدمهم كبيرهم ، يحملون قرب الماء ، ورشوا الساحة بالماء طولا وعرضا ، وكان الشيخ « عبد الجليل طالب » شيخ الحارة يقف بباب المنزل ، يشرف على التنظيم الذي رسمه ، ممسكا بيمناه عصاه الطويلة ، متعمماً بالشال الصوف الذي أهداه إليه « عبد الرحيم » ، وما إن شاهده الأولاد وهو يراقب أعمالهم حتّى ضاعفوا من عملهم وصياحهم ، وازدادت ملاحظاتهم ، وكثرت تعديلاتهم ، واختلفت آراؤهم في اتساع « البرزة » وضيقها ، فمن قائل :

« إنها قد اتسعت زيادة عن الحاجة » .

ومن قائل :

« إننا سنحتاج إلى كراسي نضيفها إلى الدكاك » .

إلى أن جاءهم القول الفصل من العمدة الواقف على الباب :

« إن المدعوين خمسمائة ، فاعملوا على هذا الأساس » .

ولا ينسى أن يعقب على ذلك بإشارة من يده إلى المنازل المجاورة ، التي أعدت لاستقبال المدعوين .

وبعد صلاة المغرب، عندما أخذت الساحة زينتها بتعليق المصابيح على الأعواد الخشبية ، وعلى الموائد الحجرية وسط « البرزة » مما جعل المكان على اتساعه يشع بالأضواء المتلألئة ، فبدت الساحة وهي تسبح في الأضواء ، وكأنها عروس أخرى قد استكملت حليها .

بدأ المدعوون الأقربون من الأصدقاء ، يتوافدون على المكان فرادي ، وكلما زادت حلكة الظلام ازدادت الساحة توهجاً بتلك الأضواء ، وتكاثر المدعوون ، وبدأت الساحة على سعتها تمتليء بهم ، وازدادت « الغطرفة » رنيناً من أعلى المنزل ، حيث السيدات ، وكثرت النداءات من داخل

المنزل وخارجه ، وتوالى « المباشرون والفزيعة » على المدعوين ، يحملون في أيديهم دلال القهوة وأقداحها ، وأكواب الشاي محمولة على الصينيات الحجرية المزخرفة ، يليهم من يحمل في يديه صينية يتلقى بها الأكواب الفارغة .

وكان « أحمد » وزملاؤه مازالوا بمجلسهم في الطابق الأول ، بعد أن انضم إليهم نفر قليل من المدعوين ، وقد افترشوا أرض المجلس ، يلعبون « البلوت » وصوت المذياع يجلجل ويرن صداه ، ويحجب أصوات المدعوين المتصاعدة من الساحة وعلى حين فجأة ، تصاعدت أصوات قوية رنانة من الساحة على طبقة صوتية واحدة ، أدرك بها من كان بالمجلس أنها تحية أبناء الحارة للمغنى ، الذي قدم ساعتذاك ، فتقدم إليه العمدة ، وبيده ورقة التصريح ، فتناولها منه ووضعها في جيب معطفه ، بعد أن اتخذ مجلسه في صدر البرزة .

وتسابق « أحمد » وزملاؤه إلى النافذة الكبيرة ، يدفعهم إلى ذلك حب الإستطلاع ، واختلاف ميولهم نحو أنواع الغناء ، وأصوات المغنين ، وعندما تبينوا فيه « السيد عبد الملك » آب بعضهم بإمتعاض ، وكأنما خسر ليلته ،

بينما ظهرت الفرحة على وجوه البعض الآخر ، حيث يفضلون صوت « السيد » ونوع غنائه ، على صوت غيره من المغنين .

وحينما اتخذ كل منهم مجلسه ، التفت « حسين » إلى زملائه قائلا :

– إن هذه الليلة حقيقة بالسهر ، سوف نستمع فيها إلى غنائنا الذي كاد يندثر .

ورد عليه « إبراهيم » وقد ظهر الامتعاض على وجهه :

– وهل تعتبر هذا غناء ؟ إنه نهيق .

فاستدار إليه « حسين » يسأله :

– وما هو الغناء ؟ هل تستطيع تعريفه لي ؟ .

وضحك « إبراهيم » ضحكة هازلة وقال :

– سوف نقلب الفرح إلى فلسفة ، اتركنا يا أخي من هذه المناقشات « لكم دينكم ولي دين » .

لكن « حسينا » رد عليه :

– كفانا يا أخي ما نستورده من خارج بلادنا . حتى الغناء نبقى فيه عالة على الغير !

قال إبراهيم جاداً :

— إنه التطور يا أخي ، إني أعيش في القرن العشرين ، العالم كله يكون أمة إنسانية واحدة ، وعواطف الإنسانية نسيج متحد ، والموسيقى والغناء لغة عالمية ، يفهمها كل صاحب إدراك وفهم .

وضحك « حسين » ضحكة مغتصبة وقال :

— قل هذا الكلام لدعاة الإنسانية ، الذين يتذابحون الآن في الصحراء الغربية ، وعلى حدود روسيا . قل لهم : إن العالم يكون أمما مختلفة في لغاتها ، متحدة في إنسانيتها .

قال « إبراهيم » :

— إن إيماني بهذا المبدأ لا يضعف ، إذا عرفت أن كثيرين لا يؤمنون به ، ثم إن نقاشنا في الغناء لا في السياسة .

وسأله « حسين » :

— أتقصد أنك تميل إلى الغناء الغربي مثلا ؟ .

ورد عليه « إبراهيم » :

— أميل إليه ، ولكني لا أفهمه .

وتساءل « حسين » :

— ولم لا تفهمه ؟ .

قال « إبراهيم » .

– لأن أذني لم تتدرب على سماعه .

وصاح « حسين » فيه :

– إنك تغش نفسك ، لأنك تسعى إلى إقناعي بأنك تطرب للغناء الغربي ، إنك لا تطرب إلا للأنغام الشرقية ، أنغام بلدك . وغناء بيئتك . لأنك ترى نفسك فيه . لأنه يمثل حياتك .

فقال « إبراهيم » ضاحكا :

– نعم . إني أميل إلى الأنغام الشرقية ، لأن فيها روح الشرق الحبيب ، وفيها نغماته الناعسة ، وأحب ما في تلك الأنغام أنها تجلب النوم ، أما غناء أخينا – مشيراً إلى « السيد » – فيجلب النوم العميق ، والشخير ، والأحلام المزعجة . هل اقتنعت ؟ . هيا إلى اللعب ، إن الشوط لم ينته بعد .

ورد عليه « حسين » قائلا :

– إني سأستمع إلى أنغام بلدي ، الأنغام التي أتمثل فيها عواطفي .

وضحك « إبراهيم » ضحكة عاليه وقال :

ـ « بات ساجي الطرف » أو « حبيبي صنعته بنا بنالي قصر في الجنة » .

وضحك جميع من كان بالمجلس إلا « حسينا » الذي ابتسم ابتسامة رقيقة ، وهو يقول :

ـ لا . ولكن « يا عروس الروض يا ذات الجناح » . ما رأيك فيها ؟ .

وصمت « إبراهيم » لحظة ، بدا خلالها وكأنما قد غاص في دوامة من الذكريات البعيدة ، وقال وقد رقت لهجته :

ـ لقد سمعتها لأول مرة ، وأنا في التاسعة من عمري ، وحفظتها عن ظهر قلب ، إن هذه الأغنية تتصل بطفولتي البعيدة ، إن أنغامها حزينة .

فسأله « أحمد » :

ـ وهل تحفظها إلى الآن ؟ .

ورد عليه :

ـ نعم . بالرغم من أني لا أميل إلى الأنغام الحزينة .

فقال « حسين » بصوت مرتفع :

ـ إنك تميل إلى سماعها لأنها جزء منك ، ترى في أنغامها

طفولتك البعيدة ، وتتمثل فيها حاضرك ، وهذا ما أردت أن أقنعك به .

وتبادلوا الإشارات بالصمت، حينما وصل إليهم صوت « السيد » وهو يبدأ الغناء .

وكان بدء الغناء إيذاناً بظهور آثاره على المدعوين ، ومدى قابلية كل منهم له ، فمنهم من ترك مكانه واتخذ مكانا قصيا عن المغنى ، ومنهم من زاد اقترابه من مجلسه ، ومنهم من بدأ حديثه مع جاره ، وآخرون لزموا الصمت .

أما أولاد الحارة فقد ارتفعت أصواتهم تشق الصمت ، وهم يحيون المغنى بتحياتهم المألوفة ، وانصرف أكثرهم عن الخدمة ، كما اختلق بعضهم خدمات وهمية داخل البرزة ، وقريبا من المغنى ، وعندما ينتهي مقطع من مقاطع الغناء ، يقفون في أماكنهم ، ويرفعون أصواتهم بقوة ، وفي طبقة واحدة ، ثم يلتفت كل واحد منهم إلى جاره مبتسما ، ومن ثم يعاود سيره في نفس المحيط الذي كان به .

أما « محمد أبو راس » فقد أبى أن يخدع نفسه ، أو يرائي بالخدمة ، وإنما وقف أمام المغنى ، لا يتحرك يمنة أو يسرة .

وعندما حاذاه زميله « عبد الكريم أبو فرج » وهمس في أذنه كلمتين ، نظر إليه شزرا ، وقال له :

ـ لقد قمت بالخدمة من الصباح ، والآن جاء دوركم ، إني أقف هنا لألبي طلبات « السيد » فقط .

على أن فترات الراحة بين كل دورين من أدوار الغناء ، كانت فرصة لأولاد الحارة في معاودة إجابة طلبات المدعوين ، والقيام على خدمتهم ، تسديداً لما فات عليهم القيام به ، ورصيداً لما يتوقع فواته حين يستأنف الغناء .

واستمر الغناء فترة أخرى من الوقت ، كان « أحمد » ـ خلالها ـ قد صعد إلى الطابق العلوي ، لارتداء حلته الجديدة ، وكانت أمه ، و « صفية » أم العروس ، وأختاه « زينب » و « زين » يقمن على خدمته ، وتفقد الحلة قطعة قطعة ، وكن واقفات غير بعيد عنه ، وتمسك كل واحدة منهن قطعة من ملابسه ،حتى إذا فرغ من ارتدائها ، انصرفن إلى تفقد القطعة التي تليها .

وعندما انتهى « أحمد » من ارتداء ثيابه ، واجه المرآة ، يضع العقال على رأسه ، ويشذب « الغترة » من الوسط والأطراف ، وحانت منه التفاته وهو يواجه المرآة ، فرأى

أمه تمسك المكحلة ، وهي تبتسم لمن حولها ، فالتفت إليها مذعوراً وقال :

– إلا الكحل ، لقد كبرت ، وليس من اللائـق أن أكـتحل .

وقالت له أمه في رجاء . :

– هذه الليلة فقط .

ولكنه رد عليها في توسل :

– ولا هذه الليلة . رجاء .

وتراجعت إلى الوراء ، وهي ما زالت تبتسم ، وتركت مكانها لـ « زينب » التي كانت تمسك بيدها زجاجة عطر العود ، ومد إليها راحتيه ، وعندما تصاعد شذى الرائحة ، أشار إليها أن تكف. وتناول العباءة من يد « صفية » وأعاد تطبيقها ، وهو يقول ضاحكا :

– إني لم أتعود لبس العباءة بعد ، وأخاف أن أقع بها إذا ارتديتها .

وما إن خطا أولى خطواته نحو الباب ، آخذاً طريقـه نحو درج المنزل ، حتى صافحت أذنيه « غطرفة » قوية ، فارتد مذعوراً ، على أنه ما لبث أن التفت إلى أمه وأخواته ،

وضحك ، ثم عاد وأخذ طريقه في حذر ، حاملا بيمناه ذيل ثوبه ، ويحمل بيسراه العباءة . وحينما واجه ز ملاءه وهو يدخل الطابق الأول ، استقبلوه بترحاب ، وأفسحوا له المكان في صدر المجلس ، وكل منهم ينظر إليه نظرات عميقة متفحصة ، وكأنه شخص غريب ، وكان أقربهم إليه « إبراهيم » الذي همس في أذنه :

— « عريس صح . عقبالي » .

وابتسم « أحمد » ابتسامة اقتضبها بسرعة ، حينما رأى أنظار الجميع متجهة إليه .

وكان المأذون قد اتخذ مجلسه في صدر البرزة ، وكان يبدو وقوراً ، عليه سيماء الصلاح والتقوى ، بلحيته المدببة ، وعمامته البيضاء ذات الذؤابة الطويلة ، وجبته الناصعة البياض ، ممسكاً بيده مسبحته الطويلة . وأقبل عليه الشيخ « عبدالرحمن » وهمس في أذنه كلمتين ، ورد عليه المأذون بإيماءة من رأسه ، وما لبث أن قام من مكانه يتبع الشيخ « عبد الرحمن » إلى الطابق الأول ، وتبعه بعض المدعوين ، ممن تربطهم بالأسرة روابط الرحم والقربى ، وأفسح للجمع الصاعد مكان في صدر المجلس ، يتوسطهم المأذون ، وعن يمينه جلس «أحمد» وعن يساره الشيخ « عبد الرحيم » والد « فاطمة » .

ودار الكلام همساً بين المأذون و « عبد الرحيم » ، وانتهى حين استدار المأذون في مجلسه مبتدئاً في تلاوة الخطبة ، بصوت ليس بالمرتفع ، ثم مالبث أن ارتفع رويداً رويداً ، حتى أصبح مسموعاً بوضوح لكل من بالساحة ، أو بالمنازل المجاورة ، حيث يجلس المدعوون ، وحينما انتهى من تلاوة الخطبة ، استدار إلى « أحمد » ماداً إليه يمناه ، وعقد له النكاح ، الذي انتهى بقول «أحمد» : «قبلت نكاحهالنفسي » وعندئذ توالت التهنئة على « أحمد » من الحاضرين ، بينما تصاعد صوت « الغطرفة » من المجالس العليا ، حيث تجلس السيدات .

ودارت كئوس المرطبات ، ثم الحلوى ، على المدعوين . وقام « أحمد » من مكانه بعد أن تقبل تهنئة الحاضرين ، واتخذ مكانه واقفاً في صدر البرزة ، وتوالى عليه المهنئون ، وهو يرد التهنئة بابتسامة ، يتبعها برد هامس .

وبعد أن فرغ الجميع ، وتفرقوا ، وفرغت المنازل من المدعوين ، وقام أولاد الحارة والأقارب ، يجمعون أعلام الفرح ، ويطفئون المصابيح ــ كان « أحمد » ينتحي ركناً قصياً في البرزة ، يحيط به زملاؤه وأقرباؤه ، يتجاذبون معه

أطرافاً من الأحاديث ،وتثاءب « إبراهيم » ونظر إلى ساعته ، وصاح في زملائه .

ـ هيا بنا ، لقد سرى الليل ، وأظن أن فصلنا سوف يغلق غداً ، لا طلبة ، ولا مدرسين .

وكرر له زملاؤه التهاني ، حيث اتخذوا طريقهم إلى منازلهم .

أما « أحمد » فقد جذب مسنداً من المساند ، ووضعه تحت رأسه ، بعد أن استلقى على إحدي الدكاك متجهاً بنظره إلى السماء ، مفتح العينبن ، مستيقظ الأعصاب ، وهو يستعيد ما مر به الصباح .

٦

كان الشيخ « عبد الرحمن » يجلس مجلسه الذي اعتاده صباح كل يوم،بعد تناول الإفطار،وأمامه قــدح الشاي ، وقد اتكأ بمرفقه على الوسادة الموضوعة على طرف الحشية التي يجلس عليها ، وقد خلا المكان من « يحيى » الذي اتجه إلى مدرسته ، ومن « زينب » و « زين » اللتين ذهبتا بصحبة الخادم الصغير إلى مدرستهما ، ولم يبق أمامه سوى زوجته « خديجة » التي كانت تجلس قبالته ، وأمامها صينية الشاي ، وبجانبها « السماور » الذي وضعت عليه إناء الشاي ، وغطته بغطاء أبيض نظيف .

كان البيت قد بدأ يهدأ بعد صخب الأولاد ، الذي يصحب استعدادهم للمدرسة صباح كل يوم . وطال الصمت الذي شعر الزوجان بثقله أول الأمر ، ثم ما لبثا أن شعرا بالألفة نحو هذا الهدوء ، الذي اعتاداه منذ شهر ، منذ أن سافر « أحمد » إلى مصر ، وكأنما كان الصمت فرصة لكل منهما في التفكير فيما يعنيه من أمر ، يتصل بعاطفتهما مجتمعين. وما كان يخفف عنهما شعور الضجر بهذا الصمت ــ أول

الأمر – إلا ثقتهما في أن ما يفكر فيه أحدهما هو نفس الأمر الذي يشغل الآخر .

وندت تنهيدة عميقة من « خديجة » أعقبتها فترة صمت ، ثم استدارت إلى زوجها قائلة في صوت خفيض :

– اليوم الاثنين . وأظنه ميعاد البريد الخارجي ، (عودا إلى القلق ، فهيا إلى نقاش لا يؤدي إلى طمأنينة) .

والتفت إليها الشيخ « عبد الرحمن » قائلا :

– نعم . وأتوقع أن نتسلم اليوم خطابا من « أحمد » .

وردت عليه قائلة في أسى :

– لقد مضى شهر منذ سفره ، ولم نتسلم منه أية إفادة تطمئننا عليه .

فقال لها وفي نبراته لهجة الإطمئنان :

– لقد وصل سالما من غير شك ، ولا بد أن يكون قد كتب إلينا بذلك . أما وصول الخطاب فذلك أمر يخرج عن إرادته وقدرته ، إن البحر الأحمر ما زال في خطر من الغواصات الإيطالية ، كما أن الرقابة لا تزال مضروبة في مصر على جميع الخطابات المرسلة منها وإليها .

وبعد أن تأنى لحظة قال فيما يشبه الهمس :

– « ربنا يستر » .

ولكن السيدة « خديجة » لم تكتف بالصمت بعد كلمة الدعاء التي اختتم بها زوجها الحديث ، بل قالت فيما يشبه القلق :

– ألا يكون مريضا ، وهذا ما حال بينه وبين الكتابة إلينـا ؟ .

(المرض ، والمتاعب ، والموت ، أهو فرض علينا أن ندور في الحلقة المفرغة ؟ إني قلق كذلك ، ولكني صابر ومتفائل كذلك) .

وأسرع معترضا بقوله :

– ولم نفـترض المرض بعد أن عرفنـا السبب في التأخـير ؟ .

فردت عليه بلهجتها الأولى القلقة :

– إن « أحمد » ضعيف البنية ، وأخشى أن يمرض من برد مصر .

قال لهـا مبتسما :

ـ إننا في الخريف ، ولم يبدأ الشتاء بعد ، إن البرد لا يمرض إذا استعد له الشخص .

وردت عليه في أسى :

ـ إن « أحمد » لا يزال صغير السن . ولا يعرف كيف يحذر البرد .

قال وقد اتسعت ابتسامته :

ـ كلا ! إن « أحمد » في التاسعة عشرة من عمره . وهو يعرف ما لا تعرفينه .

ثم أبدل لهجته بأخرى قائلا :

ـ ولم القلق ؟ إن « عصاما » و« حسينا » وغيرهما لم يبعثوا إلى أهليهم ما ينبيء بوصولهم . لقد سألني الشيخ « أسعد » والد « حسين » وكان قلقاً مثلك على عدم وصول خطاب من ابنه ، وأخبرته بأني لم أتلق من « أحمد » خطاب الوصـــول .

(ربما اقتنعت« خديجة » بالسبب بعد أن انتهى النقاش إلى هذا الحد ، إن غيرها من الأمهات ينتظرن مثلها ما يبلل غلتهن بعد غياب فلذات الأكباد . والآباء كذلك ، إلا أن هؤلاء لهم من صبرهم أو تظاهر به أمام الأمهات ، ولهم من مشاغلهم ما ينسيهم التفكير في الأبناء الغائبين معظم أوقاتهم ،

وأنا نفسي قلق ، وفي حاجة إلى من يهديء من خواطري القلقة ، إني أقضي معظم نهاري في الدكان وأنا حاضر غائب ، أحاول أن أبعد نفسي عن التفكير المستمر فيه ، إنه غائب . والله معه ، والله معنا جميعاً ، وعندما أعود إلى منزلي تجذبني إليه الذكريات التي تركها في كل ركن من أركانه ، فهاهنا كان مجلسه مني كل ليلة ، يحاول أن تفصلني عنه أكبر مساحة من أرض هذه الحجرة ، وإذا ما تجاذبنا أطراف الأحاديث ، واسترسل في كلامه ، تظاهرت بعدم سماعه ، فيقرب مني على استحياء ، يعيد على مسمعي ما تظاهرت بعدم سماعه .

إنه من أبناء هذا الجيل في التفكير ، وفي أمانيه البعيدة ، وآماله العريضة ، ونظرته إلى المستقبل ، ولكن فيه شيئاً كثيراً من سمات جيلنا الغابر ، وبقايا كثيرة من أخلاق عصرنا المندثر . إنه يبذل من ذات نفسه ، ومن راحته لإخوته الشيء الكثير ، ويتفانى في حبهم .

تلك سمات جيلنا الغابر ، لم أجدها في كثير من أبناء هذا الجيل ولكن . . ألا تؤثر فيه الحياة الجديدة التي سيحياها بعيداً عنا ؟ فنجده بعد أعوام – تقصر أو تطول – شخصا آخر ليس فيه من « أحمد » الذي انفصل عنا منذ شهر سوى شكله . حتى شكله سيتغير) .

والتفت إلى زوجته التي أطرقت تفكر ، وقال مبتسماً :

ـ ألا يكون قد نسينا ؟ .

والتفتت إليه مذعورة وقالت في إنكار !

ـ « أحمد » ينسانا بهذه السرعة ؟ ! . وما الذي سيشغله عنـــا ؟ .

ورد عليها قائلا :

ـ أتتوقعين أن يعود إلينا بعد دراسته دون أن يتغير ؟ .

قالت وفي لهجتها توكيد وثقة مما تقول :

ـ نعم سوف لا يتغير فيه شيء .

وبعد أن تمهلت قليلا استأنفت حديثها :

ـ ربما تتحسن صحته ، أما حبه لنا وتفكيره فينا ، وأخلاقه ، وعاداته ، كل ذلك سوف لا يتغير . إن « أحمد » ليس على طراز من تراهم من شباب اليوم .

(مسكينة هذه الأم ، ومسكين غيرها من الأمهات، قبل قليل تقولين : « أحمد » صغير ، مع أنه في التاسعة عشرة من عمره ، والآن تؤكدين أنه لا يتغير ، إن التغير طبيعي وحتمي ، « ومن ذا الذي ياعز لا يتغير ؟ » ولكن الخلاف في إتجاه التغير ، أهو إلى أحسن أم إلى أسوأ ، هذا هو جوهر الموضوع) .

ونظـــر إلى ســـاعته حينما سمـــع صوت الخـــادم

الصغير ، وقد عاد بعد أن أوصل عمتيه الصغيرتين إلى المدرسة ، وقام الشيخ « عبد الرحمن » من مكانه ، وأخذ يرتدي ملابسه ، و « خديجة » واقفة أمامه تحمل له الملابس ، وهو يتناولها منها قطعة قطعة ، وبعد أن انتهى من ارتداء ملابسه ، واتخذ طريقه إلى درج المنزل ، أتاه صوتها من الخلف :

– سوف أبعث إليك الصبي بعد قليل .

وأومأ إليها برأسه موافقاً ، ومعقباً بقوله :

– سوف يحمل إليك البشرى إن شاء الله .

وعندما وصل إلى دكانه في « سويقة » ، وجد شقيقه « عبد الرحيم » قد سبقه إليه على غير عادته ، وبعد أن سلم عليه ، ابتدره أخوه قائلا :

– هل تسلمت خطابا من « أحمد » ؟ .

(حتى هنا ؟ ، ومن أخي «عبد الرحيم» ؟ إني لم أتعود منه القلق ، بل كثيراً ما كان يأخذ على استسلامي للأوهام ، «جئتك يا عبد المعين تعينني ») .

وأجابه في اطمئنان كذلك :

– اليوم ميعاد البريد الخارجي ، هل مر موزع البريد من هنا ؟ .

ورد عليه « عبد الرحيم » :

– لم يمر بعد .

ثم استدرك قائلا وهو يشير إلى آخر الشارع :

– ها هو قادم من بعيد .

واتجه الشيخ « عبد الرحمن » بنظره إلى حيث أشار أخوه ، وتحفز للقيام من مكانه متعجلا ، ولكنه عدل .

(لم العجلة ؟ وإذا عدت بخيبة الأمل فسيكون وقعها آلم وأوجع ، سوف أنتظر هنا ، وإذا خاب الأمل فحسبي أني لم أسع إلى الخيبة بقدمي ، ها هو ذا قادم ، ومتجه إلينا . . . الأمل . . . لا الخيبة) .

وتناول الخطابات من يد ساعي البريد ، اثنان باسمه ، والثالث باسم « عبد الرحيم » ، وقلب الخطابات في يديه ، وأمعن نظره في الخط ، واطمأن ، أثنان من مصر : سيدي الوالد العزيز ، سيدي العم العزيز ، ورمى الخطاب الثالث على الصندوق ، وفض كل منهما خطابه .

(صفحة جديدة من المتاعب بدأتها منذ شهر ، منذ أن سافر «أحمد» قد كنت أحسب نفسي وحيداً في الإنتظار ، ولكني شاهدت قلق أمه ، فاستصغرت نفسي ، أهي منافسة؟ هل كان

الألم في يوم من الأيام هدفاً للاستمتاع به ، والتسابق إليه ؟ وهذا عمه ووراءه زوجته « صفية » قلب آخر ممعن في القلق والأهام ، لقد طبعت قلوبهم هكذا أرق من قلبى الذى رثيت له . ووراءنا جميعا . . « فاطمة » هذه الطفلة التي ارتبط قلبها ، وارتبط مصيرها بالأمل البعيد . هكذا هذه المجموعة من القلوب الآدمية قد أصبحت في قبضة القلق ، وستبقى منذ اليوم ينتظمها ألم الانتظار ، وقلقه ، ويحفزها لاستجلاء المجهول وهم كبير ، أف لهذه الحياة . ما أسعد القلوب الخالية !)

وفرع كل منهما من قراءة ما بيده ، وتبادلا النظرات ، ثم تبادلا الخطابين ، واستأنف كل منهما القراءة ، وقد ظهرت انطباعات ما قرآه على وجهيهما ، معنى من معاني الاطمئنان ، أو سمة من سماته ، هذا الهدوء الصامت ، وانفراج الشفاه عن نصف ابتسامة . . ثم وصل الصبي ، ووقف أمام عمه كالصنم إلى أن شعر بوجوده ، فأسر إليه بكلمتين ، انطلق بعدهما الصبي مسرعا ، وكأنه حصان انفك من عقاله .

والتفت « عبد الرحيم » إلى شقيقه الأكبر قائلا :

ــ الحمد لله ، لقد كنا قلقين عليه ، ونرجو له التوفيق

وأجابه أخوه :

ـ إن دراسة الطب كانت حلمه منذ صغره ، ولكن المرحلة طويلة وشاقة .

ـ سوف تمر الأعوام سريعة .

ـ بالنسبة إليه فقط .

ـ وبالنسبة إلينا ، إننا لم نتعود بعد على فراقه ، وبعد شهور سوف نعتاد رؤيته في خطاباته ، وسترضى عواطفنا بهذا القدر من اللقاء على الورق ، إنه مثلنا . ألم تلاحظ لهجة الصدق في تشوقه إلينا ؟ .

وأجابه الشيخ « عبد الرحمن » :

ـ إنه عاطفي ورقيق . «ثم قال لنفسه» : (وساذج ، ما أحوجه في غربته إلى أن يكون أكثر وعياً للحيـــاة الجديـــدة !) .

واستأذن « عبد الرحيم » في إرسال الخطابين إلى منزله مع صبي الدكان ، فناوله إياهما بعد أن نبه على الخادم أن يعود بخطابه ، ثم التفت إلى « عبد الرحيم » قائلا « كي تطمئن أمـــه » .

ووافاهما الشيخ « سالم » في تلك الساعة ، وبادرهما قائلا :

– الحمد لله ، لقد وصلتكما خطابات من « أحمد » .

وأجابه الشيخ « عبد الرحمن » :

– نعم . ولكن بعد طول انتظار .

وتساءل الشيخ « سالم » :

– ولم القلق ؟ ، ربما كان منشغلا بشئون حياته الدراسية ، إنه غريب على كل حال . وماذا سيدرس ؟ .

وأجابه « عبد الرحيم » :

– لقد التحق بكلية الطب .

قال الشيخ « سالم » بعد أن افتر ثغره عن ابتسامة ارتياح :

– دكتور . ما شاء الله ! مستقبله مضمون ، سوف أجد من يعالجني دون مقابل .

ورد عليه « عبد الرحيم » ضاحكاً :

– إذن ضاع مستقبله .

ضحك الثلاثة واستأنف الشيخ « سالم » حديثه في أسف ممزوج بالحزن :

ـ لقد ولى عهد النانجة ، والإصرافة ، وسفة الزنجبيل ، والهليج ، وأصبحنا في عهد الكالسيوم ، والأنسولين . ولا أدري ماذا من الأسماء التي لا أحفظها ، قبل أسبوع أحسست بمغص ، وكانت النتيجة عشرة ريالات للطبيب ، وخمسة وعشرون ريالا للدواء .

وسأله الشيخ « عبد الرحمن » :

ـ وما تشخيص المرض ؟ .

فرد عليه في مرارة ، كأن مرضه قد عاوده في تلك اللحظة :

ـ مغص ، قال عنه الدكتور « مغص معوي » كنت أعالجه بسفة من الكمون ، ولكن استعصى على هذه المرة . حتى الأمراض تغيرت :

قال « عبد الرحيم » :

ـ لقد تطور العلم يا شيخ « سالم » . وكيف وجدت نفسك بعد الدواء ؟ .

ورد عليه في استهانة بالنتيجة ، ومط شفته السفلى قائلا :

– الحمد الله على كل حال ، لقد كنت أفضل الكمون ، والإنتظار ثلاثة أيام ، ولكن ابني « سليمان » أصر على إحضار الطبيب . تطور في الأفكار ، وتطور في العلم ، وتطور في العلاج ، والمرض ليس أقل شأناً ، فقد تطور كذلك ، لقد قربت الساعة ، وهذه علاماتها ، ربنا يحسن العاقبة .

وعندما استأذن عائدا إلى دكانه ، التفت إلى الشقيقين قائـــلا :

– (بشرونا بأخبار « أحمد » باستمرار) .

وأومأ إليه « عبد الرحمن » بالإيجاب ، وابتسامة عريضة قد ارتسمت على شفتيه .



[من الطبعة الأولى]

٧

كان الشهر الذي انقضى منذ غياب « أحمد » عن أسرته ، فترة حافلة بالانفعالات العاطفية ، التي شملت أفـراد الأسرة بشطريها ، هذا الشطر الذي يشمل والديه ، وإخوته، بالبيت الذي قضى فترته الأخيرة فيه ، والشطر الآخر الذي يمثل عمه ، وزوجة عمه ، و « فاطمة » . كان كل فرد في في الأسرة بشطريها يعيش في قصة وجدانية ، ينفرد نوعها عن النوع الآخر .

على أن السمة التي تظهر جلياً في تصرفات أي فرد منهم ، والتي تنبيء عادة بما يعتمل في نفسه ، هي القلق ، يظهر عادة في تصرف عفوي ، أو كلمة عابرة ، أو زفرة عميقة ، عقب لحظات من التفكير ، ولم يكن يخفف عنهم قسوة القلق الذي ساورهم جميعاً ، سوى إشراقة الأمل التي كانت تبدو لهم كمصباح ينشر ضوءه على نفوسهم القلقة .

وأبهج ما في القصة التي انتظمتهم جميعاً ، هو محاولة كل منهم التخفيف عن الآخر ، وتهوين فراق فتى الأسرة ، وإزجاء حديث الأمل في كل حديث عن الفتى الغائب .

كان الوالد راضياً كل الرضا لسفر ابنه ؛ فقد تصور

ما ينتظره من مستقبل ، تصوره بعين الأب الذي يحكم العقل دائماً في كل تصرفاته ، ويحاول دائماً — وخاصة أمام الأم — أن يسدل ستاراً كثيفاً على قلقه ، وما يعتمل في قلبه من انشغال على ابنه الغائب .

أما في وحدته فكان يفكر في ابنه تفكيراً متواصلا ، مشوباً في أكثر الأحيان بالقلق ، يثيره الحزن الدفين على فقد ابنيه « محمود » و « محمد » وكثيراً ما كان يقوده التشاؤم ، إلى افتراض فروض يفزع منها بالاستعاذة من الشيطان الرجيم » في صوت مسموع .

أما الأم فقد كانت تجهر بما يعتمل في نفسها ، وكأنما تحاول بذلك البحث عن بارقة أمل لدى محدثها ، أو محدثيها ، يخفف عنها ما تعانيه ، وقد وجدت في أحاديث الأب ما كانت في حاجة إليه ، ورضيت نفسها بكلمات الاطمئنان التي يبثها زوجها في أحاديثه . كما ألفت — بمضي المدة — أن تجعل من ابنها الغائب مركزاً لأفكارها ، ومداراً لأحاديثها ، وكأنما قد تركت ما يعنيها من شئون البيت ، والقيام على على أموره لشخص آخر ، لا يشغله التفكير .

وذلك ما توقعه الشيخ « عبد الرحمن » أول الأمر ؛ فقد تصور أن زوجته قد أهملت الإشراف على شئون المنزل ،

ولكن الواقع الذي أحس به ، أشار إلى عكس ذلك ، فنظام المنزل الذي ألفه ، وأموره الرتيبة التي كانت تسير على وتيرة واحدة ، لم يتغير فيها شيء .

لم يفتقد خلال هذه المدة أي جانب من جوانب تلك الحياة المنزلية ، التي كانت تمثل شطراً مهماً في حياته ، ومعاشه ، على أن كل تغيير أحس به هو تحول أحاديث زوجته عن البحث في متاعب الأولاد كافة ، إلى البحث في حياة « أحمد » ومتاعبه المتوقعة في غربته ، أكله ، ونومه ، وصحته ، وتنظيم شئونه المنزلية ، وفيما عدا ذلك كانت حياة الأسرة هي هي لم يتغير من معالمها شيء ، سوى الصمت الذي كان يختم على المنزل عقب سفر « أحمد » ، والذي ما لبث أن خفت حدته بمضي الأيام ، فعادت حياة المنزل يملؤها صياح « يحيى » واختلافاته المتكررة مع أختيه ، وصوته المرتفع في استذكار دروسه مساء كل يوم ، وقد ساعد على عودة تلك الحياة ، وصول خطاب « أحمد » صباح ذلك اليـــوم .

أما المنزل الآخر . . منزل « عبد الرحيم » فلم تكن انفعالات أهله تقل حدة عما هي في هذا المنزل ، لقد أصبح « أحمد » منذ يوم عقد قرانه – بل قبل ذلك أيضاً – فرداً من أفراد الأسرة ، كان يمثل الأمل في حياتها ، كما يمثله في

حياة أبويه ، وكان في نظر عمه « عبد الرحيم » رجل الأسرة المنتظر ، ولا بد لكل أسرة من عميد يحمل أعباءها في الغد القريب .

وخلال ذلك الشهر ، لم يكن حديث « عبد الرحيم » مع زوجته وابنته يبعد كثيراً عن محيط الأسرة ، وشئونها ، ومستقبلها . كان الحديث يبدأ بين الأم وابنتها وهما في انتظار « عبد الرحيم » بعد صلاة المغرب ، ويمتد إلى الوقت الذي يستشعران فيه قدومه ، حيث يميل حديثهما حينذاك إلى استعادة تذكر « أحمد » ، والتفكير فيما حال بينه وبين الكتابة إلى أهله .

على أن هذه الأمسية لم تكن كالأمسيات السابقة . كانت « فاطمة » تجلس إلى الماكينة تحيك بعض ثيابها ، وكانت أمها تجلس إلى النافذة ، تشاهد المارة من تحت خصاصها ، كانا أسعد حالا ، وأهدأ بالا من الليالي الماضية ؛ فقد قرأت « فاطمة » خطاب « أحمد » مرات عديدة ، منذ أن بعثه والدها قبل ظهر ذلك اليوم ، كانت قد استوعبت في ذهنها كل تفصيلاته ، وقد تهيأ لها وهي منهمكة في عملها بأنها قد حفظته عن ظهر قلب .

لقد راقها فيه إفاضته في وصف مصر ، وانطباعاته

الأولى عنها ، كما وعت في ذهنها كل ما جاء في الخطاب عن وصف مسكنه ، وموقعه ، وحياته الجديدة ، التي يعيشها بعيداً عن أهله .

وحانت من الأم التفاتة – وقد توقف صوت الماكينة – فرأت بنتها مستغرقة في التفكير ، فنادتها بصوت مفزوع :

– فاطمة . . مالك ! ؟ .

وردت عليها « فاطمة » بصوت واه :

– لقد تعبت .

– ومن الذي أوجب عليك انجاز العمل ؟ قومي فقد حان موعد أبيك .

وقامت « فاطمة » بعد أن جمعت القصاصات التي بين يديها ، واتجهت إلى النافذة ، تجلس إلى أمها ، وتشاركها مشاهدة الساحة والمارين ، مسرحهما الذي يشاهدان فيه قصص الحي ، ويحسان فيه نبض الحياة العامة :

فهذا العم « محمد اللبان » عائداً إلى منزله ، يحمل علف ماشيته ، ويعكز في سيره ، كأنما قد ناء بحمل الحيـــاة على كتفيه .

وهذا الشيخ « عبد الله محرم » إنه نحيل الجسم ، ضامر العود ، وقد وخطه الشيب ، وناءت عليه الحوادث ، يمشي محني الظهر ، متوكئاً على عصاه التي تعينه في السير . إن نظره قد بدأ يضعف ، فاستعان على ذلك الضعف بمنظار ذي إطار متهالك ، إنه يمثل المئات ، أو الألوف ، من المكافحين في سبيل لقمة العيش ، وسوف يحيله الكسل ، والعجز ، حتما إلى ركن من أركان الإهمال والنسيان .

وتلك مجموعة مقبلة من العمال ، إن فيهم أطفالا لاتتجاوز أعمارهم الثانية عشرة. قد أغبرت وجوههم ولفحها الهجير ، فبدت وكأنها قطع من الذهب ، كما ارتسمت عليهم سيماء السعادة ، وهم عائدون إلى منازلهم ، يحملون بين أيديهم زاد المساء لأمهاتهم ، قعيدات المنازل .

التقطت « فاطمة » المروحة من جانب أمها ، وقالت في ضجر وتأفف :

ـ إن الجو ما زال حاراً ، وقد انتصف فصل العقرب .

وردت عليها أمها وعينها ما زالت على الساحة :

ـ هذا طقس مكة . ألا ترين الجبال التي تحيط بنا ؟ إنها مبعث هذه الحرارة .

وعاجلتها « فاطمة » في لهجة المشوق :

– ليتنا من سكان مصر !

وتوقفت فجأة عندما سمعت أمها ترد عليها :

– لو كنا من أهل الطائف مثلا ! .

وأطرقت مفكرة على استحياء :

(الطائف سجن بارد ، ومن لي بالطائف ؟ إنه هناك بعيداً عن الطائف ، وعن المدينة ، وعن جدة ، ولكن لا أعرف مصر التي يعيش فيها الآن ، يقولون عنها : بلاد عظيمة : نهر النيل، والحدائق ، والأزهر ، والجامعة ، هذا ما عرفته عن مصر ، ولم أتصور هذه المعالم على حقيقتها .

لقد تصورت اليـــوم فقط شيئاً واحداً عن مصـــر ؛ الشقة التي يسكنها مع زملائه ، إنها في حي الدقي قريباً من الجامعة ، وهو يصفها في خطابه بأنها في الطابق السادس من إحدي العمارات الشاهقة ، ولم اختاروا الطابق السادس ؟ إنه يبعث على الدوار « و أحمد » ضعيف البنية ، ويعاوده الدوار كثيراً . كما يطل هذا المسكن على حديقة كبيرة ، ربما تكون في اتساع الحرم ، يا له من منظر جيمل ! أظنه

سوف يذكرني بتلك المناظر . نعم . نعم . سيذكرني حتما ، إن قلبي يحدثني بذلك ، وقلبي لا يكذبني) .

ولحظت « صفية » صمت ابنتها فاستأنفت الحديث محاولة أن تبتعد به عن مجراه السابق ، فقالت مشيرة إلى الساحة :

— ها هو ذا العم « يوسف البنا » وأولاده إنهم مقبلون من أول الساحة ، يحملون بأيديهم بعض الحاجيات المنزلية ، ولكن لم لا يبعث بأبنائه إلى المدارس ؟ إن هذه الفئة من الناس لا تنظر إلى ما بعد الدائرة التي يعيشون فيها « أحيني اليوم ، وأمتني غداً » لقد تغير الزمن وهؤلاء الناس لم يتغيروا ، إنهم ولا شك لم يدركوا قيمة العلم إلى الآن .

وتوقفت « صفية » في حديثها وهي تنظر إلى ابنتها التي ما لبثت صامتة مفكرة :

(هذه أمي ، لقد خبرتها ، أهي محاولة منها لإبعادي عن التفكير في « أحمد » ، لم يبعث العم « يوسف » بأبنائه إلى المدارس ؟ ابتدائي ، ثم ثانوي ، ثم غربة ، وقلق ، وحيرة ، أمل بعيد هل يتحقق بعد سنوات من الصبر القاسي ، والإنتظار الممل أو يزول ويتلاشى كما تتلاشى أحلامنا ، وتمحي بعد أن نستيقظ ؟ ثم ماذا بعد ذلك ؟ المصير واحد ،

عمل وعمل ، كلهم آلات تستهلك في العمل الشاق ، ليس هناك فرق بين الأثنين ، هذا يحمل في يده ميزان البناء ، وذاك يحمل ميزان الحرارة ، الوسيلة واحدة ، والهدف واحد ، غير أن هذا أسعد حالا ، وأهدأ بالا من ذاك ، فليس في حياته قلق يشغله ، ولا حيرة تضنية ، إن الشقاء كل الشقاء في نفوس ربط مصيرها بالغد البعيد خيط واه من الأمل).

وأجابت « فاطمة » بعد أن خلصت مما يدور في نفسها :

– إنهم لم يدركوا بعد قيمة العلم ، إن المستقبل للمتعلمين ، وأعتقد أن بلادنا سوف تكون ميداناً فسيحاً لكل متعلم ، أما الجاهل فسوف يضيق بحياته حينما تتطور مطالبه ، وتتضاعف احتياجاته .

وأنصتت أمها إنصاتاً كاملا لحديثها :

(هذا حديث « أحمد » ، أو هو صورة منه . لقد وعته « فاطمة » في ذاكرتها ، لقد تحدث ليلة سفره حديثا مستفيضاً عن قيمة العلم في المستقبل ، لم أفهم أكثره ، ولكني تأثرت بالقليل مما فهمته ، وها هي ذي « فاطمة » الآن تردده ، كأنما حفظته عن ظهر قلب ، الحمد لله ، فقد أصبحنا نفهم في العلم

بالأمس لم يكن مفهومنا فيه سوى شذرات مما يلقى في

حلقات الحرم ، ينقلها إلينا رجالنا الذين كانوا يحرصون على حضور تلك الدروس ، أما اليوم فإن العلم يعني شيئاً آخر ، كما قال « أحمد » . فإكتشاف الأمراض ، وتشخيصها ، وطرق علاجها ، وإختراع الطيارات ، والراديو ، كل ذلك أصبح اليوم جزءاً من العلم الذي يتعلمونه في المدارس ، سبحان من يغير ولا يتغير !) .

لم يكن الحديث يسير في هذا المساء متصلا كالعادة بين « فاطمة » وأمها ، بل كانت تفصله فترات من الصمت الثقيل.

كانت الأم تدير دفة الحديث بلباقتها ، وشعورها الصادق الذي يرشدها إلى ما تأخذ وما تدع من الأحاديث الملائمة ، كانت تشعر من مطلع تلك الأمسية بأن ابنتها تدور في حلقة مفرغة من الأفكار التي دهمتها بعد وصول خطاب «أحمد» . كأنما كان الخطاب هو الشعلة التي أوقدت الإحساس الهاديء ، فأذكت فيه النار :

(مسكينة « فاطمة » ما أبعد الغد الذي تنتظره ! !) .

ولمحت « صفية » زوجها وهو مقبل من أول الساحة ، فقامت من مكانها ، وكأنما تنفض عن نفسها تلك الأفكار التي دهمتها هي الأخرى . وقالت تخاطب ابنتها في نبرة حانية :

- سوف أصعد إلى المطبخ لإعداد العشاء .

وغادرت المجلس بينما قامت « فاطمة » لإعداد المكان لجلوس أبيها ، وحانت منها التفاتة إلى المرآة الكبيرة في صدر المجلس ، ووقفت هنيهة أمامها ، وألقت نظرة متفحصة على وجهها الذي بدا به بعض آثار من الشحوب ، أهي سحب الكدر التي تحجب سماتنا خلال أحاديثنا القاتمة عن عزيز غائب ، أم هي ظلال القتام الذي يخيم على نفوسنا ونحن نستذكر الماضي ، وننتظر المجهول من مستقبلنا البعيد ؟ .

ولم تفزع « فاطمة » من هذا الشحوب ، والتقطت الوشاح المعلق على المسمار ، ووضعته على رأسها بعد آن سوت شعرها ، وأسرعت إلى باب المجلس ، تستقبل أباها كما عودته كل ليلة ، وعلى ثغرها ابتسامة مشرقة .

كان إحساس « فاطمة » في هذه الليلة أشبه ما يكون بإحساس الطفل الصغير ، يجد نفسه في ظلام دامس ، لا يفكر إلا في الأشباح التي يتوقع ظهورها ، بل يتصور رؤيتها وقد ظهرت أمامه فعلا ، ويتخيل أشكالها وهي تتراقص على مرأى منه .

كانت قبل هذه الليلة تتصور عريسها « أحمد » وقد عاد

طبيباً يشار إليه بالبنان . ولم يكن الوصول إلى المستقبل يستغرق في نظرها سوى لمحة خاطفة من الزمن ، غمضة عين تستمتع فيها بالحلم اللذيذ ثم تفتح عينيها على إشراقه الأمل الذي ينير لها حياتها ، ومستقبلها ، ومستقبل هذه الأسرة.

رأت « أحمد » وقد فتح عيادته في المنزل وأعدت في خيالها الطابق الأول من المنزل ، مكانا للعيادة ، هنا مكتبه ، وهنا دولاب صغير يضع فيه أدواته الطبية ، وهناك دولاب آخر للأدوية الإسعافية ستكون العيادة بسيطة ، ونظيفة ، وأنيقة ، وستزينها بالستائر المطرزة ، والمفارش الملونة .

سوف تشرف بنفسها على تأثيث العيادة ، وتشرف على نظافتها ، وسيصبح هذا الإشراف على عيادة « أحمد » جزءاً من برنامج عملها اليومي ، سوف لا يكلفها ذلك شيئاً من التعب ، أو الإرهاق ، إذ أن العيادة سوف تعتبر جزءاً من هذا المنزل الذي يسكنونه .

لقد أعدت في خيالها ما سيكون عليه لون الستائر ، ونوع تطريزها ، وما سيكون عليه لون المقاعد وشكلها ، حتى الأشياء الصغيرة التي كان من الممكن إرجاء التفكير فيها إلى الوقت المناسب أدخلتها في حسابها ، وشغلت بها جزءاً

مهما من خيالها . كأنما سيحل هذا الغد البعيد ــ كما تخيلته ــ بعد غمضة عين .

أما هذه الليلة ، ومنذ أن وصل خطاب « أحمد » بعد انتظار شهر من الزمان فقد أحست بالحقيقة لأول مرة ، أحست بأن غمضة العين التي تخيلتها تمثل امتدادا من الزمن ، أعواماً طويلة ، طويلة جداً ، سوف يقضيها هو في الكد ، والعمل ، والسهر ، المتواصل ، وستقضيها هي في الإنتظار ، والقــــلق .

ما أبعد الخيال عن الحقيقة ! لقد قرأت خطابه مرات عديدة ، وفي كل مرة يتكشف لها وجه جديد من الحقيقة التي لم تدخل في حسابها ، ولم تقدرها حق قدرها .

سوف تتلقى الأسرة أمثال هذا الخطاب ، وبهــذا الأسلوب المتكرر أعواما عديدة ، أعواما ستكون طويلة في الحساب الواقعي الصادق ، ليست غمضة عين ، أو لمحة خاطفة ، إن الزمن هو الزمن ، وهو في حساب المنتظر وقلقه دهور طويلة ، كل دقيقة فيه يوم كامل ، وكل يوم عام طويل ، أما الأعوام ، فدهور وأجيال ، وهل في طاقة الإنسان أن ينتظر دهوراً من أجل أمل بعيد ؟

هكذا بدأت إحساساتها الجديدة . إحساسها نحو الزمن .. إنه ممتد وليس له آخر . . وإحساسها نحو المستقبل . . إنه بعيد مجهول . وإحساسها نحو الإنتظار . . إنه ممل وقاس . وماذا بعد ذلك ؟ .

ثم – هو ما مصيره ؟ وما أثر الحياة الجديدة فيه ؟ هل سيتأثر بالحياة الجديدة ، وتتغير نظرته إلى الحياة ، وإلى الأسرة ، وإلى حياة العائلة بواقعها الحالي ؟ هل سيشعر باحتياجات نفسية جديدة ، تغير نظرته ، وتبدل أفكاره ، وتمحو ذلك البريق ، الذي كانت تحس به في عينيه وهو ينظر إليها خلسة، ليلةعقد قرانها ؟. إنها لا تعرف من أمره الحاضر شيئاً ، ولا يحيط خيالها بالحياة التي يحياها الآن في مصر ، ومصر كبيرة ، وسيهيىء له الزمن الطويل الذي سيقضيه هناك فرصاً عديدة ، يعدل فيها عن رأيه فيها .

ربما يشعر في يوم ما أنها حمل ثقيل ، يجب التخلص منه ، وقيد يعوقه ، يجب الانفكاك عنه . سوف يرى الفتاة المثقفة المتعلمة ، الفتاة التي تشبع احتياجاته النفسية ، وترضى انطلاقه الفكري الجديد .

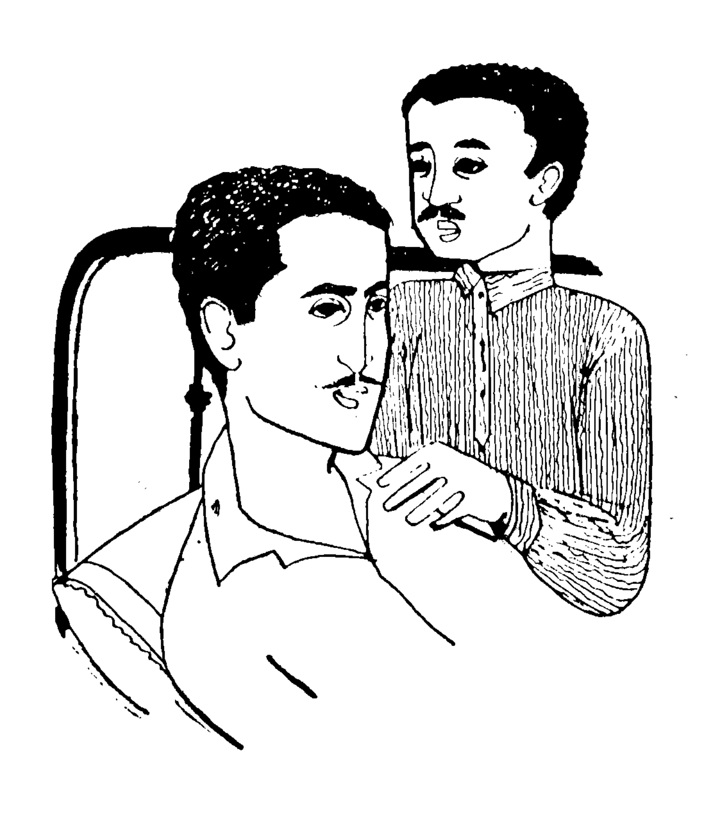
ولكن . . هل سيجد عندها العاطفة الدافقة ؟ عاطفة ابنة العم ، حلم طفولته ، وإشعاعة الماضي في حياته ، هذه التي

تمثل له ماضيه بكل ما فيه من ذكريات ، صغيرة وكبيرة ، وبكل ما فيه من ضحك ، وابتسام ، وغضب ، وخصام ، صورة تنطق ، وتتكلم ، وتضحك ، رسمتها الأيام على مهل ، وفي لمسات متتالية ، استغرقت أعواماً طويلة .

وتساءلت « فاطمة » :

(هل يقدر له أن يبعد بأفكاره عني ، فيمحو كل معالم تلك الصورة المشرقة) .

ولم يكن في استطاعتها أن تنساق إلى أبعد من ذلك مع أوهامها الجديدة ، وخوفها من المستقبل ، واستسلمت مرغمة على تقبل كل ما يأتي به القدر في الأيام القادمة ، وأعدت نفسها منذ تلك الليلة على أن تحيا حياة الإنتظار والترقب .



[من الطبعة الأولى]

٨

كان « أحمد » يجلس أمام مكتبه الخشبي ، في مواجهة سريرة ، وعلى المكتب الآخر جلس « عصام » ، وقد فتح كل منهما كراس المحاضرات بين يديه ، واستغرق في الاستذكار ، في صمت لا يقطعه إلا سؤال يعرض لأحدهما ، أو كلمة استفسار ، يجيب عنها الآخر باقتضاب .

وكانت الحجرة بسيطة التأثيث ، فلم تكن تحوي سوى سريرين من الحديد ، ومكتبين خشبيين ، رصت عليهما بعض الكتب والمراجع ، وخزانة خشبية للكتب ، وضعت عند مدخل الحجرة ، ودولاب كبير للملابس ، كما فرشت أرض الحجرة بقطعة من السجاد العربي ، متوسطة الحجم ، وكانت جدران الحجرة مزينة ببعض الصور الفوتوغرافية ، والآيات القرآنية ، في إطارات أنيقة مثبتة على الجدار .

هذه هي الحجرة التي يسكنها « أحمد » و « عصام » في المسكن الذي استأجراه مع زميليهما الآخرين : « حسين » و « إبراهيم » ، وكان المسكن يحتوي على ثلاث حجر أخرى.

يشغل « إبراهيم » و « حسين » اثنتين منها ، أما الحجرة الرابعة فقد أعدت للاستقبال ، كما وضعت مائدة الطعام في الصالة التي تتوسط الحجرات الأربع .

وقد اختاروا هذا المسكن في إحدي العمارات بشارع « الحكم » في الدقي القريب من الجامعة ، عثروا عليه بعد بحث طويل ، استغرق أياماً منذ وصولهم إلى القاهرة . والزملاء الأربعة وإن كانوا قد اختلفوا في اتجاهاتهم الدراسية ، إلا أن الروابط القديمة التي كانت تجمعهم في المدرسة الثانوية ، والغربة التي جمعتهم الآن في القاهرة ، قد كان لهما الأثر في اتفاقهم على السكنى مجتمعين .

وقد ازدادت الصلة بينهم وثوقاً بمرور الأيام ، منذ وصولهم إلى القاهرة ، قبل ثلاثة أشهر ، فأصبحوا وكأنهم أسرة واحدة ، يعرف كل منهم الشيء الكثير من أمور صاحبه مما كان يعتبر قبل ذلك من الأمور العائلية الخاصة ، كما كانوا يشعرون بتلاشي الحجب بينهم ، وتقارب المسافات بين آرائهم ، وأهدافهم ، يوماً بعد يوم .

وهم بالرغم من اختلاف طبائعهم إلا أنهم قد بدءوا يألفون هذا الاختلاف ، حتى أصبح جزءاً من كيانهم المنزلي ، ويمثل جانباً مهماً في هذه الحياة العائلية الجديدة ، بل

إنه ليتراءى لهم في بعض الأحيان ضرورة الحرص على هذا الاختلاف في شئون المنزل . وكثيراً ما شجر بينهم الخلاف في ترتيب جدول الطعام : كميته ، ونوعه ، وطريقة طهيه ، فكان « أحمد » و « عصام » يفضلان التوسط في ذلك ، بينما يميل « حسين » إلى الاقتصاد والتوفير ، أما « إبراهيم » فكان يفضل الإكثار من اللحوم البيضاء ، وينفر من العدس وفصيلته .

وقد انتهى بهم الأمر أخيراً إلى إسناد مهمة الإشراف على الأكل إلى « إبراهيم » بعد أن أوصوه بالاقتصاد ، وأنذروه بالمراقبة ، وبالرغم من منحه هذه الثقة إلا أنهم كانوا يتتبعونه دائماً بالنقد المرير ، والمعارضة المستمرة . كلما عن له الإسراف في الصرف .

ولم يكن « إبراهيم » يهتم كثيراً بتلك المعارضة ، بل كان يقابلها بصدر رحب ، وبضحكة عريضة مجلجلة ، وكثيرا ما كان يمن عليهم بقيامه بهذه المسئولية ويصيح فيهم قائلا :

– لقد هربت من مسئولية الزواج لأقع في مسئولية الأولاد ، إنكم لا تقدرون هذه التضحية ، لقد تركت بيتاً مفتوحاً في مكة لم أكن فيه مسئولا عن شيء ، لأرزأ نفسي بالإشراف على إطعامكم ، أربعة بطون تهضم الحجارة ،

وأين ؟ في مصر ، في بلاد الغربة ، أتركوا لي تدبير هذه الأمور ، ولا ترهقوا أنفسكم ببحثها ، أنا المسئول ، أما الاقتصاد والتوفير ففي أمور أخرى غير الأكل ، ولا تنسوا أني أدرس الاقتصاد في كلية التجارة ، وأنا على كل حال سوف أطبق ما أدرسه في الكلية على شئون المنزل بكل أمانـة .

في مطلع تلك الليلة من ليالي يناير الباردة حيث بدأ الظلام يزحف وئيداً ، وينشر ظلاله القاتمة على الكون ، كان « أحمد » يشعر – وهو على مكتبه – بالبرد يسري في أوصاله ، بالرغم من تدثره بالعباءة الصوفية . وكان يبدو على وجهه وشي سحابة من الكآبة ، لم يعرف مبعثها ، وقد ضاعف من حدتها هذا الصمت المطبق الذي ران على المسكن ، فبدا هادئاً وكأنما قد خلا من سكانه ، وكان يصل إلى سمعه صوت السيارات العامة المارة في الشارع الرئيسي على بعد من مسكنهم ، فتنتشله تلك الأصوات ، ويصيخ إليها سمعه ، ويتخيل راكبيها ، وضوضاءها ، وصوت الكمساري ورنين صفارته ، ثم يثوب مرة أخرى إلى كراسه الذي بين يديه ، إلى أن يصافح سمعه صوت سيارة أخرى ، فيعيد الكرة مرة ثانية ، وكان يرفع بصره إلى زميله « عصام » بين

كل لحظة وأخرى ، فيراه مكباً على كراسه ، وكأنما انقطع عما حوله، فلم يشعر بشعوره ،ولم ينطلق مثله هذه الانطلاقات الخيالية الممتعة .

ولما أن امتد الوقت بـ « أحمد » وهو في حالة تلك ، بدأ شعوره بالضيق يشتد ويقوى ، كما اشتدت لديه الرغبة في الحديث ، أي حديث يشق به هذا الصمت الثقيل ، فنهض من مكانه ، واتجه إلى سريره ، حيث جلس على طرفه ، بعد أن اتكأ بيمينه على الوسادة ، والتفت إليه « عصام » في نظرة استفسار ، دون أن يتكلم . ولم ينتظر « أحمد » أن يفصح صاحبه عن تساؤله، بل بادره بالإجابة، وكأنما قد فهم سؤاله من نظراته ، فقال بعد أن عقد يديه على صدره في حركة تنم عن شعوره بالبرد :

— اشتد البرد كثيراً هذه الليلة ، إن جسمي لا يتحمله ، إني أشعر به يسري في عظامي كالماء المنساب في المواسير .

ثم سكت قليلا قبل أن يستأنف حديثه قائلا :

— أعتقد أن الجو في مكة دافيء .

ولم ينتظر رداً من « عصام » بل صعد زفرة من صدره قائـــلا :

ــ أين مكة ؟ رحم الله أيامها .

والتفت إليه « عصام » ضاحكاً بعد أن نحى الكتاب وقال في نغمة غنائية :

ــ « أشوقا ولم يمض لي غير ليلة ؟ » .

ثم غير لهجته قائلا :

ــ أمامك أعوام طويلة ، فأين أنت من مكة ؟ .

ورد عليه « أحمد » في أسى ظاهر قائلا :

ــ وهذه هي المأساة .

قال « عصام » في استنكار :

ــ أية مأساة ؟ أحمد ربك إذا التحقت بكلية الطب ، سوف تطول مدة إقامتك هنا ، أما أنا فسوف أقضي أربعة أعوام قصيرة ، أعود بعدها للعمل ، وأبدأ بذلك الحياة المسئوليات ، والواجبات ، التي سأؤديها بكل أدب واحترام.

إني بدأت أحس ــ منذ الآن ــ بثقل ما ينتظرني في المستقبل القريب . ما أجمل حياة التلمذة ! ! سوف لا ندرك قيمتها إلا بعد أن ننغمر في الحياة العملية ، ونبلو مرارتها ، ونتجرع أوصابها كأساً بعد كأس، ولا بد ــ مع ذلك ــ من الابتسام ، والرضا ، والصبر ، سوف نتكلم حيذاك

بمقدار ، ونمرح بمقدار ، ونفكر بمقدار ، ونتحرك بمقدار ، سوف تتغير مقاييس حياتنا ،وتتغير نظرتنا إلى جميع الأمور .

ما أثقل الإنتقال من طراز معين في الحياة كحياتنا إلى آخر مثقل بالهموم ! ! طراز قد رسمته أيد غير أيدينا بعناية ، فوضحت خطوطه ، وسوف يطالبنا المجتمع بالسير في تلك الخطوط ، لا نحيد إلى اليمين ، ولا إلى اليسار ، ولا ننظر إلى أبعد من خطونا .

وبعد أن تمهل قليلا قال في ضجر :

— هذا هو المستقبل فلم تتعجله ؟ .

قال « أحمد » ضاحكاً :

— هناك حل للموضوع . . أطل مدة دراستك .

وقال « عصام » مستنكراً :

— أفتعل الرسوب ؟ ! كلا . ولا أعتقد أنك جاد في حديثك .

قال « أحمد » وقد بدا عليه الجد :

— إني أمزح ، لقد عرفت رأيك في الحياة ، ونظرتك إليها ، إنك شجاع ، والهرب جبن في مثل هذه المواقف .

وبدت سمة الرضا على وجه « عصام » لما قاله « أحمد » خاصة وأنه يهتم برأيه .

كان « أحمد » مرتاحاً أشد الارتياح لهذا الحديث ، الذي تجاذبه مع صاحبه .

بدا ذلك في ابتسامته ، وتأييده لكل ما يقوله « عصام » وتتبعه الحديث ، وفراغه له .

كان يشعر بأن الحديث قد أزال عنه قدراً كبيراً من الكآبة ، التي استولت على مشاعره ، من مطلع تلك الأمسية ، كما زاد من شعور الارتياح الذي أحس به حينذاك اعتقاده بأنه أتاح الفرصة لـ « عصام » في التعبير عما يجول بخاطره من أفكار ، وهو من ناحية أخرى — كذلك — كان حريصاً على الخوض في مثل هذه الأحاديث ، بعد انقطاعه عنها طيلة المدة التي انقضت منذ وصوله وزملائه إلى مصر ؛ فقد كانوا في الثلاثة الأشهر الماضية ، منشغلين بأمور حياتهم المعيشية ، وأمور حياتهم الدراسية .

كان نقاشهم يدور دائماً حول شئون المنزل ، وإن انحرف قليلا فإنما ينحرف إلى الدراسة وصعوبتها ، أو إلى انطباعاتهم عن الحياة الجديدة التي خاضوها معاً ، مجتمع

جديد ، وتقاليد خاصة ، وقيم معينة ، يحتم عليهم التمشي بموجبها ، والتمرس بها ، وإن عانوا ــ ولم يزالوا ــ معاناة شديدة ، خلال محاولاتهم التعرف على دروب هذه الحياة الجديـدة .

على أن « إبراهيم » كان أسبقهم في الاندماج بهذه البيئة الجديدة ، كان مهيأ بالفطرة ، لتقبل كل تغيير يطرأ على نظام حياته ، والاندماج بكل وسط ينتقل إليه ، وقد كون لنفسه في الشهور الماضية ــ على قصرها ــ صداقات عديدة متباينة ، مما أذهل زملاءه ، وجعلهم يناقشون هذا الأمر عرضاً ، في أحاديثهم التي تدور بينهم ، لا استنكاراً له ، بل تعجباً منه ، تعجباً من مقدرة « إبراهيم » على الإمتزاج بوسطه الجديد ، وسرعة تأقلمه بالمجتمع الذي انتقل إليه .

ولقد كان زملاؤه الثلاثة يعجبون له ، ويتمنون أن لو استطاعوا تقليده ، وكان كل منهم يناقش هذا الأمر بينه وبين نفسه على انفراد ، ويخرج من هذه المناقشة آسفاً ، متحسراً ، على عجزه عن مجاراة « إبراهيم » .

لم يكن لأحـــدهم الخلق الاجتماعي الذي يتمتع به « إبراهيم » ، وإن اختلفت درجة هذا العجز ، فـ « أحمد »

كان في مؤخرة الركب ، منطوياً على نفسه دائماً ، وكأنما قد كلف بالحديث الدائم مع نفسه ، أو الكشف عن خبايا تلك النفس ، كان صامتاً أكثر وقته ، وإن شارك في حديث ، فإنما يشارك في الجوانب الهادئة منه ، وخاصة مع أناس لم يألفهم .

كان نقاشه مع زملائه في المنزل ، وبين جدرانه الأربعة فقط . كان يبدو وكأنه في حلم طويل ، ولقد عاد عليه ذلك الإنطواء بمساويء أدرك أثرها في حياته الجديدة ؛ فهو لم يكون أية صداقة مع زملائه في الكلية ، وكأنه قد قنع بصداقته مع أصحابه الثلاثة ، الذين انتقلوا معه من مكة إلى مصر .

وكل ما استطاع أن يظفر به في هذا السبيل ، هو معرفة زميلين له في الكلية معرفة سطحية ، بدأت باستعارة أحدهما كراس المحاضرات منه ، ثم تطورت إلى معرفة الاسم ، واللقب ، والبلد ، وعن طريق هذا الطالب تعرف به طالب آخر ، كان يلازم الأول ، في مجيئه ، وذهابه ، إلى الكلية ، ثم توقفت هذه الصداقة الجديدة عند الحد الذي أراده لها « أحمد » .

أما أولهما فهو « مصطفى لطفي » عرف « أحمد » أنه من طنطا ، وتلقى دراسته بها ، ثم انتقل إلى القاهرة في مطلع هذا العام الدراسي مع عائلته ، كما انتقل والده الذي يعمل بالقضاء إلى إحدي الوظائف القضائية بالقاهرة ، وكان الصديق الثاني « عزت بدر الدين » زميل « مصطفى » في مدرسة طنطا الثانوية وانتقل بمفرده إلى القاهرة ، حيث التحــق بالجامعة .

كان « أحمد » فخوراً بجهده الذي بذله في التعرف على هذين الصديقين ، وإن كان في الحقيقة لم يبذل أي جهد في ذلك ، فقد كانت تلك الصداقة وليدة الظروف المتكررة، التي فرضت عليه التعرف بهما .

أما « عصام » و « حسين » فقد كانا وسطاً في اكتساب الصداقات الجديدة ، فلم يبلغا شأو « إبراهيم » في هـــذا المجال ، كما لم يكونا ك « أحمد » في مؤخرة الصفوف .

كان « إبراهيم » من بين المجموعة ، كثير التفاخر ، بصداقاته المتعددة ، التي اكتسبها خلال المدة القصيرة ، التي أمضاها في القاهرة ، صداقات من كل وسط ، وإن كان يحرص كثيراً على أن تكون من النوع الممتاز النادر ، تتيح

له أن يفخر بها كلما دار النقاش بينه وبين زملائه في هذا الأمـر .

وكثيراً ما كان يقول في معرض أحاديثه مع زملائه :

ـ إنكم تعيشون في قوقعة مقفلة ، لقد انتقلتم ببيئتكم إلى القاهرة ، وستعودون كما جئتم ، لا ذكريات تختزنونها للمستقبل ، ولا أفكار جديدة تكتسبونها ، أما أنا فقـد درست البيئة الجديدة ، من خلال هذه الصداقات ، وسوف أستمر في اكتساب ما يعن لي منها . إن المجتمع واسع ، وميدانه فسيح ، يمكن كل منكم أن يختار منه ما يريد ، حسب اتجاهه وميوله .

وطال الحديث بين « أحمد » و « عصام » وهما في تلك الجلسة ، بينما سرى في كل منهما شعور بالألفة ، والتقارب ، يجذبه نحو صاحبه ، وشعور في نفس « أحمد » خاصة بأن كآبته التي أحس بها ، من مطلع تلك الأمسية قد بدأت تتلاشى ، مع مجرى الحديث الذي دار بينه وبين صاحبه ، وجذب « عصام » كتابه الذي كان قد نحاه عنه قليلا ، وكأنه يشير إلى رغبته في استئناف الاستذكار ، بينما كان « أحمد » متكئاً على حافة السرير ، سابحاً مع أفكاره التي انثالت عليه .

وسمعا طرقات خفيفة على باب الحجرة ، دخل « إبراهيم » على أثرها وهو في كامل ملابسه ، كان يرتدي حلة جديدة كحلية اللون ، ورباط عنق أنيق أزرق اللون ، وقد صفف شعره بعناية ، وحينما بدأهما بالسلام ردا عليه في وقت واحد ، وفي صوت يشبه الهمس ، وتحرك « أحمد » قليلا ، وهو ينظر إلى « إبراهيم » مأخوذاً بمنظره ، فقد تخيلة نجماً من نجوم الشاشة ، بطوله الفارع ، وجسمه الممتليء ، ووجهه الأسمر ، الذي بدا أكثر استدارة ، وأشد لمعاناً مما يعهده ، وجذب « إبراهيم » المقعد القريب منه ، وجلس عليه جلسة توحي بالثقة ، وتشير إلى الاعتداد بالنفس .

على أن ذلك لم يكن ليضايق الصديقين أكثر مما أطلق لهما عنان الخيال ، فقد كانا يعرفان في « إبراهيم » بعده عن الكبر ، كما كانا يلمسان فيه طيبة قلبه ، وكثيراً ما كان يشير إليه أصدقائه ، أو أحدهم بالإقلاع عن « المظاهر » فكان يضحك بملء فيه ، ويرد عليهم :

– إني ألبس لكل حالة لبوسها .

وقد أوحى منظر « إبراهيم » في هذه الليلة ، بأنه قد لبس أفخر ما عنده لأبهج سهرة .

وسرح كل من الصديقين مع خياله ، وود كل منهما أن لو يدعوه « إبراهيم » .

(وجوه جديدة ، ووسط جديد ، وأحاديث خارج هذه الدائرة التي نعيش فيها ، ما أسعد « إبراهيم » ! ! إنه يعيش ليومه ، وما أشقانا نحن الذين اتخذنا من هذا المنزل ديراً نعتزل فيه العالم الفسيح ! !) .

وبادرهما « إبراهيم » بالدعوة ، وكأنه قد أحس بما يجيش بخاطرهما ، فاعتذر « عصام » بينما صمت « أحمد » مفكراً في الأمر على عجل .

وحينما أعاد « إبراهيم » الدعوة تململ في جلسته مترددا ، ولكن « إبراهيم » ألح عليه قائلا :

— لقد دعوت بعض أصدقائي من طلبة الكلية إلى السينما ؛ فيلم عظيم بسينما مترو « الماضي لا يعود » هل سمعتم عنه ؟ إن الإقبال شديد على مشاهدة هذا الفيلم ، هيا بنا ، سوف أعرفك على أصدقائي ، وسوف تعجب بهم ، إنهم من الأوساط الراقية .

وضحك « عصام » بينما أومأ إليه « أحمد » بالموافقة ، حيث قام من مكانه استعداداً للخروج ، فتناول المنشفة

المعلقة على الشماعة ، وخرج من الحجرة ، ميمما شطر الحمام ، بعد أن أغلق باب الحجرة وراءه ، وقام « إبراهيم » من مكانه متمشياً في الحجرة ، بينما تابعه « عصام » بنظراته ، وطال بينهما الصمت ، مما أشعر « إبراهيم » بالحرج ، فالتفت إلى « عصام » في ضجر قائلا :

– إنلك عاقل . . ومجتهد . . أكثر مما ينبغي .

ورد عليه « عصام » وهو يضحك :

– يكفينا مجنون واحد ، إن السكن لا يحتمل أكثر من ذلك .

قال « إبراهيم » بعد أن عاد إلى مقعده ، واتخذ هيئة الاستعداد للمناقشة :

– الجنون ما أنتم فيه ، مذاكرة . . واطلاع . . وسهر بين صفحات الكتب ، هل هذه هي الحياة ؟ لقد اكتسبت من الأوساط التي اختلطت بها أضعاف ما اكتسبتموه من الجامعة .

قال « عصام » وهو ما زال يضحك :

– لقد جئنا هنا للدراسة بالجامعة ، لا لدراسة الأوساط والمجتمعات ، إني متأكد أنك لم تكتسب شيئاً من دراستك ،

وأراك الآن ترغب في إقناعنا بوجاهة تفكيرك ، وصدق نظراتك . ولكن « أحمد » لا يستطيع مجاراتك . . إني أعرفــه .

وتمهل « عصام » لحظة قبل أن يقول متسائلا :

– لم لا تنتقل إلى كلية الآداب ؟ إن مجتمعها ألطف ، ووسطها أرق من كلية التجارة .

وضحك « إبراهيم » قائلا :

– ربما في المستقبل . ولكني الآن لست في حاجة إلى متاعب جديدة ، فأنا شخص عاطفي ، لا أتحمل اللطف الكثير ، والنعومة الشديدة .

قال « عصام » بعد أن رد عليه بضحكة مماثلة :

– لو كنت عاطفياً لما تراجعت عن خطبتك في مكة . ما الذي حال بينك وبين إتمام ذلك الأمر ؟ .

فقال « إبراهيم » بعد أن اتخذ هيئة الجد في المناقشة :

– لقد فكرت في الأمر ليلة عقد قران « أحمد » ، فوجدت الوقت غير ملائم ، خاصة وأن أهلها اشترطوا علي عدم السفر ، ثم إن موقــفي الذي اتخذته كان في مصلحتكم ، تصوروا هذا المنزل ، لو لم أكن معكم فيه ،

والزواج على كل حال قسمة ونصيب ، ربما أعود إلى خطيبتي بعد انتهاء الدراسة .

وبعد أن صمت لحظة متفكراً ، استأنف حديثه قائلا في ضيق وضجر :

– ولم هذا الحديث في هذا الوقت ؟ ! ما فات فات ، ويكفي ما خلقته من متاعب لأسرتي ، والقطيعة التي سرت بين أسرتينا ، بالرغم من الحب المتبادل والقرابة ، ولكن الزمن كفيل بإزالة تلك الآثار .

وعاجله « عصام » قائلا :

– إذا زالت الأسباب .

قال « إبراهيم » في امتعاض :

– إذا كان هناك نصيب .

وسكت كما سكت « عصام » ، بينما عاد « أحمد » من الحمام وقد أسدل المنشفة على كتفيه ،و بمجرد أن دخل الحجرة التفت « إبراهيم » إلى « عصام » يسأله :

– وما موقف « أحمد » ؟ .

واستدار إليهما « أحمد » في تساؤل ، واستيضاح قائلا :

– من ماذا ؟ .

قال « إبراهيم » يجيبه :

– من الزواج .

ورد عليه « أحمد » في اقتضاب :

– إني متزوج ! .

قال « إبراهيم » موضحا الأمر :

أعرف ذلك ، وإنما أقصد رأيك فيه .

فقال « أحمد » في دهشة :

– رأيي فيه أنه ضروري لكل شاب . وإذا كنت تقصد رأيي في موقفك الأخير ، فإني أقول : لكل منا رأيه الذي تمليه عليه مصلحته . أما أنا فأعتقد أن موقفي منه واضح كل الوضوح .

وبعد أن تأنى قليلا وهو يتخذ طريقه نحو المرآة قال :

– إن زواجي من ابنة عمي كان حلمي الذي عشت فيه منذ طفولتي ، إنها جزء مني ، وإني أنتظر على أحر من الجمر ذلك اليوم الذي أزف إليها فيه .

وتبادل « إبراهيم » و « عصام » النظرات بينهما في صمت و « أحمد » منصرف إلى ارتداء ملابسه . وما ان فرغ من ارتدائها حتى عاجله « إبراهيم » قائلا :

– إنك أنيق ، وذوقك لا بأس به في انتقاء الألوان سوف تسر من جماعة الليلة .

قال « أحمد » وهو يلقي النظرة الأخيرة على هندامه ، ثم نظرة عابرة على صفحة وجهه الذي راق لونه ، فبدأ أبيض صافياً ، مائلا إلى الحمرة :

– لست حريصاً على التعرف بأبناء الطبقة الراقية ، ولكني شعرت بضرورة تغيير الجو هذه الليلة ، بعد أن شعرت بالكآبة منذ مطلع هذا المساء ، كما أني سمعت عن عظمة الفيلم الذى سنشاهده .

واستأذنا من « عصام » ، وأخذا طريقهما نحو باب الخروج : « أحمد » بقامته المتوسطة ، وجسمه النحيف ، و « إبراهيم » بقامته الفارعة ، وجسمه الممتلىء ، ولونه المائل إلى السمرة .

كانا كطرفي نقيض حتى في شعورهما نحو هذه السهرة التي ستجمعهما . كان « إبراهيم » فرحاً ومرحباً بمزاملة

« أحمد » له ، يحس بالفخر ، ويشعر بالتفوق ، إذ سيتاح له أن يعرف « أحمد » بنفر من أصدقائه الجدد ، الذين يفتخر بهم دائماً ، أمام زملائه في المنزل . بينما كان « أحمد » نفسه لا يشعر بأي شعور متحمس نحو هذه المزاملة ، فلم يكن الدافع له إلى مرافقة « إبراهيم » سوى التنفيس عن شعوره بالضيق والكآبة ، أما التعرف بأصدقاء جدد ، وخلق صداقات جديدة ، فلم يكن هدفه في يوم من الأيام .

وقبل أن يجتازا باب المسكن كان « عصام » يقف وراءهما متمنياً لهما سهرة طيبة .

٩

الساعة الثامنة مساء ، وقد اجتمع الزملاء الثلاثة «حسين» و «أحمد» و «عصام» بحجرة الأول بعد أن فتحوا النوافذ المطلة على الشارع الشمالي ، الذي تشرف عليه الحجرة وكان « حسين » متكئاً على الجانب الآخر من السرير ، بينما جلس « أحمد » على المقعد الخشبي خلف المكتب ، وقد وضع أمامه صينية متوسطة الحجم ، بها إناء للشاي ، وبضعة أكواب فارغة .

وكانوا يتجاذبون الأحاديث بعد أن فرغوا من شرب الشاي ، أحاديث متفرقة ، من هنا ، ومن هناك ، وذكريات بعيدة يجترونها ، ويضحكون لها من قلوبهم ، تداعت عليهم اليوم كما تتداعى عليهم كل يوم ، في جلستهم تلك . . وفي ذات الميعاد . . وربما يرددون ذكريات حادثة من الحوادث ، مرتين وثلاث مرات ، تصاغ في كل مرة بأسلوب جديد ، وعرض جديد ، ويتجدد ضحكهم كلما استمعوا إليها ،

وكأنهم يكتشفون فيها جانباً جديداً من جوانب الفكاهة والتسلية .

ذكريات لها تاريخ ، وذكريات بلا تاريخ ، حوادث موغلة في القدم ، منذ الطفولة الراحلة ، وأيام التلمذة بمدارس مكة ، ومفارقات قريبة ، عرضت لهم خلال الشهور الستة التي قضوها في القاهرة .

الطالب الذي سأل « أحمد » :

ـ أتسكنون في منزل كمنازلنا ، أم لا زلتم تسكنون الخيام ؟ .

والآخر الذي يسأل « حسينا » عن عدد آبار الزيت التي حفرها بمنزله .

وكان مجلسهم وقد خلا من « إبراهيم » كأنما ينقصه شيء ، شيء مهم بالنسبة لهم ، هو ذلك الإيناس الذي يستشعرونه بوجود « إبراهيم » بينهم . وكان قد تعود أن يتغيب عن المنزل في مثل هذا الوقت . وإن كان في بعض الأحيان يحرص على العودة ليشاركهم هذا المجلس الحبيب الذي يستذكرون فيه الماضي ، ويتجاذبون فيه أحاديث الحاضر ومفارقاته ، وكثيراً ما كان يختتم « إبراهيم » مجلسهم بقصة من تجاربه التي اكتسبها ، وكأنما يتلو عليهم

صفحات من خطاب مفتوح ، مما أضعف ثقة زملائه في صحة أحاديثه ، فيقابلونه بالضحك ، والتغامز ، بينما يرد عليهم بضحكة قوية مضادة ، تضيع في صداها أصوات ضحكهم مجتمعين .

ذكروا في هذه الليلة قرب الامتحان . شهران فقط ، فهم الآن في منتصف مارس ، وبدءوا بذلك يحسون بالرهبة التي يستشعرها الطالب عند قدوم الامتحان ، ولعل شعور الرهبة الذي سرى فيهم قد ضاعف لديهم الإحساس بسرعة مرور الوقت ، كما ضاعفه – من ناحية أخرى – مثابرة الأساتذة على مضاعفة جهودهم ، في إلقاء المحاضرات ، وقلة إضراب الطلبة ، تلك الإضرابات التي كانت تهيء لهم الفرص لاستعادة ما فاتهم ، أو استذكار ما تحصلوا عليه من دروس.

كانوا خلال الشهور الستة الماضية قد ساروا على نسق معيشي منظم ، محدد بالساعات ، وقد تمشوا على ذلك النظام بكل دقة ، فلم يلحقه التغيير ، أو التبديل ، إلا فيما ندر من الظروف .

يخرجون إلى كلياتهم صباح كل يوم : « أحمد » و « حسين » إلى إعدادي الطب ، و « عصام » إلى كليةالحقوق و «إبراهيم» إلى كلية التجارة ، وكانت عودتهم تخضع لنظام

الدراسة الذي يفترق في كل كلية عن الكلية الأخرى .
وكان ينتظم عقدهم بالمنزل مساء كل يوم ، ابتداء من الساعة الخامسة ، حيث يتهيأ كل منهم للمذاكرة ، ساعة أو ساعتين قبل موعد العشاء ، عدا « إبراهيم » الذي كان يتغيب خلال هذه الفترة خارج المنزل .

ولقد كان الزمن – خلال الشهور الستة الماضية بسيره الحثيث ، وبما يحمل في طياته من أحداث صغيرة ، ذات صور متعددة – كفيلا بتطوير هذه المجموعة تطويراً هيناً ليناً غير محسوس ، كما كان معدلا لبعض طباعهم ، كتجارب مع المجتمع الجديد ، الذي بدءوا يحسون به ، والبيئة الجديدة التي يعيشون فيها .

وتساءل « أحمد » وهم في حديث الامتحان ، وقد ظهر على وجهه الاهتمام لما يقول :

– لا أدري هل استعد « إبراهيم » للإمتحان ؟ ! إني أراه مهتماً بصداقاته الجديدة ، فخوراً بها ، وقد ترك الاستذكار ، وتفرغ للمهم من أعماله .

ورد عليه « عصام » ضاحكاً :

– إنه مهتم بدراسة المجتمع ، بطبقاته المتعددة . ولديه نماذج مختارة من كل طبقة .

فقال « حسين » بعد أن اعتدل في جلسته :

– ولكني أعتقد أن « إبراهيم » سوف ينجح في الامتحان .

ورد « عصام » بقوله :

– إن « إبراهيم » قد استعد منذ الآن للرحلة الطويلة التي سيقطعها بين الكليات . لقد تضمن برنامجه الذي أعده لنفسه ، جميع الكليات النظرية ، وهذا ما صرح به مرات عديدة ، فقد بدأ بكلية التجارة ، وسينتقل في العام القادم إلى الآداب أو الحقوق ، إلى أن يعثر على هدفه الذي لم يحدده بعد .

وصمت لحظة قبل أن يستأنف حديثه وهو يضحك :

– إني موضع سره . فقد أخبرني اليوم بأنه بدأ منذ شهر يدرس الموسيقى ، وقد مر خلال هذا الشهر بأنواع الآلات الموسيقية ، دون أن يستقر رأيه على ما سيتعلمه ، وكل ذلك قبل أن يتعلم قراءة النوتة الموسيقية ، وأخشى ما أخشاه أن ينتهي إلى السمسمية .

وضحك الزملاء ، بينما قال « أحمد » :

– إذن سيجد لنفسه سوقاً في الطندباوي والحفائر ، إنها فكرة قيمة سوف يستفيد منها في مستقبله .

وتوقفوا عن الحديث منصتين لصرير باب الشقة ، وهو يفتح وصوت « إبراهيم » وهو يرحب بشخص قدم في صحبته

ودخل عليهم « إبراهيم » بعد أن نقر باب الحجرة مستأذنا ، وعلى ثغره ابتسامة عريضة ، وفي أعقابه شاب عريض المنكبين ، يوحي مظهره بأنه ملاكم أو مصارع ، واحتبس الزملاء أنفاسهم ، وتبادلوا النظرات فيما بينهم . واستدار « إبراهيم » إلى الضيف ، بينما أشار إلى زملائه يعرفه بهم ، وقام الزملاء قومة واحدة يحيون الضيف ، ويشدون على يده واحداً بعد الآخر . وبعد أن عرف زملاءه أشار إلى صديقه قائلا :

– الموسيقار « سمير رشدي » .

وكاد « عصام » أن يضحك أمام الضيف ، لولا أن أسرع خارجاً من الحجرة ، بينما رد « أحمد » و « حسين » بالتحية المألوفه ، وبمظهر من الاهتمام بالموسيقار ، تشوبه نظرات الشك والريبة .

وعاد « عصام » بعد برهة يدعوهم إلى الجلوس في حجرة الاستقبال . وعندما اكتمل عقدهم ، ونادوا على الخادم ليهيئ لهم الشاي ، كانت عيونهم تلمع ببريق الرغبة في اكتشاف المجهول ، هذا الذي يفاجئهم به « إبراهيم » كل يوم : بالأمس جاء بصديق بالغ النحافة ، وقدمه إليهم بطلا من أبطال الرياضة ، واليوم يأتي لهم بطراز آخر من أصدقائه : عملاق يوحي مظهره بحلبة مصارعة الثيران ، ويقدمه لهم موسيقاراً عظيما ! ! ما أعجب « إبراهيم » ! ! لقد ترك الدراسة جانباً ، وسلك مسلكا آخر لا يدري أحد منهم منتهاه

والتفت « إبراهيم » إلى زملائه وقد أحس بما يجيش في خواطرهم ، وربما ضحك من نفسه ، ومن مفارقاته التي يفاجئهم بها ، وقال مبتسماً بعد أن أشار إلى الموسيقار :

— الأستاذ يمثل مدرسة جديدة في الموسيقى ، تعتمد في اتجاهها على التعمق ، والتعرف على الخصائص الأصيلة في الشعب ، وألحانه تمثل روح الشعب الأصيلة ، وقد بدأت أتلقى على يده دروساً في الموسيقى ، وبالرغم من قصر المدة إلا أني خطوت بمساعدته خطوات لا بأس بها .

قال « عصام » وهو يضحك في سره لما يقول :

— إن الموسيقى الشرقية في حاجة إلى من يحيي تراثها بعد « سيد درويش » ، ولا يبعد أن يكون الأستاذ خليفته .

وظهرت آثار الارتياح على وجه الموسيقار ، وتحرك من مكانه ، وكأنما قد هزه الثناء ، فقال مزهوا بعد أن وجه نظره إلى « إبراهيم » :

— إن الأستاذ « إبراهيم » خامة طيبة تبشر بالخير .
وابتسم « إبراهيم » لابتسام زملائه ، بينما قال « أحمد » وهو يضحك :

— إن « إبراهيم » يميل إلى الموسيقى الغربية ، ولا يستسيغ الموسيقى الشرقية ، ولكن ربما عدل عن هذا الرأي .

وتذكر « إبراهيم » اتجاهه السابق ، ورأيه في الموسيقى ، وإن كان له في كل يوم رأي ، ورد على ملاحظة « أحمد » قائلا :

— إن الفضل في ذلك يرجع للأستاذ « سمير » ، لقد دلني على مواضع العظمة في الموسيقى الشرقية ، وأنغامها العذبة ، التي تمثل روحنا الأصيلة .

قال « عصام » وهو ينظر إلى « إبراهيم » :

– بعد الامتحان إن شاء الله ، عندما نحتفل بنجاحنا ، سنحتفل كذلك بمولد الموسيقار المنتظر ، الأستاذ « إبراهيم »

وتذكر « إبراهيم » فجأة قرب الامتحان ، وأدرك أن زملاءه قد سبقوه في المذاكرة والتحصيل ، أما هو فقد أضاع أوقاته يسعى لهدف لم يتبينه ، وأكبر الظن أنه سيسير في هذا الطريق ، إن لم تدركه العناية الإلهية .

وذكر أن أحد زملائه في الكلية قد وعده بأن يوافيه بمحاضرات الأسبوعين الأخيرين ، وهي الفترة التي شغل خلالها بالموسيقى ، والسعي إلى التعرف بالموسيقين ، فقد ترك الكلية ، والمذاكرة ، حتى أصبحت لطول بعده عنها صوراً مهزوزة في مخيلته ، وكأنما استيقظ من سبات عميق ، وهو يفكر في الامتحان ، وفي مصيره إن رسب ، فقال ساهماً :

– ألم يترك لي أحد الزملاء كراس المحاضرات خلال تغيبي عن المنزل ؟ .

ورد عليه « أحمد » بالسلب ، بينما أطرق هو إلى الأرض

إطراقة التفكير العميق ، وشرد بنظراته بعيداً ، وقال بعد لأي :

ـ نحن الآن في منتصف مارس ، ولم يبق على الامتحان سوى شهرين ، إني يائس من النجاح .

ورد عليه عصام :

ـ هناك أمل كبير لو بدأت منذ الآن .

وشعر « إبراهيم » كأن قوة خفية تدفعه إلى التفكير في نفسه ، وفي مستقبله ، في هذه اللحظة التي أحس فيها بعظم الفرق بينه وبين زملائه :

أما آن لي أن أكون مثل زملائي الثلاثة ؟ . . غداً عندما تظهر نتيجة الامتحان ، ويعلم بها والدي ، ماذا يكون وقعها لديه ؟ وما موقفه حينما يجلس إلى أصحابه في مكة ؟ إنه لا يجد لنفسه مجالا يفتخر فيه :

« أحمد » ناجح ، و « حسين » ناجح ، و« عصام » ناجح ، و « إبراهيم » . . راسب ، لماذا ؟ إنه منصرف إلى دراسة الموسيقى . « المزيكة » و « الطبلة » و « الطار » و « البوص » و « السمسمية » ما مستقبلها في بلدنا ؟ ما هذا الحرف الذي

انسقت فيه ؟ وهذا الذي أوهمت نفسي بأنه موسيقار ، وأريد أن أوهم زملائي بذلك ، إن نظرات زملائي قد كشفت الحقيقة .

وضاق « إبراهيم » ذرعاً بنفسه عندما تبينت له الحقيقة ، هذه الحقيقة المرة التي تتمثل في الوهم الكبير ، الذي يسير فيه الآن ، ونظر إلى ساعته في قلق ، وقد ظهر على معالم وجهه ما يشي بذلك ، وهب واقفاً ليستأذن في الانصراف ، وقام على أثره الضيف مستأذناً كذلك . وخرجا من المنزل ، وما ان شارفا أول الشارع ،حتى التفت إلى صديقه مستأذنا ، وأسرع في خطوه في اتجاه الجيزة ، نحو منزل زميله الذي وعده بموافاته بمحاضرات الفترة التي تغيبها من الكلية .

ومنذ تلك الليلة انضم « إبراهيم » إلى مجلس زملائه في المنزل ، محاولا أن يلحق بركبهم الذي سبقه ، مستعداً للامتحان الذي قرب موعده ، وبدأ بذلك صفحة جديدة في حياته الدراسية .

١٠

ترك « أحمد » زملاءه يتجولون في حجرات المنزل الجديد ، ودخل هو حجرته التي اختارها في هذا المسكن ، الذي انتقلوا إليه اليوم . وبالرغم من أن المسكن الجديد لا يبعد عن مسكنهم السابق كثيراً ، إذ يقع في نفس المنطقة ، منطقة الدقي التي تضم منازلها آلافاً من طلبة الجامعة ، إلا أن الشعور بالانتقال قد منح كلا منهم إحساساً يدفعه إلى اكتشاف المناظر المحيطة بالمنزل ، والبحث في الفرق بين حجرات المنزل ، ضوئها ، وهوائها ، واتجاه نوافذ الحجرات ، هذه الحجرة بحرية ، وتلك شرقية ، إلى آخر ما هناك من فروق ، تعتبر في نظر الساكن الجديد ذات أهمية بالنسبة لراحته ، التي يطلبها في المسكن الجديد .

وفتح باب الشرفة التي تطل على الشارع ، وارتفق جدارها ، مرسلا نظره عبر حديقة الأورمان ، التي تقع أمام نظره :

(ما أسرع مرور الزمن ! ! لقد مر عام منذ قدومنا

إلى مصر ، وها نحن الآن نبدأ العام التالي ، وستتلوه أعوام ، وأعوام ، إلى أن نطوي هذه الحقبة من أعمارنا ، ونضيفها إلى متحف الذكريات . إن إحساسي ببطء الزمن قد تضاءل. وأظنه سيتضاءل أكثر وأكثر ، كلما طال بنا الطريق ، وامتد ، وحينئذ سوف نعود ، ونجتر الذكريات الحاضرة ، والتي ستصبح يومذاك ماضياً نضيراً ، كلما بعدنا عنه زاد تألقاً ونضرة) .

وترامت إليه أصوات زملائه من داخل الشقة ، وهم يقتربون من حجرته ، فترك مكانه عائداً إلى داخل الحجرة ، بعد أن أقفل الباب المؤدي إلى الشرفة ، وما إن توسط حجرته حتى كان زملاؤه قد وصـــلوا إليه ، ووقفوا في شبه حلقة .

وقال « إبراهيم » بعد أن أدار نظره متفحصا الحجرة ، بعين الخبير ، وأشار إلى أحد الجوانب قائلا :

— هنا تضع السرير ، وفي الجانب الآخر تضع المكتب ، وخزانة الكتب ، وأرى أن تشتري كنبة عريضة لجلوسنا ، وأظن أن حجرتك سوف تكون « مركاز » الشاي ، بعد عصر كل يوم .

فقال « أحمد » :

— لم لا تكون حجرتك هي المركاز ؟ إني سوف أتفرغ للمذاكرة ، وليس لدي وقت لاستقبال الضيوف .

ورد عليه « إبراهيم » ضاحكاً :

— أشكر ربك الذي فرق بينك وبين « عصام » وأبعدك عن فلسفته ، وأحاديثه التي لا تنتهي .

وتأنى لحظة قبل أن يستأنف حديثه متسائلا :

— ولكن هل تستطيع أن تنام وحدك في هذه الحجرة ؟ .

فتدخل « عصام » في الحديث قائلا :

— إن « أحمد » قد تدرب على الوحدة ، ولا يخاف الانفراد في حجرة خاصة .

ثم مخاطبا « إبراهيم » :

— وهل نسيت نفسك عندما كنا بـ « وادي فاطمة » قبل عام ونصف فقط ، وفزعت من نومك في منتصف الليل ، وصحت بأعلى صوتك ، مشيراً بيدك إلى جهة بعيدة :

« هول الليل ، هول الليل » .

وظهر على وجه « إبراهيم » الاهتمام بهذا الحديث ، فجذب المقعد واضعاً قدمه عليه ، وقال :

— يا جماعة . إنكم لا تصدقونني إذا قلت لكم الحقيقة ، إن الحادثة مرت منذ زمن ، واستطيع الآن أن أؤكد لكم أني رأيت هول الليل في تلك الليلة . إن له عينين تبرقان في الظلام ، وكان منظره مفزعاً ، وكلما أتذكر ذلك المنظر ، أرتعد خوفاً منه .

فرد عليه « عصام » ضاحكاً :

— لقد تبين لنا أنه قط من قطط الوادي ، جاء على رائحة اللحم .

ولكن « إبراهيم » أكد كلامه قائلا في جد :

— إنكم استيقظتم بعد فوات الأوان ؛ فقد تحول في تلك اللحظة إلى قط . ثم إنكم حتى لو استيقظتم قبل أن يتحول إلى قط لما استطعتم رؤيته .

فتساءل زملاؤه في تعجب :

— « ولماذا ؟ » .

قال بعد أن انتظر قليلا كالمتردد فيما يبوح به من سر :

— إن نجمي كشاف، فقد رأيت الجن منذ صغري . أتؤمنون بالجن أم لا ؟ . لقد جاء ذكرهم في القرآن .

وضحك زملاؤه بينما استمر في حديثه قائلا :

ـ لقد رأيت الدجيرة في « سقيفة جياد » ، وأنا لم أتعد الثامنة بعد : امرأة قصيرة ، لا يتعدى طولها ستين سنتي ، وتلبس الملاية التركي ، وعلى رأسها بقشة ، وفي رجليها أجراس . وقد نادتني باسمي :

« يا إبراهيم ، يا ولد عيشه ، تعال ياولدي ، شيل لي البقشـــة » .

ولكني لم ألب نداءها ، وعدت إلى منزلي راكضاً بأقصى سرعة ، وعندما وصلت إلى أمي ارتميت على صدرها ، وأنا أرتجف ، وبعد أن هدأت قليلا وصفت لها ما رأيت ، فقالت لي :

« إن سقيفة جياد » مسكونة » .

وقال « أحمد » مؤمناً على كلام « إبراهيم » بعد أن اقترب من زملائه قليلا :

ـ وأنا كذلك سمعت أن منزلنا بمكة مسكون بالجن ، ولكنهم ـ كما قالت جدتي رحمها الله ـ من الجـــن الصالحين ، لا يؤذون أحداً ، ويؤدون صلاة الفجر في الحرم

كل يوم ، ولكني مع الأسف لم أرهم . وأخي « يحيى »
يدعى أنه رآهم كثيراً .

وبعد أن توقف في حديثه برهة ، استأنف كلامه قائلا :

– كلها أوهام ، أنا لا أصدق أن الجن يظهرون لنا علانية .

فرد عليه « إبراهيم » :

– ربما تكون أوهاما ، وربما يكون أخوك « يحيى » مثلي ، نجمه كشاف ، وأنا على كل حال قد مررت كثيراً بـ« سقيفة جياد » ، بعد أن كبرت ، وبحثت عن الدجيرة فلم أجدها ، ولكن الحقيقة أن السقيفة فيها « كشة » أشعر بها ، ويشعر بها غيري عند اجتيازها ، على أن المهم في الموضوع بالنسبة لي ، هو النفور الذي شعرت به منذ ذلك اليوم ، من كل امرأة قصيرة ، تلبس الملاية التركي .

فقال « أحمد » ضاحكاً :

– إذن ستختار لنفسك زوجة طويلة ، وهذا ميسور طبعاً . ولكن ماذا ترتدي بدل الملاية التركي ؟ .

قال « إبراهيم » :

– سوف ترتدي العباءة ، أو أي شيء . . إني موافق

على أن تلبس كيساً من الخيش ، ولا تلبس الملاية التركي .

وسأله « حسين » قائلا :

ــ وهنا في مصر . ألم تر الجن ؟ .

فرد عليه وهو يضحك بأعلى صوته :

ــ هنا جن من نوع آخر ، أجارك الله منهم .

وبعد أن تأني لحظة استأنف حديثه قائلا :

ــ أتركونا من حديث الجن، هيا بنا ننظم حجرة الإستقبال ، إن الطقم الذي اخترته لكم سيضفي على الحجرة رونقاً جذاباً ، كما أن المناظر الطبيعية التي سوف أثبتها على حوائط الشقة ، ستضيف لوناً جديداً على المسكن ، ومنذ الآن سوف نستطيع دعوة أصدقائنا لزيارتنا . . إن الدنيا مظاهر ، وخاصة هنا . أنتم لا تعرفون ذلك .

ولم يكن المسكن الجديد الذي انتقلوا إليه هو كل ما لحق أمرهم من تجديد ، بل إن التبديل والتغيير قد شمل المنزل جميعه ، حجرة الإستقبال ، وحجرة الطعام ، وحجرات النوم . كانوا قد اتفقوا على تأثيث المنزل تأثيثاً جديداً بعد مرور عام من قدومهم إلى مصر . وقد اختاروه على مهل ، خلال أول إجازة صيفية يقضونها في مصر ، فقد طافوا

بمحلات الأثاث في شارع « عبد العزيز » ، وأنفقوا أوقاتهم في البحث عن الجيد الرخيص ، وساوموا أصحاب المحلات ، وترددوا عليهم أياماً متوالية ، إلى أن انتهوا من المهمة بعد ثلاثة أشهر ، وكانوا قد خصصوا فترة الصباح من كل يوم للبحث عن بغيتهم ، وعندما يملون من البحث المتوالي يمنحون أنفسهم فترة استراحة بالمنزل لمدة أيام ، يستأنفون بعدها البحث والتنقيب .

وكانوا يحرصون على ألا يتركوا « إبراهيم » يساوم التاجر وحده ، فقد أوقعهم في ورطات متعاقبة مع أصحاب المحلات ، فلم يكن يساوم بروح التاجر الحصيف ، وإنما كان ينساق بسرعة إلى التورط في إتمام البيع ، وكان لطوله ، وقامته الفارهة ، ووجهه المستدير ، وأناقته التي توحي برئاسته لزملائه أكبر الأثر في ذلك .

كان يتقدمهم في دخول المحلات التجارية فينصرف إليه البائع مرحباً به في حرارة ، تاركاً مرافقيه في جانب من المحل يبحثون على مهل ، بينما يدخل هو في بحث مع التاجر على أصناف الموبيليات ، وأنواعها ، وكلما زاد ترحيب التاجر به ، زاد هو شعوراً بالاستعلاء والزعامة ، مما يدفعه

إلى الإتفاق مع صاحب المحل ، دون استشارة زملائه ، ويدركه زملاؤه في اللحظة المناسبة حيث يتدخلون في مساومة التاجر ، وعندما يشير التاجر إلى « إبراهيم » قائلا :

« البيك ذوقه جميل ، لقد اختار هذا الطقم ، وثمنه مناسب ، وقد وافق عليه » .

يستدير « إبراهيم » — حينذاك — إلى زملائه مبتسما فخوراً ومومناً على قول التاجر ، كأنما هان الثمن في سبيل اللقب الذي حظى به من التاجر .

واجتمعوا في حجرة الجلوس ، بعد أن نظموا وضع الأثاث فيها بعناية فائقة ، وبدت على وجوههم الطمأنينة التي يحس بها الشخص عقب نجاحه في مهمة عسيرة . والتفت « إبراهيم » إلى زملائه قائلا :

— سوف نحتفل غداً بالمسكن الجديد . ما رأيكم ؟ رز بخاري بالدجاج ، وأنا أطبخه لكم .

ووافقه زملاؤه على الاقتراح .
فنادى « محمودا » الطاهي ، وأصدر إليه التعليمات اللازمة

للاستعداد ، ومن ثم مد قدميه أمامه ، وكأنما انتهى من تحقيق أمنية من أعز أمانية .

وعاد « أحمد » إلى حجرته ، وجلس إلى مكتبه متهيئاً لكتابة خطاب لأسرته ، وكان يشعر بامتعاض للمرح الذي انساق فيه ، كأنما كان فرضاً عليه أن يسجن نفسه في قوقعة مقفلة ، يفكر في أسرته .

كان خلال الشهور الثلاثة ، شهور العطلة الصيفية ، منشغلا مع زملائه فيما انشغلوا فيه ، من السعي في تأثيث المنزل ، وفي النزهات التي شارك فيها زملاءه ، والتي شعر خلالها كأنما خلق من جديد .

هذا عالم غير العالم الذي كنت أعيش فيه . الضحك ، والمرح ، وروح الدعابة ، عالم فسيح ليس له حدود ، وقبل أشهر الأجازة ، كانت الدراسة ، والمذاكرة ، والسهر . . عالم آخر ليس له نهاية . كل تلك الأشهر قضيتها بعيداً عن التفكير في أسرتي : أبي ، وأمي ، وإخوتي ، و ..« فاطمة ». أين أنا الآن ؟ وأين هي ؟ لقد كانت تتمثل لي أول الأمر في صحوي ، وفي منامي ، في اختلاطي بالناس ،وفي وحدتي ، كنت أتمثلها في كل خطوة ، وفي كل لمحة ، إنها صورة لا تمل

العين منها ، ولا يرهق التفكير تخيلها . إنها . . فريدة لم أر لها مثيلا إلى الآن .

وأغمض « أحمد » عينيه نصف اغماضة ، وكأنما يستدعي الغائب من أوصافها ،وسماتها ، أو كأنما يحدث نفسه ويلومها على انشغاله عن « فاطمة » ، وبعده عن التفكير فيها طوال هذه المدة .

وهو في الحقيقة . وبالرغم من شعوره بالتقصير ، وإنحاء اللائمة على نفسه ، كان دائم التفكير فيها ، وفي الحالات التي انشغل فيها بالدراسة ،والاستذكار ،كان يفكر فيها في وحدته ، حتى ولقد أصبح التفكير فيها هواية من هواياته ، تشغل عليه فراغه ، ووحدته ، حتى في حالة سيره في الشوارع برفقة زملائه ، واختلاطه بالطلاب في الكلية . كان يمارس التفكير فيها على وجه من الوجوه .

كان يقتنص الفرص ، ويفلت من الحديث مع رفيقه الذي يسير بجانبه ، ويسرح قليلا مع خياله ، دقيقة أودقيقتين في رحلة قصيرة مع الخيال الممتع الجميل ، كأنما كان يحمل في جيبه جناحين من أجنحة التخيل ، يطير بهما بعيداً ..إلى مكة ، ثم ينزعهما عندما يلقى رفيقه سؤالاعارضاً ،أو ينبهه إلى مشهد

من المشاهد التي يمران بها ، فيعود منجذباً إلى الحقيقة ، والواقع الذي يعيش فيه .

وقد اكتشف « أحمد » في نفسه خلال تلك الفترة ملكة جديدة ، أسماها في سره « ملكة المزج ، والتركيب » اكتسبها بالتجربة والمران ، واكتشفها أخيراً بعد أن نمت وأحس بها .

كان يتخيل صورة « فاطمة » أمامه عندما يضع قدمه على باب المنزل ، في خروجه منه ، فما تعرض له فتاة في عرض الطريق ، أو في الكلية ، إلا ويبحث في ملامحها ما عسى أن يشبه من قريب أو بعيد ملامح « فاطمة » ؛ القوام ، ملامح الوجه ، الشعر ، ثم يتعمق إلى أبعد من ذلك ، التفاتة الجيد ، الخفر ، خفة الدم ، كان في عملية متصلة من هذه الموازنات التي لا تنتهي ، وكان سعيداً بهذا الجهد الذي يرهق به نفسه ، وكان يضاعف من سعادته عدم عثوره بعد البحث الطويل على من تشبه « فاطمة » كل الشبه الحسي والمعنوي .

وكان يدفعه ذلك إلى عملية أخرى أشد تعقيداً ؛ عملية « مزج وتركيب » شعر الفتاة التي رأيتها في « شارع فؤاد » ،

وعينا الفتاة التي شاهدتها أمام « سينما كايرو » ،ولون السمراء التي رأيتها في « شارع سليمان » ، إذا مزجت هذه الأوصاف أخرج منها – « فاطمة » جديدة ، أو قوام « مديحة » زميلتي في السنة الأولى ، وخفة دم « سميحة » الطالبة بإعدادي الطب ، يكونان نصف « فاطمة » وهكذا . . .

على أنه كثيراً ما يردد في سره متعجباً :

(يقولون : يخلق من الشبه أربعين ، ولكني لم أجد إلى اليوم ، واحدة من التسع والثلاثين الباقيات . هل خلت مصر على سعتها من واحدة تشبهها ؟) .

وانتبه « أحمد » إلى نفسه وهو يمسك القلم في يده ، وأمامه الورقة بيضاء لم يخط فيها حرفاً واحداً ، و « إبراهيم » يقف أمامه ممسكاً بورقة في يده ، يطلب منه أن يكتب اسم صديق أو صديقين ، من طلبة الكلية يدعوهم في اليوم التالي لتناول الغذاء . فقال « أحمد » ، :

– اكتب « مصطفى لطفي » .

وعندما غادر « إبراهيم » الحجرة ، عاد « أحمد » إلى الورقة التي أمامه وبدأ في تسطير الخطاب .

سيدي الوالد العزيز .

١١

هبط «أحمد» من الأتوبيس في المحطة المقابلة لمستشفى القصر العيني ، وسار على رصيف الشارع إلى أن حاذى الشارع الفرعي المؤدي إلى المنيرة ، فاستدار إليه سائراً فيه على مهل ، وجانحاً إلى جدار المنازل ، يتقى بها هبوب الرياح الباردة ، التي واجهته وهو يتخذ طريقه في هذا الشارع ، ورفع يده يتحسس بها جبهته ، كما عدل من وضع المعطف الذي يرتديه ، ومن ثم أسرع في سيره قليلا .

كان الوقت ليلا ؛ من ليالي ديسمبر الباردة ، وكان الشارع الذي يسير فيه غارقاً في الظلام ، لا يضيئه سوى ذلك البصيص الخافت ، المنبعث من المصابيح ذات اللون الأزرق القاتم الممتدة على طول الشارع ، مما ألجأه إلى أن يتلمس مواضع خطوه في حذر ، ويرسل نظره عبر الظلام الممتد أمامه خشية الاصطدام بأحد المارة .

وكان يحاذيه في الرصيف المقابل سور مدرسة التجارة الذي ثبتت على حافته الأسلاك الشائكة ، وقطع الزجاج

اللامعة والتي بدت كأنها عيون تتلصص على المارين في ذلك الشارع ، وتحمي ساكني المبنى الكبير — جنود الحلفاء — من فضول المارة والعابرين .

هذه هي المرة الأولى التي يقصد فيها « أحمد » منزل صديقه وزميله في الكلية « مصطفى لطفي » منذ أن اتفقا على الاستذكار معا يومين في الأسبوع .ولقد زاره «مصطفى» — قبل ذلك — في منزله مرات عديدة ، كان آخرها يوم أن اتفقا على رسم برنامج للمذاكرة ، وانتهيا فيه إلى تحديد الزمان والمكان : يوم السبت في منزل « أحمد » بالدقي ،ويوم الأربعاء في منزل « مصطفى » بالمنيرة .

وعندما شارف في سيره نهاية الشارع ، أدخل يده في جيب معطفه ، يبحث فيه عن الورقة الصغيرة التي كتب فيها عنوان صديقه ، ثم استعاد يده بعد أن تذكر ؛ لقدحفظ العنوان في ذاكرته ، واستعاد في ذهنه العنوان ، وهويتريث قليلا في سيره ، ومن ثم عدل اتجاهه إلى الشارع المقاطع ، ورفع بصره إلى اللوحات الصغيرة الزرقاء ، المثبتة على أبواب الدور ، إلى أن وقع بصره على الرقم الذي يبحث عنه «٣٢» فدخل العمارة ، ورقى الدرج في تأن ، إلى الطابق الأول ،

وقرأ البطاقة المثبتة على باب الشقة اليمنى ، وضغط الجرس ، وانتظر . .

ولو خير في لحظة الإنتظار ، أي السبيلين يسلك ؟ لفضل العودة إلى داره . فقد أحس وهو في وقفته تلك بأنه سيقتحم عالما جديداً ، وهو يكره كل جديد في حياته ، ولولا أن « مصطفى » قد أصبح في عداد أصدقائه القدماء الذين يأنس إليهم ، ويرتاح إلى مخالطتهم ، لما جاء إلى منزله ساعياً .

كما أحس في تلك اللحظة بثقل الوقت الذي سيقضيه مقيداً مع زميله في الاستذكار :

(هناك في منزلي أشعر بالانطلاق والحرية في كل حركة أقوم بها . أضحك ملء في ، وأصيح بأعلى صوتي ، وأمد قدمي كما أشاء ، وأدخل على « عصام » في حجرته ،وأنادي « إبراهيم » يقص علينا قصة ، أو يقول لنا نكته ، إني أشعر بالاختناق عندما أجلس جلسة الشاهد في المحكمة) .

وتذكر أن والد صديقه قاض بإحدي المحاكم ،فانقبضت أساريره ، وتمنى ألا يكون بالمنزل .

(لا بأس على كل حال ، هذه المرة فقط ، وسوف أتفق

مع « مصطفى » على ترتيب آخر ، إن منزلي أكثر لياقة للمذاكرة ، إنه منزل طلبة ، نصف ساعة في حجرتي ، ونصف ساعة في حجرة الاستقبال ، وإذا مللنا من المذاكرة فجلسة في الشرفة ، أو جولة على الحجرات الأخرى . ليس هناك ما يقيد حريتنا في الحركة والتجول) .

وارتاح لهذه الخاطرة ، واطمأنت نفسه إليها ، فقد قدر لنفسه في هذه الجلسة ، حجرة مربعة ، وباباً مقفلا ، وفنجاناً من القهوة بعد فترة تقصر أو تطول ، ثم . . عطش :

(تسمح يا أخ « مصطفى » كوباً من الماء) .

وبعد ربع ساعة يعاوده العطش ، حتى في هذا الجو البارد :

(تسمح يا أخ « مصطفى » كوباً من الماء) .

وانقبض خاطره لذكر العطش ؛ فقد كان يعاوده كثيراً ، ويحس به قوياً في أمثال هذه المواقف .

وسمع وقع خطوات تقترب من الباب . فاعتدل في وقفته ، وأعد التحية التي يقابل بها صديقه ، وانفتح الباب . ووقف مرتبكاً لا يدري ماذا يقول ؟ .

رأى أمامه فتاة بيضاء اللون ، قدر لها من النظرة الأولى

ستة عشر عاماً ، في سن « فاطمة » . وفي عينيها تلك النظرة الهادئة ، التي تبث الاطمئنان في النفس الحائرة ، وتبعث الراحة في النفس القلقة ، نظرات « فاطمة » التي لا ينكرها .

وتذكر « فاطمة » . .

(أين هي الآن ؟ وأين أنا ؟) .

(إنها الآن وراء نافذتها المغلقة، تنتظر والدها . وتنتظر الأمل . الأمل البعيد . . ذلك البلسم المسكن . أو الوهم الكبير الذي نعيش فيه ، ونرى فيه – على بعد – المنار الذي يرشدنا إلى مرفأ النجاة ، وأين المرفأ ؟ إنه بعيد ! بعيد جداً . . سنوات وسنوات ، أنصل بعدها سالمين أم يجرفنا الموج ؟ ، ونبقى مع مرور الأيام سراً في ضمير المحيط المتلاطم . مسكينة « فاطمة » ، وأنا مسكين . إننا نعيش منذ الطفولة في هذا الوهم الكبير ،ولم نر إلى الآن مرفأ النجاة ، ولم نر المنار . ولكن اليوم فقط أرى صورتها الثانية ،وسأعيش منذ اليوم على ذكراها الحية ، النابضة بالأمل المشرق).

وفي صوت رقيق عذب كنظراتها المغردة ، سألته :

– نعم . .

وشعر كأن قوة تجذبه من الخلف .

(لقد أخطأت الطريق) .

وتلعثم في الجواب . لقد نسى اسم صديقه . واستعرض في لمحة خاطفة كل الأسماء : «محمد»، «أحمد»، «محمود»، « إبراهيم » . ونطق بالإسم . وقد جف حلقه :

ــ الأخ « مصطفى لطفي » .

وأومأت إليه بإشارة من رأسها ، وانفلتت إلى داخل المسكن تنادي : « مصطفى » .

وعاد « أحمد » إلى نفسه . بعد أن ألقى نظرة متفحصة على هندامه ، وتمنى أن لو ارتدى حلته الجديدة .

(هذا ما خشيته في هذه المواقف ، أفقد توازني وارتبك ، سامح الله « إبراهيم » لو لقنني طرفاً من تعليماته لما ارتبكت الآن ، ولكنت أشد قوة وصلابة على مواجهة المفاجآت ، وأشد ما يؤلمني أن أمثال هذه المفاجآت تقع على دون مقدمات ودون استعداد مني لمواجهتها .

لقد رسمت لنفسي مواجهة « مصطفى » وإذا بي أمام مفاجأة ضخمة . ولكنها جميلة ورقيقة . .

إن فيها شيئاً كثيراً من « فاطمة » . لقد أدركت ذلك من النظرة الأولى .)

وجاء « مصطفى » تتقدمه عبارات الترحيب ، وعلى وجهه سمات البشر والإيناس ، وشد على يد « أحمد » بقوة انتزعته من الدوامة التي غرق فيها . وتقدمه إلى حجرة الاستقبال ، وهو ما زال يكرر ويعيد في كلمات الترحيب ، فلم يستطيع « أحمد » ملاحقته بالرد ، وعندما دخل حجرة الاستقبال ألقى بجسمه على أول مقعد ، وتنفس بعمق بعد أن أحس بالتعب . وبعد برهة ألقى نظرة فاحصة على الحجرة التي يجلس فيها .

كل ما فيها يدل على سعة حال أهل المنزل . كما يشير إلى الذوق الرفيع ، الألوان المتناسقة في المقاعد ، والسجادة المفروشة على أرض الحجرة ، والستائر المسدلة على النوافذ ، والأبواب ، والصور المثبتة بعناية على الجدار بإطاراتها المذهبة ، والزهرية الجميلة وقد نسقت بها بعض الزهور . ليس في الحجرة من الألوان الصارخة ما يصدم الذوق الهادىء . .

وأعاد النظر إلى هندامه ، وكأنه يوازن بين ذوقه وذوق أهل المنزل . وتذكر « إبراهيم » حينما ابتاع بعض اللوحات ، ودخل بها المنزل في صخب وضجيج ، وكأنه في مظاهرة .

كما تذكر النقاش الذي دار بينهم حينما بدءوا يعلقون تلك الصـــور .

(أين هذه من تلك؟ ذاك ذوق أهوج ، وهذا ذوق هادىء رفيع . إن وراء هذا النفس الذواقة الفنانة ، التي تحس بالجمال ، وتدرك معانيه ، هل للجمال حدود معينة ندركها لأول مرة ؟ أو هو إحساس ينمو مع التدرب والمراس والتربية ؟).

وازدرد ريقه حينما أستأذنه « مصطفى » خارجاً من الحجرة ، ووجدها فرصة يسبح فيها مع أفكاره التي انثالت عليه في جلسته هذه . .

وعاد « مصطفى » إلى الحجرة مرتدياً كامل ملابسه ، وقد ازدادت ابتسامته اتساعاً ، وطفح البشر من وجهه ، وبعد أن اتخذ مجلسه على المقعد المقابل ، ووضع الكتب التي يحملها أمامه في أناة ، التفت إلى « أحمد » يكرر الترحيب به ، فتحرك « أحمد » في مقعده ، وكأنه يستعد مرة أخرى لإعداد الردود المناسبة ، ولكن أفكاره كانت مشتتة ، فلم يسعفه خاطره بالرد ، واكتفى بأن طبع على ثغره ابتسامة تؤدي معنى الشكر لهذا الترحيب ، وقال بعد لأي :

– ألا نبدأ في المذاكرة ؟ .

فرد عليه « مصطفى » في ابتسامة رجاء :

– القهوة أولا .

ودخلت الخادمة تحمل صينية أنيقة ، بها ثلاثة أقداح من القهوة ، وكأس من الماء .

وأحس بالعطش حينما وقع نظره على الماء ، ولكن قدح القهوة الثالث لفت نظره ، واسترعى اهتمامه ، وود أن لو يكتشف الشخص الثالث الذي سيشاركهما هذا المجلس ، وتمنى في سره أن لو تكون هي . . ليعاود النظر إلى عينيها ، ويقارن على مهل . . بينها وبين « فاطمة » . .

ولكنه سارع إلى ابعاد الفكرة ، وأزحها بقوة عن خاطره قبل أن تلح عليه ، ولاذ بالصمت وهو يضع القهوة ، ثم تناول كأس الماء في هدوء ، ويبدأ في ارتشافه على مهل ، ويرفع نظره عبر الكأس الشفاف إلى جدران الحجرة مرة أخرى ، يبحث فيها عن صورتها بين الصور المعلقة ، وينتزعه من بحثه الهاديء المستتر صوت خطوات تقترب من الحجرة ، وقام « مصطفى » واقفا في مكانه . ويدخل والد « مصطفى »

مرحبا بـ « أحمد » ، فيضع كأس الماء الفارغ على الصينية في عجلة ، ويقف مسلما على الرجل .

ورفع « أحمد » بصره إلى والد « مصطفى » فوجده صورة مكبرة من ابنه ، صورة تعرضت للمسات الحوادث والتجارب ، فبدت خطوطها وظلالها أكثر وضوحا للناظر إليها ، وذكر الزمن الذي يمسك بيده ريشة الرسام ، يلمس بها صورنا لمسات خفيفة متتالية ، لمسات لا نشعر بها ، لرقتها ولينها ، ومع توالي الأيام يظهر أثرها خطوطاً تحت العينين ، وتجاعيد على الخدين ، وضعفا في السمع ، ومنظارا أنيقاً مذهبا يستبدل على فترات متتالية بآخر ، أكثر سمكا ، وأقل أناقة ، ثم عصا تعيننا على السير .

وأعاد النظر إلى الرجل فوجده متماسك البنية ، وقد وضع على عينيه منظاراً مذهباً ، فهتف في سره :

(إن الرجل في أول الطريق) .

وقدمه « مصطفى » إلى والده قائلا :

ـ السيد « أحمد عبد الرحمن » . زميلي في الكلية ، ومن أعز أصدقائي الذين تعرفت بهم ، وقد حدثتكم عنه كثيراً

فهز الوالد رأسه موئمناً على كلام ابنه ، ومرسلا نظره إلى « أحمد » وكأنه يتفحصه ، ويكشف غوره ، كما ينظر إلى المتقاضين أمامه في المحكمة ، وقال في تؤدة القاضي عندما يصدر حكمه :

– أهلا وسهلا ، سيماهم في وجوههم ، ابن ناس أكرمين ، جيران بيت الله .

وانكمش « أحمد » في جلسته ، وهو يتمتم بعبارات الشكر ، بينما ارتفعت يداه إلى رباط عنقه يصلحه ، ويعدل ما عسى أن يكون لحقه من عوج ، وكأنه يثبت بذلك أنه ابن ناس أكرمين .

واستمر والد « مصطفى » في حديثه قائلا :

– إني فخور بصداقتك لـ « مصطفى » ، إن الطيور على أشباهها تقع .

وتأنى لحظة قبل أن يستأنف حديثه قائلا :

– إن ابني «مصطفى» مثال الشباب الهاديء، لقد نشأ على التمسك بأهداب الدين ، والتحلي بالأخلاق الفاضلة ، وإن حسن اختياره لأصدقائه يثبت صدق ما أقول .

وردد « أحمد » في نفسه :

(نعم ولكني أعرف عنه أكثر مما تعرف) .

وقال بعد أن أجهد نفسه بالرد على والد « مصطفى » رداً مؤدباً :

ـ الابن سر أبيه .

(إنه يحدثني بالأمثال العربية ، وأنا أحفظ الكثير منها ، إني قريب عهد بالأمثال والشعر ، ما أسهل الخوض في هذا المضمار !) .

وأجهد نفسه مرة أخرى ليذكر مثلا عربياً متمشياً مع الموضوع ، فقال بعد لحظة تفكير :

ـ هذا الشبل من ذاك الأسد .

وتوقف .

وقام الأب من مكانه مستأذناً ، فهب الاثنان على أثر ذلك ، ومد يده إلى « أحمد » مودعا قائلا له :

ـ إن « مصطفى » أخوك ، وهذا منزلك ، ونحن أهلك وسنراك كثيراً إن شاء الله .

فشكره « أحمد » بحرارة على شعوره الأبوي ، وعندما استدار الأب من مكانه تنفس « أحمد » من أعماقه ، وكأنما أزاح عن كاهله حملا ثقيلا ناء بحمله .

وبدأ في الاستذكار بعد أن وضع كل منهما كراسه أمامه وبجانبهما بعض الكتب الضخمة ، وكان الهدوء الذي يخيم على المسكن معيناً لهما على الاستمرار في المذاكرة ، فلم تكن هناك أصوات ، أو صياح ، أو ضجيج ، غير وقع خطوات هينة لينة في صالة المنزل ، وأصوات هامسة تصلهما من بعيد، وأحس « أحمد » بالارتياح إلى هذا الهدوء الذي يفتقده في منزله . ولم يكن قد مضى وقت كبير على بدئهما في المذاكرة حين قال « مصطفى » :

– إن لي حجرة خاصة بالمذاكرة ، ألا ننتقل إليها ؟ .

ولم يمانع « أحمد » ؛ ففي ذلك تغيير للجو ، هذا هو الإنتقال الذي يوده ، ويرغب فيه ، والذي يميل إليه في ساعات الاستذكار .

وسارا في اتجاه الحجرة الأخرى ؛ وفي مرورهما بالصالة لمحها « أحمد » واقفة أمامه فارتبك ، ولكنه استطاع بعد لحظه أن يوجه نظره إلى عينيها ، وعاوده التفكير :

(إنها الصورة الثانية لـ « فاطمة » ما أعظم الشبه بينهما !! وما أعجب المصادفة !! لقد بحثت عنها في كل مكان ، ولم أعثر عليها حتى كدت أيأس ، وهذا هو العام الثاني منذ أن

تعرفت بـ « مصطفى » ولكني لم أزره في منزله إلا اليوم . وها هي ذي « فاطمة » قريبة مني بعينيها السخيتين ، المعبرتين ، ونظراتها الحيية الهادئة ، حتى قوامها النحيل ، وخصرها الدقيق ، وشعرها المسترسل ، إنها « فاطمة » الثانية ، ما أسعدني بعد طول انتظار !!!) .

واجتاز باب الحجرة بعد أن ترك قلبه في الصالة . وجلس على المقعد المواجه « مصطفى » يفصل بينهما مكتب خشبي أنيق ، وضعت على جانب منه زهرية خزفية صغيرة ، نسقت بها بضع زهرات وورود ، كما رص على الجانب الآخر بعض الكتب والكراسات ، صف بعضها على بعض في ترتيب منسق .

وكانت الحجرة بمظهرها البسيط تدل على أنها خصصت للمطالعة ؛ فقد وضع في جانب منها خزانتان للكتب بواجهة زجاجية ، وفي الجانب الآخر خزانة خشبية ، ذات أرفف ، وتحوي بعض الكتب المجلدة .

وكان بالحجرة مقعدان مكسوان بالجلد . وضع كل مقعد في ركن قصى من أركان الحجرة ، وتوسط الأرضية بساط نظيف ، أما الجدران فقد ثبت عليها بعض الصور

الزيتية والمائية ، يبدو منها أنها من رسم هاو من هواة الرسم ، فهذه صورة تمثل النيل وبه بعض المراكب الشراعية ، وتلك أخرى تمثل مناظر الريف المصري ، وثالثة تمثل الأهرام والمنطقة الصحراوية المحيطة بها ، إلى غير ذلك من المناظر الطبيعية التي لا يستعصى رسمها على رسام مبتديء .

وأعاد النظر إلى الكراس المفتوح أمامه على المكتب بعد أن ألم بنظرته العابرة المتفحصة بجميع محتويات الحجرة ، ونظامها البسيط ، وعلى ثغره ابتسامة ارتياح للجو الذي يجلس فيه ، وتمنى في جلسته أن لو يستطيع تنظيم حجرته على نسق جديد ، ويزينها بالرسوم الفنية ، وبعض المناظر الطبيعية التي تمثل البيئة المصرية الهادئة .

وتذكر هوايته للرسم ، ومحاولاته المتكررة منذ طفولته في اشباع تلك الهواية ،إلى أن تركها مرغماً بعد يأسه من التقدم في هذا المضمار ، وبعد أن عانى الأمرين من أمه في سبيل هوايته ، فقد كانت تمزق له كل ما يرسم ، مما ألجأه آخر الأمر إلى الرسم بالفحم على جدران الدرج ، ودهليز المنزل ، إلى أن استرعى ذلك انتباه والده وملاحظته ، ومنعه عن ذلك فامتنع ، وهجر بذلك هوايته المحببة ، وكبت

الرغبة في ممارستها وتقلصت الرغبة منذ ذلك الحين . . وإن كان الحنين يعاوده إليها ، فيستجيب بالرسم على صفحة كراس ، أو غلاف كتاب من كتبه المدرسية .

واستأنف المذاكرة مع زميله برغبة تقل عن الرغبة التي بدأ بها ، وتفرغ يتخلله الالتفات المتكرر إلى جدران الحجرة ، والنظر إلى أثاثها ، كأنما كان يبحث عن شيء افتقده ، وكان في الحقيقة يبحث عن نفسه التائهة في غمار التفـــكير .

ولم تكن تلك الحركات إلا محاولات لتركيز ذهنه فيما بين يديه . ولم يكن ليغيب ذلك عن زميله « مصطفى » فقد أدركه لأول وهلة إدراكاً ضعيفاً . ما لبث أن أكده ، وارتفع به إلى مرتبة اليقين ما بدا من نظرات « أحمد » التائهة ، النظرات غير المستقرة ، وغير المركزة على شيء معين .

وأحس هو من ناحيته ما أدركه زميله ، فحاول أن يلملم ما تبعثر من أفكاره ، وأن يعيد تركيز ذهنه في الموضوع الذي يقرآنه . ومرر يمناه على جبهته في حركة توشي بالضيق والضجر ، وتشير من طرف خفي إلى محاولته اليائسة نحو تجميع إرادته ، وتوجيهها إلى ما يريد .

وأشار « مصطفى » إلى الصور المعلقة قائلا :

ما رأيك في هذه الرسوم ؟ .

وكأنما أدرك مغبة عمله ، فشعر بالخجل ، إذ أحس أن زميله قد وضع يده على نقطة حساسة من أفكاره التي انثالت عليه . وقال بعد لأي . وبعد أن أعاد النظر إلى تلك الصور ، وكأنه يرمي بذلك إلى تكذيب ما عسى أن يكون قد تبادر إلى ذهن « مصطفى » :

— هذه الرسوم ؟ إني لم أحقق النظر فيها ، ولكن النظرة الأولى تؤكد جمالها .

فقال له « مصطفى » :

— إنها من رسم أختي « فايزة » . إنها تهوى الرسم ، والموسيقى ، وقد حذقت من فنونهما قدراً ملائماً بالرغم من صغر سنها .

(إذن فاسمها « فايزة »، اسم جميل، على وزن «فاطمة»، وهذا تشابه آخر بين الأثنين) .

وقال في صوت هامس انبعث من أعماقه :

— إن الفتيات أعظم استعداداً منا للفنون الجميلة .

وذكر — في لحظته — حسن انتقاء « فاطمة » لألوان ثيابها ، وذوقها البديع في اختيار أنواعها ، وبراعتها في التفصيل :

(هذا جانب مهم من جوانب الفنـــون الجميلة، تمارسه « فاطمة » في بيئتها ، ولو نشأت هنا في هذه البيئة لكانت شيئاً آخر ، على أني فخور بها في كل الأحوال).

وقال مستأنفاً حديثه :

ـ إن لي أخوات وابنة عم ، لمست فيهن ميلهن إلى الفنون الجميلة ، على قدر فهمهن لها في حدود بيئتنا ، ونطاقها الضيق ، وعلى قدر ما تسمح به الظروف المواتية .

وسأله « مصطفى » :

ـ وما درجة تعليمهن ؟ .

وأدرك « أحمد » ما تورط فيه من حديث فقال :

ـ إنها كتاتيب ، وفي البيت نكمل لهن النقص .

فقال « مصطفى » في لهجة تأكيدية :

ـ ولكن ذلك لا يفي بالغرض ، إن المرأة نصفنا الآخر ، نصفنا الذي يبني داخل البيت ، نصفنا الذي يضع الأساس ، ثم نأتي نحن ونكمل البناء .

« ثم في لهجة أشد توكيداً » :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وصمت « أحمد » لا يدري ماذا يقول ؟ ، إنه هو الآخر يؤمن بذلك . .

(طـــلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء ، عائشة أم المؤمنين ،سكينة بنت الحسين ، عائشة بنت طلحة ، وتلك الصفحات المشرقة من جهاد المرأة المسلمة ، وإلمامها بتعاليم الشريعة ، وتفقهها في الدين ، ومشاركتها المشاركة الفعالة في بناء التاريخ الإسلامي .

لقد نشأنا نحن على الإيمان بالخرافات : هول الليل ، والدجيرة ، والخوف من الظلام ، تلك الأوهام التي تسلطت علينا من البيت الذي يسبح في بحر من الجهالة العمياء) .

وسمع وقع خطوات تقترب من الحجرة انتزعته من أفكاره ، فاستدار بنظره إلى الباب ، وإذا بـ « فايزة » مقبلة على الحجرة ، وعلى ثغرها ابتسامة عذبة ، واجتازت باب الحجرة بعد أن نقرت عليه نقرات خفيفة ، ودخلت في أعقابها الخادم ، تحمل بين يدها صينية رصت بها أطباق ملأى بالكعك ، والفواكه . وبعد أن أشارت لها بوضعها على المائدة الصغيرة التي تتوسط الحجرة ، أمرتهـــا بالانصراف ، بينما انصرفت هي إلى تنسيق الأطباق على

المائدة ، وحملت الصينية الفارغة بعيداً ، ووقفت تنتظر ، وحانت منها التفاتة إلى أخيها الذي يجلس غير بعيد عنها ، فرأت في عينيه ما يشير إلى الرضا عن مجهودها الذي بذلته .

وكأنما كان « أحمد » في انتظار هذه الفرصة ، فأدار نظره إليها في الوقت ذاته ، لعله يجد فيها وجهاً آخر من أوجه الشبه التي تربطها بـ « فاطمة » .

وقال « مصطفى » موجهاً الحديث إلى « أحمد » ، ومشيراً بيمناه إلى « فايزة » :

– أختي « فايزة » . إنك لم ترها قبل اليوم . وهي التي رسمت بريشتها هذه المناظر التي أعجبت بها .

وإزدرد « أحمد » ريقه بعد أن أحس بالجفاف في حلقه وظهرت على وجهه علامات الحيرة ، والارتباك ، ودق قلبه دقات متتالية ، أحس بها قوية عنيفة ، واحتار لحظة في اختيار الرد المناسب لهذا التعريف المفاجيء ، وقال بعد أن ركز نظره على « فايزة » :

– إنها بداية حسنة تبشر بالنبوغ ، ولا أظن أن هوايتها للرسم قد صرفتها عن دراستها في المدرسة .

فابتسم « مصطفى » ، وهو ينظر إلى أخته قائلا :

– كلا . إنها متقدمة في دراستها ، وبالرغم من أنها تدرس بمدرسة « الليسية » ، إلا أنها جيدة في اللغة العربية ، وتقرأ كثيراً ل « طه حسين » و « المازني » و « توفيق الحكيم »

وأحس « أحمد » بالفرصة المتاحة له بأن يشركهـا في الحديث . فقال موجهاً إليها الحديث :

– ومن الذي يعجبك من هؤلاء الأدباء ؟ .

واكتسى وجهها بحمرة الخجل ، قبل أن تجيب على تساؤل « أحمد » بينما تدخل « مصطفى » في الحديث قائلا لهـا :

– إن الأخ « أحمد » أديب ، وهوايته القراءة بالرغم من اتجاهه إلى الطب ؟ .

فقالت على استحياء وفي صوت خفيض :

– إن الصيف هو فرصتي الوحيدة للتفرغ للقراءة . أما بقية شهور السنة فمطالعات خاطفة من هنا وهناك .

ورد عليها أخوها بقوله :

– إنك لم تجيبي على سؤال « أحمد » .

فقالت بعد أن أشارت للخادم التي أقبلت حينذاك بوضع ما تحمله على المائدة الصغيرة :

– إني لم أصل بعد للدرجة التي تتيح لي المفاضلة بين كاتب وكاتب ، وإن كان يعجبني الأدب الخالص في كتابة «طه حسين » ، أما الفن الروائي ففي مؤلفات « توفيق الحكيم »

وسألها « أحمد » ، وقد بدا أكثر تحمساً للحديث بعد أن زال ارتباكه :

– وماذا قرأت لـ « توفيق الحكيم » ؟ .

فقالت متشجعة :

– عودة الروح ، وعصفور من الشرق ، ورصاصة في القلب .

وسألها ثانية وعلى فمه ابتسامة :

– والشعر ؟

فقالت بعد أن نظرت إلى أخيها مبتسمة ، وكأنها تهرب من نظرات « أحمد » :

– إني لم أقرأ لشاعر غير « شوقي » .

فضحك قائلا :

– فيه الكفاية ، إنه يمثل القمة في الشعر العربي .

وصمت « أحمد » قليلا وكأنه يفكر في سؤال آخر ، بينما انصرفت هي إلى تنظيم المائدة الصغيرة ، وما لبثت ، بعد قليل أن استأذنت منهما في الخروج ، وبارحت الحجرة بخطواتها الرقيقة ، « وأحمد » يتابعها بإحساسه ، ويختلس النظر إليها ، وقد انفتحت أمامه أبواب كثيرة لكي يتابع التفكير في هذه المخلوقة الصغيرة ، التي تهوى الأدب ، والموسيقى ، والرسم . أعمدة الفنون الجميلة ، وخلاصة الذوق الإنساني المترف .

(إنها تمثل الجيل الصاعد، بكل ما فيه من رغبة في المعرفة، وسعي إلى الإستزاده من عصارة الفكر الإنساني ، في شتى مجالاته الواسعة ، الفنون الجميلة ! إنها القمة في تلك المعارف، ومنتهى ما يصبو إليه كل ذي إحساس مرهف ، وذوق رفيع) .

وجلسا إلى المائدة الصغيرة : « مصطفى » و « أحمد » وقد لفهما الصمت . وبعد أن انتهيا نظر « أحمد » إلى ساعته وقال مبتسما :

— لقد ضاعت الليلة ، انتقال من حجرة إلى أخرى . ثم حديث في الأدب ، والفنون الجميلة ، ثم . . أكل .

فرد عليه « مصطفى » :

ـ هذه الزيارة الأولى ، لا تنس ذلك ، لقد سبق أن أكلت عندك كثيراً .

فقال « أحمد » :

ـ إننا لم نتفق على ذلك ، لقد جئت للمذاكرة لا للأكـــل .

وابتسم « مصطفى » وهو يقول في لهجة عتاب :

ـ وماذا أكلت ؟ إن لك رصيداً ضخماً ، سوف أسدده على مر الأيام .

ورد « أحمد » قائلا :

ـ ليس بيننا حساب ، هذا منزلي ، وذاك منزلك ، أليس كذلك ؟ .

فضحك « مصطفى » مؤكداً قول زميله .

وحين استأذن « أحمد » في الخروج كانت « فايزة » تعاون الخادم على حمل الأطباق الصغيرة ،وشكرها « أحمد » بعبارة رقيقة ، فأومأت إليه بإشارة من رأسها الصغير ، وقد أزدان ثغرها الدقيق بابتسامة مشرقة .

وغادر منزل صديقة وهو يحس بالبهجة والإرتياح .

وعندما وصل إلى منزله ، وتهيأ للنوم ، تذكر أن في خزانة كتبه بعض الكتب الأدبية ، فاتجه إليها باحثاً عن كتاب يقرأه ، ووقع نظره عى « عودة الروح » فأخرجه ، وعاد إلى فراشه ، وبدأ في القراءة .

١٢

ومرت الأيام سريعة : الشهر تلـــو الشهر ، والليل في أعقاب النهار ،وكان « أحمد » خلالها يشعر بالسعادة الطاغية ، والبهجة المتجددة المتزايدة ، وكأنهيستروح نسيم الراحة في واحة ظليلة قادته إليها قدماه بعد تيهه في صحراء قاحلة مدة عام طويل ، بشهوره وأيامه ولياليه ، انسابت لحظاته السعيدة برفق ولين ، كما ينساب الجدول السلسال بين الحقول والمزارع ، يزود ما حوله بزاد الحياة ، ويبث فيه روح النماء والازدهار .

هكذا كانت تلك الأيام بالنسبة لـ « أحمد » ، بهجـة متجددة ، وفرحة دائمة ، وتطلع في كل دقيقة إلى الدقيقة التي تليها ، وفي كل يوم إلى اليوم الذي يعقبه . لا يرى النهار إلا من جانبه المشرق المضيء ، ولا الليل إلا من ناحية هدوئه وصمته ، ونجومه المتلألئة ، وكواكبه المضيئة .

والدنيا . . هذه الدنيا العريضه الحافلة بالمتضادات من خير وشر ، وحسن وقبح ، لم تكن في إحساسه سوى

حديقة غناء ، تفيض عليه من عبق رائحتها ، وجمال ألوانها ، ما يزود قلبه بطاقة من القوة ، تزيد من حيويته وتدفعه دفعاً لاستقبال الحياة بالابتسام والتفاؤل .

وكان حفياً بيوم الأربعاء من كل أسبوع ، ذلك اليوم الذي يمثل في نظره مركز الثقل من بين أيام الأسبوع ، فلا يرتبط فيه بأي موعد جديد ، ولا يفكر قبل حلوله إلا فيه ، وفي الحديث الذي سيفتتح به الكلام ، ويجعله مركزاً للمناقشة المقبلة .

تلك المناقشة التي كانت تدور دائماً بين « مصطفى » « وفايزة » وبينه ، وكانت تدور — حتما في الأدب ، والشعر ، والموسيقى — مما ألجأه إلى الإهتمام بتتبع المذاهب الأدبية الحديثة ، والشعر المعاصر ، والإهتمام بالموسيقى كفن له أصوله ، وله عصوره .

وقد أصبح ل « أحمد » على مر الأيام — منذ عرف « فايزة » — مكتبة غنية بدواوين الشعر ، والدراسات الأدبية ، والبحوث النفسانية ، التي كانت تمثل شطراً مهماً في اتجاه أحاديثه ومناقشاته .

وبقدر ما كان معجباً من أول الأمر باطلاع « فايزة » وثقافتها العامة ، فقد لاحظ في الأيام الأخيرة تزايد اهتمامها بالإطلاع ، وهي التي قالت له ذات يوم :

« أن الصيف فرصتها الوحيدة في الإطلاع والقراءة » .

وقد أشعره ذلك الاتجاه بالزهو في نفسه ، إذ أحس أن مدار أحاديثهم ، وموضوعات نقاشهم ، هو الذي دفعها ، وضاعف من اهتمامها بالقراءة ، كان يشعر بفخر الأستاذ عندما يثير في تلامذته روح المناقشة الحرة ، ومقارعة الرأي بالرأي ، والحجة بالحجة .

وقد أحس هو في نفسه — إلى جانب اهتمامه بقراءة الأدب ، والشعر ، والاستماع إلى الموسيقى ، ومحاولة تذوقها ، وفهمها — بأنه بدأ يعني بزيه ، ويدقق في اختيار ألوان ملابسه ، وأنواع ربطات عنقه ، كل ذلك أحس به إحساساً هادئاً وبطيئاً لم يشعر معه بالطفرة ، أو الإنتقال المفاجيء ، أو التطور السريع .

وأشد ما كان يبهجه اعتقاده بأن « فايزة » ما هي إلا « فاطمة » أخرى ، أو هي الصورة الثانية لـ « فاطمة » . تلك

المخلوقة الصغيرة ، ساكنة مكة ، وراء نافذتها المغلقة ، فإن اهتم بمظهره أمامها ، أو تأنق في بزته ، فإنما كان يتأنق للفكرة التي تعيش في كيانه ، وتتراءى له في كل الأوقات ، خيالا رقيقاً لطفلة ناعمة ، تنظر إلى الأفق ، وتنتظر الأمل .

وفي مطلع الصيف – وبعد أن عاش أحفل فترة في حياته ، وأبهج عام في أعوامه – قام برحلة استجمامية إلى الإسكندرية برفقة زملائه الثلاثة « عصام » و « حسين » و « إبرهيم » ، قضوا فيها أسبوعين ، تنقلوا خلالهما بين شواطيء البحر ، ثم عادوا إلى القاهرة ، وتهيأ « إبراهيم » و « عصام » للسفر إلى مكة ، لقضاء جانب من الإجازة الصيفية بين ذويهما بعد مرور عامين من قدومهم إلى مصر .

أما « أحمد » و « حسين » فكان عليهما استئناف التمرين ، خلال أشهر الصيف ، بمستشفى « قصر العيني » بعد الإجازة القصيرة التي قضياها بعيداً عن الكلية .

وفي ضحى اليوم الثالث لعودتهم من الإسكندرية – وكان قد مضى على انقطاع « أحمد » عن زيارة منزل صديقه « مصطفى » ما يقرب من عشرين يوماً – كان يسير مع « عصام » في « شارع عدلي » ، وانتهى بهما المطاف إلى

مكتبة من المكتبات الكبيرة ، حيث وقفا يستعرضان الكتب المعروضة فيها ،من وراء الواجهة الزجاجية ، وطالت وقفتهما قليلا ، أو هذا ما شعر به « عصام » ، إذ جذب « أحمد » من يده مشيراً له بالسير ، ولكن « أحمد » استأذن منه في شراء كتاب من داخل المكتبة ، واجتاز الباب ميمما شطر البائع الواقف وراء الحاجز الخشبي ، وقبل أن يصل إليه أحس بيد تجذبه برفق من الخلف ، فاستدار ، وإذا به أمام « مصطفى » و « فايزة » .

وافتر ثغره عن ابتسامة عريضة ، تعبر عن الفرحة التي اجتاحته فجأة ، وشعر بالانتفاضة القوية ، التي يحس بها تهز أعماقه كلما نظر إلى عيني « فايزة » ، العينين السخيتين بالأحاديث الصامتة ، كما أحس وهو في وقفته بدقات قلبه العنيفة المتتالية مما ذكره باليوم الأول عندما رآها لأول مرة ، تقف أمامه على باب مسكنها ، متسائلة في صوت ناعم مغرد : « نعم » .

كانت « فايزة » ترتدي ثوباً قطنياً رمادي اللون ، مقفل الصدر ، ذا أكمام قصيرة ، وقد جمعت شعرها المسترسل في ذؤابة واحدة . ومضت لحظة لو سلكت في عداد الزمن

لكانت لحظة عابرة ؛ من تلك اللحظات الجامدة التي لا تمثل في أذهاننا سوى الجسر الزمني الذي نجتازه في خطواتنا نحو المستقبل ، ولكنها كانت في اعتبار « أحمد » وإحساسه وواقعه ، لحظة انفعال مشحونة بالحركة الوجدانية ،والأخيلة الذهنية التي عبرت أمامه في شريط مليء بالحوادث ، والحركة المتطورة .

منذ عام أو أقل عندما رأى « فايزة » على باب مسكنها ، دون أن يعرف اسمها ، ومنذ اكتشاف الشبه الكبير بين سماتها وسمات ابنة عمه « فاطمة » على اختلاف قليل في اللون ، ثم التعرف على اسمها الذي زاد من ربطها في ذهنه بـ « فاطمة » ثم إعجابه بهوايتها للفنون الجميلة ، قمة ما يصبو إليه الذهن المترف ، ثم صفاء قريحتها في النقاش والاستدلال في محاجاتها لأخيها ولـ « أحمد » بالحجج القوية ، ثم أسلوبها المشرق في الحديث ، ذلك الإشراق الذي يدل على مبلغ تأثرها بما تقرأ،ثم ما لاحظه من اهتمامها بالقراءةوالإطلاع ، منذ أن بدأت أحاديثهم تأخذ طابع الإنفعال والتحمس الهادئين؛

ذكر كل ذلك ، وذكر إلى جانب ذلك ما انتابه من شعور بالقلق ، خلال الأسبوعين اللذين قضاهما بالإسكندرية ،

قلق لم يحدد مصدره ، ولم يعرف أسبابه ، سوى اشتياقه إلى القاهرة وإلى حجرته في المسكن الذي يقطنه بالدقي ، تلك الحجرة التي كانت تمثل في نظره عالماً رحيباً ، مليئاً بالصور الحية التي يعيش فيها .

ولم يكن « حي المنيرة » قد خطر له في ذهنه كسبب من أسباب ذلك القلق ، وقد عاد إلى حجرته ، وبات فيها ليلته الأولى ، بعد عودته من الإسكندرية ، كما أوي إليها ليلته الثانية ، فلم يحس بتلاشي قلقه وزواله ، بل شعر — على عكس ما كان ينتظر — بزيادة قلقه ، واضطراب تفكيره .

وفي هذه اللحظة وهو يواجه « مصطفى » و « فايزة » في داخل المكتبة ، يحس لأول مرة منذ غيابه عن القاهرة ، بأنه قد عاد إليها ، إلى القاهرة التي عاشت في عقله الباطن ، والتي أحبها من أعماقه ، فقد شعر باستسلام أعصابه كما يستسلم عادة للوسادة اللينة والفراش الوثير ، عقب نهار مضن ، قضاه في العمل الشاق الطويل .

وبادره « مصطفى » بالسلام الحار ، والعناق الطويل ، معبراً عن شوقه إليه بجمل متتالية ، لم يتبين أكثرها ، ووقفت

« فايزة » غير بعيد عنهما ، وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامتها المشرقة ، التي ازدان بها وجهها الجميل ، كما بدا على محياها وشى سعادة طاغية ، أحس بها « أحمد » في حركات عينيها المعبرتين .

وبعد أن جذب يده برفق من يد « مصطفى » ، وتخلص من عناقه الطويل ، تقدم إلى « فايزة » ماداً إليها يمناه ، في انفعال حاول ستره بهدوء مصطنع ، وعندما أحس بيدها على يده ، سرت رعدة خفيفة في جسده ، ولم يستطع أن ينظر إلى عينيها وهي قريبة منه ، فغض من بصره ، بينما تورد وجه « فايزة » بالدم المتصاعد ، وانسحب قليلا إلى الوراء ، تاركاً لـ « مصطفى » فرجة مكان يقف فيها بينه وبين « فايزة » .

وقال « مصطفى » بعد فترة صمت ، استعاد فيها كل منهم هدوءه :

— لقد تبعناك من شارع عماد الدين ، ولم أكن متأكداً إنك أنت . فقد كنت بعيداً عنا ، ولكن « فايزة » عرفتك ، إنها فرصة طيبة ، متى عدتم من الإسكندرية ؟ لقد مضت عشرون يوماً لم نرك فيها .

وقالت « فايزة » تصحح خطأ شقيقها :

– تسعة عشر يوماً فقط .

فضحك « مصطفى » قائلا :

– حتى هنا المعارضة ! ! لقد أخطأت في يوم واحد .

وابتسم « أحمد » وردد في سره :

(نعم إنها تسعة عشرة يوماً فقط) .

وقال وهو يشير إلى باب المكتبة :

– ألا نخرج ؟ لقد عطلنا المرور ..

وقفلوا عائدين . وسأله « مصطفى » وهم يجتازون باب المكتبة :

– هل عدلت عن شراء الكتاب الذي جئت من أجله ، وحاول دون جدوى أن يتذكر الكتاب الذي لفت نظره ، فقال بعد أن أعياه التذكر :

– سوف أعود لشرائه مرة أخرى .

ثم مشيراً إلى واجهة المكتبة .

– إن جمال العرض يغري بالشراء .

فردت عليه « فايزة » :

– إنه يغري بشراء الجيد فقط .

(ولكن ما أندر هذا الجيد الذي نبحث عنه ، ربما نذهب بعيداً في البحث عنه في أقصى الأرض وهو قريب منا ، وتحت أعيننا ، لقد بحثت عنه في كل مكان عاماً كاملا طويلا فلم أجده ، وإذا بي في لحظة أقف أمامه ، وأحس بجودته من النظرة الأولى ، أين تلك الليالي السعيدة ؟ هل يقدر لها أن تضيء مرة أخرى ؟ وأسير على إشعاعها المتألق في دروب حياتي المملة الفارغة) .

قال « أحمد » وقد وقفوا أمام واجهة المكتبة :

— إنها ميزة على كل حال ، فلولا جمال الغرض، وروعة التنسيق ، ما وقفنا أمام هذه الواجهة ، ولنا بعد ذلك أن نميز الجيد من الرديء .

والتفت إلى « عصام » الذي كان واقفاً في انتظاره ، وأشار بيده ، إليه وإلى « مصطفى » في آن واحد :

— لقد تعارفتما قبل ذلك : زميلي « عصام » .

ثم أشار إلى فايزة .

— الآنسة « فايزة » شقيقة « مصطفى » .

وتقدم « عصام » يصافح « مصطفى » وأومأ برأسه يحيي

« فايزة » فردت عليه التحية مبتسمة ، واتجهوا إلى « شارع فؤاد » في صف واحد : « فايزة » وبجانبها « مصطفى » ثم « أحمد » و « عصام » .

وقال « مصطفى » موجهاً الكلام إلى «أحمد » و« عصام» بينما انصرفت « فايزة » بنظرها إلى مشاهدة واجهات الحوانيت :

– لقد استمتعتم من غير شك بالإجازة على قصرها ، ولكن كان الأولى بكم تأجيل القيام بهذه الرحلة ؛ فالصيف لم يشتد بعد .

فأشار « أحمد » إلى زميله « عصام » قائلا :

– إن « عصاما » و « إبراهيم » سيسافران إلى مكة خلال هذا الأسبوع ، وقد بادرنا بالقيام بهذه الرحلة لهذا السبب

وعقب « عصام » على حديث « أحمد » بقوله :

– إنها فترة استجمام ضرورية ، بعد شهور من السهر والمذاكرة .

قال « مصطفى » :

– لو قضيتم هذه الفترة بـ « رأس البر » لاستمتعتم

بالهدوء ، فقد اعتدنا كل عام قضاء جانب من الصيف بها ، أما هذا العام فلا أدري بالنسبة لي على الأقل .

والتفت إلى « فايزة » يستوضح الأمر ، فسارعت بالتعليق على كلامه بقولها :

ــ سوف لا يتسنى لنا هذا العام أن ننتقل من القاهرة ، وهذا ما سمعته من والدي ، إلا في حدود الإجازة القصيرة التي ستمنح لكم في آخر الصيف ، قبل استئناف الدراسة .

وتساءل « مصطفى » :

ــ خمسة عشر يوماً فقط ؟

فردت عليه مبتسمة :

ــ خمسة عشر يوماً على شاطيء البحر تعتبر إجازة مناسبة .

وكانوا حينذاك قد وصلوا إلى « ميدان العتبة » بعد أن اجتازوا « شارع فؤاد » و « ميدان الأوبرا » ، فاتجهوا إلى موقف السيارات العامة .

وعندما انتهى بهم الوقوف أمام سيارة منها ، استأذن « مصطفى » من صاحبيه ، وصافحهما بعد أن قال لـ « أحمد » :

ـ موعدنا غداً الساعة الثامنة . بينما أومأت « فايزة » برأسها مستأذنة وصعدت إلى السيارة .

وعندما أوى « أحمد » إلى حجرته بعد أن أغلق بابها دونه ، كان قد قطع شوطاً بعيداً في التفكير في موقفه ، ذلك التفكير الذي استغرق منه كل وقته منذ أن استقل السيارة من « ميدان العتبة » .

واستلقى على سريره في استرخاء محاولة منه في تهدئة أعصابه المشدودة وتفكيره المضطرب ، مستأنفاً مناقشة الحقيقة التي وضحت أمامه هذا الصباح ، حينما فوجيء بمقابلة « مصطفى » و « فايزة » .

وكالنائم عندما يفزع من نومه على أصوات مزعجة تنتزعه من حلم جميل . انتبه « أحمد » على صوت ناقوس قوي يدق بين أضلاعه ، وأدرك معه تفسير الظواهر التي أحس بها دون أن يعرف كنهها ، قلق الأسبوعين اللذين أمضاهما في الإسكندرية ، وتشوقه إلى القاهرة . ومن ثم هدوء أعصابه واطمئنانه عندما رأى « فايزة » هذا الصباح كل تلك الظواهر إنما تشير له إلى شيء غاب عن أفق تفكيره طوال المدة التي اختلط فيها بـ «فايزة » وأعجب خلالها

بحيويتها ، وثقافتها وأحاديثها ، ومناقشاتها ، وقد أدرك الآن فقط أن إعجابه بثقافتها ، وميله إلى أحاديثها الشيقة ومناقشاتها المستمرة إنما يعني شيئاً آخر أبعد من ذلك الإعجاب الظاهر ، والذي حاول أن يقنع نفسه به .

ومن الحرى به أن يعيد النظر في مدى هذه العلاقة ، وأثرها البعيد على واقعه الذي يعيش فيه ، وارتباطه بالتزامات وثيقة ، هي الرباط المقدس الذي ربطه بابنة عمه .

لقد بدأت علاقته ذات مساء بنظرة ، ثم تساؤل منها ، وبنظرة ثم إجابة منه ، تطورت من جانبه إلى إعجاب بها ، ثم تحفز إلى استجلاء ما غمض عليه من صفات ، وسمات ، تزيد من ربطها في ذهنه بـ « فاطمة » . ثم استشعاره الحرص على موعد يوم الأربعاء من كل أسبوع ، والإهتمام له ، والتفكير فيه منذ أن انضمت « فايزة » إلى مجلس المذاكرة ، وتكون بها هذا الثالوث الذي يناقش كل المسائل العامة ، والموضوعات المتنوعة ، وخاصة ما يتصل منها بالفنون الجميلة .

ولقد مضى ذلك العام بأيامه ، ولياليه ، وفصوله ، وشهوره ، في سرعة كلمحات الفرص التي لا تعود ، أمسيات ندية عاطرة ، يتجاذبون فيها الأحاديث بعد الفراغ من المذاكرة ، بشوق ملح ، ووجد متزايد ، ذلك الشوق الذي

يدفعهم إلى الإفاضة في الأحاديث ، والإسهاب في المناقشة ، وقدح زناد الفكر في استدعاء الأدلة والحجج ، يؤيد كل منهم بها رأيه ، ووجهة نظره .

أما النتيجة فقد حجبت عنه في غمار هذا الاندفاع الذي يشعر بقوة أثره ، إلى أن انتهى العام الدراسي ، وغاب عن القاهرة ، ثم عاد إليها منذ أيام .

وفي صباح هذا اليوم يرى النتيجة ماثلة أمام عينيه ، لا يستطيع أن يكذب معها عاطفته التي استشعرها قوية دافقة دون مواربة أو التواء :

(وإذن فهو حب جديد ، يتسم – كما أحسست به – بالعذرية ، نقي وطاهر ، ينبعث من النفس ومن الأعماق . ولكنه مع ذلك – وفي نظري على الأقل – بغض النظر عن طهره ، وبغض النظر عن نقائه وصفائه ، حب فراغ ، ليس وراءه أمل يرجى ، حب ضائع في صحراء عريضة) .

وبدأ « أحمد » يمسك الخيط من أوله بعد أن وجد نفسه بين قوتين متكافئتين ، قوة تجذبه إلى الماضي ، وقوة تجذبه إلى المستقبل ، ودخل منذ ذلك اليوم في معركة نفسية قاسية ، هيأ لها كل ما يستطيع من قوى .

وسارت الأيام .

١٣

بدأ الطقس يميل مع مطلع الخريف إلى الاعتدال ، وخاصة في الليل ، ولم يبق من مظاهر الصيف سوى بقايا متفرقة ، تتمثل أكثر ما تتمثل في ألوان الملابس الفاتحة ، التي يصر الشباب على ارتدائها ، وبدأت الوجوه اللامعة السمراء تظهر في شوارع القاهرة ، وتحمل سماتها ما خلفته شمس الشواطيء ، سمرة تبدو معها الوجوه أكثر لمعاناً وبريقاً ، وأوفر نشاطاً .

وفي ضحى هذا اليوم من أيام أكتوبر ، استقبل منزل الدقي شطره العائد من مكة : « عصام » و «إبراهيم »وسرت في المنزل ضجة الأصوات التي تصحب الترحيب والتحية ، بعد غياب طال بين الزملاء ، كما توالت الأسئلة المتشابهة التي تنتظر الإجابة المستفيضة ، والشرح الطويل ، يدفعها دفعاً قوياً هذا الشوق المتأجج ، الذي يشعر به الغائب عندما يقابل شخصاً لم يزل قريب عهد بالوطن ، لا بد أن لامست عيناه واحداً من الأهل ، أو وقع نظره من قريب أو بعيد على رؤى طال عهد السائل بها ، لوحة من الأحاديث يلونها

الوصف المستفيض ، والعرض الشيق ، بألوان زاهية ، تبدو أمام أعيننا وكأنها الحياة بنبضاتها الحية القوية .

ولم تكن الأسئلة — على كثرتها — تهدف إلى أكثر من التعرف على التغير والتبدل ، الذي يتوقعه السائل بعد الإطمئنان على صحة الأهل وسعادتهم .

وتتابعت الأسئلة دون توقف من « أحمد » و « حسين » كما توالت الإجابات المقتضبة من « إبراهيم » و « عصام » وقد توزع تفكيرهما بددا بين الأثنين ، وكأنما أشفق كل من « أحمد » و « حسين » على فوات الفرصة ، في سماع الأخبار التي تخصه ، فانفرد كل منهما بواحد من الصديقين العائدين ، وجلسوا في حجرة الإستقبال ، وقد اطمأن كل منهما إلى وفرة نصيبه من الأخبار التي سيستقيها على مهل .

تساءل « أحمد » في اهتمام وشوق ، يشير إليهما تطلعه إلى عيني « عصام » وتحفزه لإلقاء الأسئلة المتتابعة التي تداعت إلى ذاكرته :

— هل رأيت أبي . . وعمي . . وأخي « يحيي » ؟ .

ولما أن اطمأن إلى أنهم بخير ، وأن العائلة بخير كذلك ، بادره في عجلة وتلهف :

– هل رأيتهم قريباً ؟ ومتى ؟ وما أخبار العائلة ؟ وهل جد جديد على أحوالهم ؟ وهل زرت والدي بالمنزل أو بالدكان ؟ وأين رأيت عمي ؟ وما أخباره ؟ وكيف رأيته ؟ إلى آخر ما هنالك من أسئلة تدور في فلك الأسرة .

وكان « عصام » يتابعه بالإجابات السريعة ، المستفيضة أحياناً ، إشباعاً لرغبة صديقه ،وطمأنة خاطره ، والمقتضبة أحياناً أخرى ، حينما يجد السؤال صورة من سابقه .

وأشار « عصام » إلى حقائبه التي ما زالت موضوعة بصالة المنزل قائلا :

– لك هدايا كثيرة من كل نوع ، ملابس ومنسوجات.. وساعة . . وقلم .

ثم تأنى لحظة وكأنه يتذكر ما سها عنه قبـــل أن يقول :

– وسجادة . . . ومسبحة .

وتدخل « إبراهيم » في الحديث قائلا :

– لا شك أنها من الوالدة ، لقد نسيت أن تبعث لك شرشف الصلاة ، وكتاب تفسير الأحلام .

وضحك « أحمد » بينما استأنف تساؤله :

– وهل حملت لي خطابات من أسرتي ؟ .

وعندما رد عليه « عصام » بالإيجاب صمت قليلا كأنما يهيء لصديقه الفرصة لموافاته بالخطاب، والهدايا، على عجل. ولكنه استدرك قائلا :

– الخطابات أولا .

وحينما غادر « عصام » مكانه استدار « أحمد » إلى « إبراهيم » يسأله في اهتمام :

– ألم يتغير شيء في مكة ؟

وضحك « إبراهيم » قبل أن يجيب .

– كلا . لم يتغير شيء ، الكعبة في مكانها ، وبئر زمزم أمام الكعبة، وما زالت الشمس تشرق من المشرق ، كما أن « سويقة » تعج بالمستبضعين ، ومقاهي « جرول » كما هي : « أبو ثمانية أسود وخفيف يا وليد »، والحر شديد، وهأنذا أعود إليكم كما تركتكم ، لم يتغير في شيء ، ولم يجد عليكم جديد .

ثم ضاحكاً وهو يوجه نظره إلى « أحمد » :

– ولم هذا الشوق ؟ ستعود إلى مكة ، وتقضي بها بقية عمرك ، فلا تتعجل الأمور .

وبعد أن سكت برهة وجيزة ، نظر خلالها إلى « أحمد » نظرة طويلة ، قال في استغراب :

– يبدو أنك ضعفت ، هل كنت مريضاً ؟ .

ورد « أحمد » في استنكار :

– كلا . . لم أمرض ، ولكنه الصيف ، وهذه طبيعتي .

وهز « إبراهيم » رأسه في اقتناع ، وصمت « أحمد » محاولا الابتعاد عن هذا الجانب من الحديث :

(لو أنني أدعيت المرض لخرجت من هذا المأزق المحرج بسلام . سوف يكرر « إبراهيم » السؤال ، ويلحف في طلب الإجابة ، ولا أستطيع – حينذاك – أن أخفي حقيقة الأمر ، ويصبح – عندئذ – هذا السر الذي إحتفظت به لنفسي ، ولم أبح به لشخص ما ، حقاً مشاعاً بين زملائي ، يتداولون فيه الرأي والمناقشة . ما أبشع هذا الموقف ! ! عندما تضطر إلى إباحة أسرارك ، وأية أسرار ! ؟ أسرار القلب ، كأنما تقتطع منه قطعة بنصل حاد ، يشاهدها غيرك تقطر دماً ، وقد انسلت منها الحياة) .

قال « إبراهيم » وقد أعاد النظر إلى وجه « أحمد » ، كما ظهر عليه الإهتمام بالأمر :

– إذن في الأمر سر لا نعرفه ، لقد تركناك في صحة جيـــدة .

(لقد بدأ « إبراهيم » يحاول ، يا له من لحوح ؛ كثير السؤال ! ! وما الذي يهمه من أموري الخاصة ؟) .

أجاب « أحمد » بعدم مبالاة ، بعد أن اتكأ بيمينه على مسند المقعد ، ومد قدميه قليلا في حالة استرخاء :

– ليس هناك سر ، صحتي الآن جيدة ، إني أشعر بإرتياح .

(إنها راحة اليأس ، خير لي أن أودع عالمكم الصاخب ، فقد ودعت عالمي الذي خلقت له) .

وهو لم يعد الحقيقة ؛ فقد بدأ يرتاح بعد عناء ، عناء طويل مرير ، تجرع خلاله كأس الآلام حتى الثمالة ؛ فمنذ أن أحس بحقيقة شعوره نحو « فايزة » في مطلع الصيف الماضي ، وهو يعاني من أمره شدة قاسية ، حقيقة أنه أحس خلال العام المنصرم بسمو روحه ، وابتهاج وجدانه ، وتطور نظرته إلى الحياة ، تلك الحياة التي بدت له في أجمل صورها ، تبعث الروح فيمن لا روح له ، وتنفث السحر في الأفئدة المتعطشة ، وأصبح معها وفي غمارها أكثر احتفالا

بزاد الفكر ، وأشد تعلقاً بغذاء العقل ، وأكثر انجذابا إلى الفنون الجميلة .

هناك في جلسة ما بعد المذاكرة بمنزل « مصطفى » تمتد مائدة الفكر ، الحافلة بأطيب الأغذية الروحية ، عصارة الفكر الإنساني ، وزبدة المعارف الرفيعة ، وخلاصة الثقافة الحقة ، تزينها باقات يانعة من الأساليب المشرقة ،والأحاديث المهذبة ، والمناقشات الهادئة ، هل قدر له أن يترك تلك المائدة بكل بساطة ، وينسل منها بكل هدوء ، وكأنها لم تكن في فترة من الفترات الجزء المشرق في حياته ، المضيء من أيامه ولياليه ؟ .

ومنذ أن بسط الأمر على ضوء واقعه ، وارتباطاته ، وناقشه على هدى إحساسه الحقيقي نحو « فايزة » بدأت خواطره تتبدد ، كما بدأت أعصابه تثور في انتظار النتيجة .

وافاه « مصطفى » غداة أول يوم اعتذر فيه عن عدم الذهاب إليه ، فتصنع مرضاً أعد له علاماته الواضحة ،واختلق له أعراضه ، وشرحه لصديقه في إفاضة . وصدق «مصطفى» ما قاله . وفي الأسبوع التالي اختلق عذراً آخر اقتنع — هو — بوجاهته :

« منزلنا متسع ، حبذا لو جعلناه منذ الآن محل اجتماعنا ، وسوف يشاركنا « حسين » في المذاكرة » .

واقتنع « مصطفى » بذلك ، ورحب به .

وسارت الأمور في مجراها الطبيعي ، واقتنعت نفس « أحمد » بسلامة الطريق الجديد ، وأمنه ، وإن نازعته — من ناحية أخرى — إلى النكوص ، تمشيا مع غريزة حب البقاء ، فقد شعر أنه انتحر ، أو أنه — على الأقل — ودع مباهج الحياة ، وهي كل دنياه :

(ولكن سوف أقسو على نفسي ! هناك فقراء الهنود في شبه القارة الهندية ، ينامون على المسامير ، ولا يحسون لوخزها ألماً ، لماذا لا أكون واحداً منهم ؟ أنا الفقير الهندي الجديد ، الذي يبشر برسالة جديدة ، في تحمل الآلام النفسية والعاطفية) .

وناقش في فترة أخرى فلسفة الحياة على وجه آخر :

(ما هي السعادة إن لم نعرف الشقاء ؟ وما قيمة العدل إن لم نقاس الظلم ؟ وما معنى الرفاهية إن لم نعش في الحرمان ؟ لكل عمل ثمن نتقاضاه في يوم ما ، السعادة المؤجلة ثمن تتقاضاه عن شقائك . ورفاهيتك المتأخرة ثمن تتقاضاه عن

حرمانك ، سوف أضحي بحبي الجديد . . . هذا الذي أحسست به قوياً قاهراً ، سرى في وجداني •• على غفلة مني ، وتسرب في حنايا القلب على مهل . . دون أن أدرك قوته إلا بعد تمكنه مني ، ولا شك أني سأتقاضى ثمن هذه التضحية مضاعفاً ، هناك الثمن . . ابنة عمي ، تلك الّتي تنتظرني من وراء نافذتها المغلقة ، إنها ثمن التضحية) .

ولكنه عاد في الوقت ذاته يستهزيء بهذه الفلسفة ، ويحتقر إيمانه بها ، فقد تذكر الشيخ « سالما » جار أبيه في « سويقة » :

(تماماً كالشيخ « سالم » جار أبي في « سويقة » ، لكي يشتري منزلا في « المعابدة » أو خرابة في « جرول » يحرم نفسه ملاذ الحياة ومتعتها ، لقد عرف ذلك الرجل النظرية الّتي أعنيها ، عرفها بحاسة الرجل الحريص ، التاجر الذي يعرف كيف يضع القرش فوق أخيه ، ويجمع الريال على الآخر ، ثم يبني بما يجمعه منازل ودكاكين ، أو يشتري قراريط وخرائب ، وهو الآن يعيش سعيداً في نظر نفسه ، وأنا الآخر أحرم نفسي ملاذ الروح ، وغذاء العاطفة ، كي أبني لنفسي قصوراً في الهواء ، وأعيش سعيداً كسعادة العم « سالم » سواء بسواء).

وهكذا أخذ « أحمد » يدور في حلقة مفرغة ، ليس لها بداية ، وليس لها نهاية ، تتجاذبه من ناحية فلسفة للحياة لا يؤمن بها ، ولكن يحس بجدواها ، وتدفعه من ناحية أخرى قوى خفية تهتف به :

« هذه مباهج الروح ، وحياة الوجدان ، فاستمر في طريقك » .

وكان هذا أول الطريق الذي شعر بوعورته ، وأحس معه بجفوة المركب الذي أعده ليجتاز به الطريق ، ولكنه سار وتجلد إلى أن اجتاز الطريق .

وقد لمح « فايزه » ذات مرة برفقة أخيها في أحـــد الشوارع ، فباعد المسافة التى تفصله عنهما ، حيث يراهما دون أن يرياه. وتنازعته العاطفة ، وهتفت به أصداء الماضي القريب « أن أقدم » ولكنه تأخر ، وحمد تجلده وصبره .

ومنذ ذلك الحين ضم صورة « فايزة » ، وذكراها ، إلى متحف ذكرياته العاطرة ، وتطورت نظرته إليها خلال شهور قليلة ، من حقيقة كانت تعيش في حياته ، إلى حلم يطوف بذاكرته على فترات متباعدة . ولعل مما زاد تصميمه توكيداً ، هو عدم معرفة شعورها نحوه، فبالرغم من احتفائها

بمقدمه ، وابتسامتها النضرة ، التي تقابله بها ، وحرصها على مشاركته مجلس الحديث ، والنقاش. ، وبالرغم من معرفته بأنها قد ضاعفت التفرغ لهوايتها في الإطلاع ، مما أشعره ذات يوم بأستاذيته ، إلا أنه عاد أخيراً يكـــذب ذلك الإحساس ، ويقنع نفسه بسذاجة أفكاره ، وسخف نظرته :

(ربما يكون إعجاباً عابراً ، وملء فراغ عاطفي ، أو ربما كان إحساسي كاذباً لم أتبين معه حقيقتها التي تعيش في أعماقهـا).

وسارت أيام الصيف أسوأ مما توقع ، أيام ثقيلة ، وليال سوداء ، وقد انقطع « مصطفى » في نهاية أشهر الصيف ، فترة من الزمن عن منزل « أحمد » ، قضاها في رأس البر مع أسرته ، عاد بعدها يحمل نبأ نقل والده إلى أسيوط ، وستنتقل معه الأسرة ، بينما يبقي هو وحده بالقاهرة .

وعاد « عصام » يحمل بين يديه الهدايا المرســلة إلى « أحمد » فمد « أحمد » يديه يتناول منه الحمل ، وبعــد أن وضع الهدايا بجانبه ، وهو يتفحصها تناول الكتاب المرسل من أبيه ، وتركه على صفحة يده ، كأنما يزنه بيد خبير ، ليعرف محتوياته قبل أن يفضه ، واستأذن من زملائه متجهاً إلى حجرته ، والخطاب في يده .

وركز انتباهه في كل كلمة يقرأها . . وهو يتابع الخطاب بشغف ، وما إن فرغ من القراءة حتّى ازدادت نفسه اطمئناناً على أهله وذويه ، بالإضافة إلى حديث « عصام » الذي استمع إليه ، أخبار الأسرة وأحوالها ، وما رآه على ذويه : والده ، وعمه ، وأخيه « يحيى » .

وإذن فلم يتغير شيء ، الحياة تسير بهم في نظامها العادي ، ونسق حياتهم في غدوهم ، ورواحهم ، وعيشتهم ، هو هو لم يتغير ، وتمثل « أحمد » منزله وأسرته على الحال التي تركها عليها قبل عامين :

الإستيقاظ صباحاً مع ضوء الفجر ، وانصراف كل فرد إلى القيام بواجباته الدينية ، ثم اجتماع الأسرة على مائدة الإفطار ، وإزدراد يحيى بضع لقيمات على عجل ، وانصرافه إلى المدرسة حاملا كتبه تحت إبطه ، وبريق الشقاوة يطل من عينيه ، وهو يفكر في مشروعاته المقبلة ، ثم توجه شقيقته « زينب » و « زين » إلى مدرستهما ، بصحبة الصبي الصغير . وهنا يخلو المنزل ، ويهدأ بعد صخب وضجيج .

ثم خروج والده في موعده المحدد ، إلى الدكان . في « سويقة » ذلك العالم الحافل بألوانه المختلفة ، وأنماطه

المعددة ، وشخصياته المتعارضة ، وزبائنه المختلفي المشارب ، المتعددي الاتجاهات ، حيث يجلس أبوه في واجهة الدكان ، متجهاً في جلسته إلى الشيخ « سالم » شخصية هذا القطاع من « سويقة » بجسمه الممتليء ، وقامته القصيرة ، ومسبحته التي لا تفارق يمناه .

ثم جلسة الليل بالمنزل ، والشجار المستمر بين الإخوة الصغار ، بعد مغرب كل يوم .

ثم عودة أبيه من الحرم ، بعد صلاة العشاء ، والسمر الذي يبدأ عادة عندما يبدءون في احتساء أول رشفة من أقداح الشاي : أخبار الأهل ، والجيران ، والأقارب ، وذوي الأحام ، وأخبار السوق ، والتجارة ، والبيع ، والشراء ، وطرائف الماضي ، وألوان العيش فيه ، حيث كان يصغي بكل حواسه إلى هذا الجانب من الحديث ، لما يحمل في طياته من ملح ، ونوادر ، كانت تبدو له كخرافات الأساطير .

وتصور « أحمد » وهو في غمار الذكريات حال أسرة عمه ، تلك الأسرة الصغيرة ، السعيدة بالحب والائتلاف ، أب وأم ، وبينهما « فاطة » الزهرة اليانعة ذات العينين

السوداوين المعبرتين ، والتي يبدو فيهما ألق السعادة ، وبريق الاطمئنان ، كالجدول الصافي الرقراق .

هكذا استعاد « أحمد » ماضيه ، وحال أسرته في هذه اللحظات التي كان يقرأ خلالها خطاب أبيه ، كأنما انبثق شريط سينمائي من بين أسطر الخطاب ، شاهد فيه كل هذه اللقطات من حياة أسرته .

وأعاد الخطاب إلى الظرف ، ومن ثم إلى الحجرة التي يجلس فيها زملاؤه ، حيث ترك الهدايا ، وعندما هم بحملها قال « إبراهيم » ضاحكاً :

ـ لقد حملنا إليك محتويات الدكان ، ليت لي دكاناً في « سويقة » .

وأجابه « أحمد » وهو يبتسم :

ـ إذن لأعلن والدك إفلاسه منذ زمن .

وغادر الحجرة وهو يحمل الهدايا بين يديه .

١٤

دقت الساعة المعلقة في صالة المنزل أثنتي عشرة دقه معلنة انتصاف الليل ، وقد تردد صداها قوياً في أرجاء الحجرات ، ضاعف من قوته الهدوء المخيم على المسكن ، وبعد لحظة كان صوت ساعة الجامعة يصل إلى الأسماع واضحاً وقوياً كذلك ، يؤكد ما أعلنته ساعة المنزل .

ورفع كل منهم معصمه الأيسر يستوضح ساعته ، كانت حركة آلية قام بها الزملاء في وقت واحد ، على الرغم من أن كلا منهم كان في حجرته الخاصة .

وتمطى « إبراهيم » متثائباً ، ومد قدميه إلى الأمام كأنما يعلن انتهاء وقت المذاكره ، وما لبث أن غادر حجرته إلى الصالة ، ووقف في منتصفها ، يستعرض الحجرات الأخرى المفتحة الأبواب ، ويتفحص بنظراته زملاءه المنصرفين إلى المذاكرة . . وطالت وقفته وهو يكرر النظر إليهم حيث لا يبدو على أي منهم علامة من علامات التعب أو الإجهاد فلا تثاؤب ، ولا استلقاء على السرير ، ولا حركة

توشي باعترام قفل الكراس أو الكتاب ، وعاد إلى حجرته في محاولة يائسة لاستئناف المذاكرة ، وحينما فتح كتابه الموضوع على المكتب أحس بأنه يحمل نفسه أكثر مما تطيق فأعاد غلق الكتاب مرة ثانية ، وخرج إلى الصالة يتمشى فيها ، محدثاً بمشيته حركة يهدف بها إلى تنبيه زملائه إلى وجوده .

وعندما أحس بالتفات « عصام » ، اتجه إليه في عجله وكأنما خشي فوات فرصة سنحت له بعد طول انتظار ، وجلس على سرير « عصام » متكئاً بيمينه على الوسادة ، متجهاً بنظره إلى الباب المفضي إلى البلكونة ، وقال بعد فترة صمت وجيزة كالمتردد في بوح سر من الأسرار ، وفي صوت أجش :

— انتهت أيامنا .

والتفت إليه « عصام » في انزعاج مصطنع قائلا :

— ما هذا الفأل السيء ، كيف انتهت أيامنا ؟ هل رأيت حلماً مزعجاً .

ورد عليه في صوت أشد تأكيداً :

– أي حلم ؟ حقيقة يا « عصام » إنتهت أيامنا من مصر . وبعد شهر سنعود إلى بلادنا ، حيث نبدأ الحياة العملية من أول الطريق ، وسنودع هذه الحياة الجميلة الحالية من المسئوليات . إن هذا شهرنا الأخير .

ثم صعد زفرة من شغاف قلبه ، وهو يقول في لهجة تمثيليـــة :

– آه إن أيامنا الجميلة وليالينا المضيئة تحتضر أمام أعيننا وبين أيدينا ، إنها مأساة لا أتصور نتائجها .

فقال « عصام » متسائلا وهو يضحك من هذا المشهد :

– وهل جمال الحياة في خلوها من المسئوليات ؟ إن لكل طور من أطوار الحياة هدفاً معيناً . نحن الآن مسئولون عن أنفسنا بعد أن كان غيرنا هو المسئول عنا ، وغداً سنكون مسئولين عن أنفسنا وعن غيرنا ، هذه سنة الحياة . هل تفضل أن تعود كما كنت طفلا يحمل عنك أهلك مسئولية الحياة ، وتحقيق رغباتك فيها ؟ .

ورد عليه « إبراهيم » معترضاً :

– كلا لم أقصد ذلك . ولكن . .

وتأني لحظة قبل أن يقول :

–أقصد أننا لو أطلنا مدة الدراسة وتنقلنابين الكليات..

وسارع « عصام » قائلا :

ـ لاكتسبنا تجارب جديدة . لقد توقعت منك ذلك أول قدومنا إلى مصر . ولكنك كذبت ظني ونجحت باستمرار .

ـ فرد عليه « إبراهيم » في صوت مرتفع :

ـ أنتم السبب . لقد دفعتموني إلى النجاح بالإكراه ، وهأنذا اليوم أطوي صفحة مشرقة من حياتي ، بأسرع مما تصورت ، لأبدأ حياة جديدة ، وارتاد مجالا مجهولا . أف . . ما أقسى الحياة ! ! .

وتوقف لحظة بعد أن أحس بأنه قد عبر عما في نفسه ، وقال :

ـ ولكن . لم أجئك لهذا .

والتفت إليه « عصام » متفرغاً لسماع ما جاء من أجله ، وفي عينيه التساؤل الذي يومى إلى ذلك .

قال « إبراهيم » بعد أن غير نبرات صوته :

ـ هل فكرت في الزواج ؟ .

فسأله « عصام » بدوره وهو يبتسم :

ـ هل عندك عروسة ؟ .

وأجابه « إبراهيم » وقد فرغ صبره .

– لم أعمل خاطبة بعد ، ولكن أقصد ضرورة التفكير في الزواج قبل أن نعود إلى بلادنا .

وعاد « عصام » يسأل :

– وهل فكرت أنت فيه ؟

– نعم لقد فكرت فيه كثيراً ، ولكني لم أهتد إلى وجه الصواب ، الذي يجب أن نسلكه .

وأمسك « عصام » بالكتاب الذي أمامه يقلب صفحاته ، وكأنه يبحث عن صفحة فيه ، متفكراً في الأمر الذي جاء من أجله « إبراهيم » في هذه الساعة من الليل .

لكأن الفرص قد فاتت فجأة يستعجل البت في هذا الأمر . ومع أنه قد طوى ثلاثة أعوام كاملة ، وقد شارف العام الرابع نهايته دون أن يناقش هذا الأمر ، أو يفكر فيه ، إلا أن إثارة « إبراهيم » له في هذا الوقت يعتبر وجه الصواب ، وتهيأت نفسه للمناقشة في أمر الزواج .

بدا ذلك في تراجعه السريع وهو يناقش نفسه سراً . قال « عصام » :

– إن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من تحديد الرغبة ، على هدى نظرتك إلى الحياة .

وهتف به « إبراهيم » :

– هذه هي الفلسفة التي استظهرتها أنت من الكتب إني لم أفهم شيئاً من كلامك :

فقاطعه « عصام » في حدة :

– على بـ « أحمد » و « حسين » وسوف نبحث الأمر بالاشتراك معهما .

ولكم يكن « أحمد » و « حسين » في حاجة إلى من يدعوهما فقد أقبلا على التوالي ، بعد أن وصل إليهما صدى المناقشة.

وبادرهما « أحمد » قائلا :

– مؤتمر في نصف الليل . لا بد وأن يكون في الأمر ما يستدعي ذلك .

وأجابه « عصام » بعد أن أشار إليهما بالجلوس على السرير :

– لقد طاب لـ « إبراهيم » – كعادته – بعد أن انتهى

من استذكار دروسه أن يصرفنا عن مذاكرتنا ، ويشركنا معه في التفكير فيما يفكر فيه ، ويشغل خاطره ، من الأمور التي تعرفونها .

فضحك « أحمد » وهو يقول :

— أمور الزواج طبعاً .

بينما قال « حسين » في ازدراء مصطنع :

— تفكير المراهقين .

فانبرى له « إبراهيم » في حدة قائلا :

— بالنسبة لكما فقط ، أما أنا و « عصام » فقد أوشكنا على التخرج ، وبعد شهر سنصبح من موظفي الدولة ، وستبقيان أنتما في مقاعد الدراسة ، وفي عداد الطلبة ، الذين سنرعاهم ، ونتصرف في أمورهم من مكاتبنا .

ثم متأنياً لحظة وكأنما تذكر — في أسف — أنه سيطوي هذه الصفحة المشرقة من صفحات حياته ،

ولكن ما أهنأكما بهذه الحياة ، بودي لو أستأنف الدراسة من جديد .

ثم استبدل بلهجتة لهجة خافتة تشي بالحزن :

— ما الفائدة من هذا الكلام ؟ كلام لا طائل من ورائه .

غداً سوف أعود لـ « سويقة » و « زقاق السكرات » و « برحة القرارة » . أف لهذه الحياة إنها تأخذ منا أضعاف ما تمنحنا ، وستلحقون بنا عما قريب إن شاء الله وكأننا يا بدر . . .

ثم ضحك بصوت مرتفع نحن السابقون وأنتم اللاحقون ، وهذا ما يخفف عني الحزن .

وجاءه صوت « عصام » يقاطعه في استرساله في الحديث دون ضابط :

ـ لقد خرجنا عن الموضوع . إن « أحمد » يمكنه أن يمدنا بتجربة من تجاربه في هذا السبيل .

فأجابه « أحمد » بعد أن اتكأ بمرفقه على حافة السرير :

ـ إني أقلكم تجربة في هذه الأمور . ومع ذلك فلا أضن بمشاركتكم الرأي والبحث .

ولم يظن «أحمد» أن « عصام » إنما يقصد بكلامه الاشارة إلى « فايزة » شقيقة صديقه « مصطفى » التي رآها صدفة قبل عامين . لقد مضى عامان على المرة الوحيدة التي رآها فيها « عصام » . ولم تع ذاكرته سوى خيال بعيد ، وصورة غير واضحة ، لفتاة في السابعة عشرة من عمرها ، شاركتهم بتحفظ فيما خاضوا فيه من

حديث ، بينما ارتسمت صورتها الحقيقية ، تلك الصورة الروحية ، التي تبدو من وراء الحديث الذي في ذاكرته ، فتاة مثقفة ، لها طريقتها الخاصة في الحديث الذي تخوض فيه ، والتي تتمثل في الإيماءات اللطيفة التي لا تؤكد رأياً ولا تنفيه ، التعبيرات الوسط بين الاندفاع والانكماش ، أسلوب الدبلوماسيين الذي يحمل أكثر من معنى ، ويقف المستمع أمامه في خضم من التفسيرات .

وبالرغم من أن « عصاما » قد أعجب إعجاباً عابراً بـ « فايزة » إلا أنه لم يستفسر عنها من زميله ، ولم يحاول أن يدخل معه في حديث جاد يتصل بها ، تاركاً للأيام وحدها تفسير ما جال بخاطره ، من تساؤلال ، ورغبة في الاستزادة من معرفة كل ما يتصل بهذا الأمر .

ومضت الأيام وتوالت ، دون أن يقف على ما يبل غلته. وامحت تلك الصورة مع توالي الأيام ، وتوارت عن ذاكرته ، إلى أن جاء « إبراهيم » في هذه الليلة ، وافتتح الحديث في موضوع الزواج ، فاستثار بذلك الصورة المتوارية وراء ضباب النسيان فبدت واضحة كما تطل الشمس من وراء السحب .

قال « عصام » موجهاً الكلام إلى « أحمد » :

– تذكر من غير شك شقيقة زميلك « مصطفى » .
إني نسيت اسمها، كان ذلك قبل عامين حين رأيتها برفقه شقيقها ، وسرنا معاً إلى العتبة الخضراء .

. . هل تذكر ذلك ؟ . إني لا أتصور سماتها الآن إلا أن النظرة الأولى إلى وجهها ؛ قد تركت أثراً في نفسى لا أزال أحس به إلى الآن . على أني أذكر جيداً أن أسلوبها في الحديث يدل على اتزانها وثقافتها .

وانتظر لحظة قبل أن يقول : وهو ينظر إلى «أحمد» :
– أظنك قد وقفت على جوانب كثيرة من أخلاقها ، وطباعها ، بحكم اختلاطك بشقيقها . ما رأيك فيها ؟ .

تاريخ لا ينساه . . . ويوم يؤرخ به دنياه . . . وهـــل يستطيع أن يمحو ذكري ذلك اليوم من ذاكرته ؟ .

(يقول « عصام » :
« هل تذكر ! » .
وكان الأحرى به أن يسأل :
« هل تشعر ؟ » .

أما الذكرى فباقية تنبض بالحياة ، أما الشعور فلا أدري . لقد وأدته منذ زمن ، وأنا دامع العينين ، جريح

القلب ، للوأد تاريخ عريق مع البشرية ، وهذا وأد على الطريقة الحديثة ، ومع ذلك فالسؤال قائم ينتظر الجواب :

« لم وأدته ؟ وبأي ذنب قتلته ؟ » .

السؤال الأزلي ، والوأد القديم على وجه آخر).

وبالرغم من ستار النسيان الذي أسدله « أحمد » على ذكراها بعد أن حاول تناسيها بقوة وجلد ، فإن هذه الإثارة كانت كفيلة بأن تخرج الصورة ، وتبعثها ، أكثر وضوحاً ، وأشد بريقاً .

هذه أيامها كما عهدها ، بل أكثر إشراقاً ووضاءة مما عهدها .

وفي لحظة خاطفة انبسطت أمامه كل ذكرياته عن « فايزة » ، حتى الذكريات الضئيلة العابرة التي لا تمثل معنى من المعاني المتصلة بالوجدان :

(هذه سماتها ، وأوصافها الحسية ، وهذا حديثها ، وأسلوبها فيه ، ونبرات صوتها ونقاشها) .

بل إن ذاكرته تختزن قدراً كبيراً من تعبيراتها ، وألفاظها التي كانت ترددها دائماً خلال أحاديثها ، حتى

أصبحت لا زمة لها في أحاديثها المتكررة . . . تذكر كل موضوع ناقشها فيه ، وكل حديث خاضا فيه معاً .

وبعد ذلك يقول « عصام » :

« هل تذكر ؟ » .

قال « أحمد » بعد أن خلص من نفسه :

ـ أعتقد أنها لائقة ، ولكني لا أعرف ظروفها الشخصية ، ولا أدري شيئاً عن ارتباطها ، أو ارتباط ذويها بجهة ما فيما يختص بهذا الأمر . ربما تكون مخطوبة لشخص ما .

إني لم أرها منذ عامين .

فقال « عصام » :

ـ هل يمكنك أن تتفاهم في هذا الأمر مع شقيقها ؟ .

(نهاية المأساة ، لم أستمع لحديث كهذا الحديث ، ويطلبون مني أن أكون الوسيط !) .

ومع ذلك قال « أحمد » :

ـ ولكن من الذي سيخطبها لنفسه « عصام » أم « إبراهيم » ؟ .

(أتركهما يتصارعان ، وراء كل متصارعين فتاة) :

وبادره « إبراهيم » بالجواب :

ــ أنا طبعاً لأني البادىء في الحديث . و « عصام » لم يفكر في الموضوع إلا بعد أن نبهته :

قال « عصام » في استنكار موجهاً الكلام إلى « إبراهيم » :

ــ ولكنك لم ترها ، فكيف يكون الاتفاق على شيء لم تره ؟ .

فرد عليه « إبراهيم » :

ــ إني أعتمد على ذوقك . وواثق من حسن اختيار « أحمد » ، إنكما أعز الأصدقاء ، ولا أسير في هذه الحياة إلا برأيكما .

وضحك زملاؤه بينما قال « عصام » :

ــ منتهى البلادة أن نعتمد على أذواق غيرنا في الزواج . ألم نتفق من قبل على أن الزواج يتمشى دائماً مع الذوق الشخصي ؟ ! هناك رغبات عامة تتمشى مع الذوق العام ، ذوق العصر والبيئة ، ولكن الزواج لا يعتمد فيه على ذوق الآخرين . لكل ذوق خاص فيه ، ما طلباتك ، ورغباتك في الزوجة ؟ بيضاء أم سمراء ، طويلة أم قصيرة ، ناحلة

الجسم أم ممتلئة ، ثم طباعها ؟ هادئة أم حادة ، ثم ما نظرتها إلى الحياة ؟ ثم ما أخلاقها ؟ الطمأنينة أم الطموح ، حب البيت والاستقرار أم القلق والنظر إلى الغير ، كل هذه الموازين والقيم تكون في المقدمة ، وعلى أساسها نبني سعينا فيما نحن بصدده .

وألجم « إبراهيم » فهذه فلسفة معقدة وعقيمة ، وهو لم يتعود النظر إلى أمور الحياة بهذا التعمق ، ولو سار في أموره على هذا المنوال ما نجح في شي . هذا هو اعتقاده ، وما يؤمن به في كل عمل .

(الحياة —كل أمور الحياة — صفحة مكشوفة ، يكفي الشخص منا أن يعبر بنظره على هذه الصفحة ، ليدرك ببصيرته ما يجب أن يأخذ منها وما يدع ، وهناك الغيب ، والمجهول ، لا نستطيع أن ننفذ إليه ، وندركه ، حتى لو تفلسفنا على هذا النمط من التفكير) .

وهو إلى جانب ذلك يؤمن بالصدفة ، كما يعتقد في أن الظروف تحل ما تعقد من الأمور أولا بأول ، لقد كان خاطباً لإحدي قريباته ، وحينما رأى أصدقاءه الثلاثة وهم على وشك الرحيل إلى مصر ، عدل عن إتمام الزواج ، وكان

ذلك سبباً في فسخ الخطبة . وها هو الآن في سنته النهائية ، وبعد شهر سيتخرج ، ماذا كان نصيبه من الحياة لو استمر في خطبته الأولى ؟ .

لقد قال له أحد زملائه يومئذ :

– سنعود من مصر ، ونجدك أباً لستة أطفال .

وقد خيب الله ظنه ، فلم يتزوج ، ومن ثم فلم ينجب طفلا واحداً من الستة الذين أقضوا مضجعه ، حينما فكر في أمرهم آنذاك . وكانت النتيجة هذا التدبير الذي خطه له القدر في لوحه وهو لا يعلم عنه شيئاً . طور التلمذة امتد أربعة أعوام منذ ذلك التاريخ .

قال « إبراهيم » وقد ظهر على وجهه الامتعاض :

– ما دمنا قد وصلنا إلى هذا الحد من التفلسف في موضوع الزواج ، فإني أنسحب ، وإني أقول لكم : إني غير آسف . ليتقدم « عصام » ولكني واثق من أن هذا الزواج لن يتم .

وتساءل « عصام » عن السبب .

ولكن « إبراهيم » التزم الصمت .

فهتف « عصام » ضاحكاً :

ــ هذا عين الصواب .

ثم التفت إلى « أحمد » .

ــ هييء الأمر على مهل مع شقيقها ، فإذا ما وجدنا الجو ملائماً تقدمنا بالخطبة رسمياً إلى ذويها .

وفي الصباح عندما تهيأ « أحمد » للخروج من المنزل ، ذكره « عصام » بالأمر :

ــ لا تنس يا « أحمد » ، وأقطع في الأمر برأيك ، وإذا أعوزك إيضاح أي نقطة ، فاضرب معه موعداً للمفاوضة مساء هذا اليوم .

وهز « أحمد » رأسه بينما كان فكره يدور في دوامة من الحيرة والتردد . ووجد بعد لأي أن الفرصة فرصته كي يطلع على أمورها ، بعد أن انقطع عن تتبع أخبارها مدة من الزمن ، وأخيراً فالأمر في يده ، يستطيع أن يحور الحقيقة التي يصل إليها .

وحينما أقبل على الكلية وجد « مصطفى » أمامه ــ كالعادة ــ فحياه تحية الصباح ، وسار بجواره صامتاً يستعيد ما هيأه في ذهنه لمواجهة الموقف .

وقال بعد أن أحس ثقل الصمت :

– ما أخبار الأسرة ؟ وكيف حياتهم خلال هذه المدة ؟ .

فقال « مصطفى » :

– لقد قضيت عطلة الأسبوع الماضي بينهم ، يبلغونك تحياتهم ، وخاصة الوالد .

(الوالد فقط ، لقد نسيت كما نسيت ، الحمد لله على كل حال) .

وكأنما استحثه العناد ، فقال متصنعاً الهدوء والثبات :

– وكيف حال « فايزة » ؟

– إنها بخير ، وتسأل عنك دائماً ، ستقدم لإمتحان التوجيهية هذا العام . وقد استشارتني في أمر خاص بها في هذه الزيارة ، وأعتقد أن الأمر سائر في طريقه المرسوم :

وود لو أن شجاعته تمنحه قدراً آخر من القوة ، لسؤال صديقه عن هذا الأمر الخاص . ما هو ؟ ولماذا هو سائر في طريقه المرسوم ؟ ومن كان سيوقفه ؟ ومن سيره ؟ إلى آخر هذه الأسئلة التي تواردت إلى ذهنه في هذه اللحظة .

على أن هاتفاً في أعماقه هتف به للتوقف عند هذا الحد :

(أمر لا يعنيك من قريب أو بعيد ، وما اهتمامك له ؟).

ومع ذلك فقد أحس بدافع قوي يدفعه لسؤال « مصطفى ») :

ـلا أدري هل ستستمر في دراستها وتنتقل إلى الجامعة أو أنها ستكتفي بهذه الدرجة من التعليم ؟ .

وأجابه « مصطفى » بعد أن استدار بنظره إليه :

ـ هذا هو الموضوع الذي استشارتني فيه . فقد تقدم لخطبتها طبيب شاب يقيم في القاهرة ، وقد رحب به والدي ، ولكن « فايزة » كانت مترددة في القبول . لرغبتها في مواصلة تعليمها بالجامعة ، وحينما أخذت رأيي في الموضوع أشرت عليها بالقبول . هذا مصيرها وإن طال بها الطريق . الفتاة للبيت .

وتوقف لحظة قبل أن يستأنف حديثه :

ـ ما رأيك أنت ؟ .

(يسألني عن رأيي ، وهل لرأيي قيمه ، طبيب بدل طبيب ، أما الاسم فلا أعرفه ، لقد دارت العجلة ببلاهة ، وعادت إلى الطبيب ، ولكن الظروف وحدها نطقت بالاسم ، وحددت سماته ، وعرفت شخصه ، لقد كان

من الممكن أن أكون « أنا » وربما يكون الآخر « أحمد » ..
لا أدري).

وتساءل « أحمد » في يأس :

– وهل تعرفونه ؟.

قال « مصطفى » :

– إنه طبيب مشهور . . . الدكتور « أحمد عبد اللطيف ».

(لقد أخطأت العجلة قطعاً ، لم تقف عند « أحمد عبد الرحمن » وإنما أختارت « أحمد عبداللطيف » لو كان اسم أبي « عبداللطيف » لتغير الموقف ، كان لا بد ألا يكون لي عم ، ومن ثم ولا ابنة عم ، وإذن كان من المحتمل أن يتغير خط السير منذ البداية ، وقد كان من المحتمل أيضاً أن يكون الآخر « أحمد عبد الرحمن » ويأخذ موقفي .

هنيئاً « لأحمد عبداللطيف » ، لا بد أن يكون ناجحاً في عمله ، ولو لم يكن كذلك لما عثر على هذه الجوهرة ، التي ستضيء له – حتماً – ظلمة لياليه ، وتنير له سبله ومسالكه ، وسيسعد بها في حياته .

وعندما ينساب تيار الزمن ، ونحن في عباب موجه ذرة يجرفها التيار ، ربما تكون هي الأخرى ذرة عن يميني أو عن

شمالي . هذا هو الخيط الأخير ، وهو الحد الفاصل ، سوف تسير في خط مواز للخط الذي سأسير فيه . ، وسوف لا نلتقي في الواقع المحسوس ، ولكن سألتقي بها في عالم الخيال ، وستظل كما هي ، الفتاة الحيية المؤدبة ، الأديبة المثقفة . إني أدعو لها بالسعادة . وهناك في الطرف الآخر ، أخرى تنتظرني ، ارتبط مصيرها بي قبل هذه . فلنتقبل ما يمليه علينا القدر) .

قال « أحمد » معبراً عن رأيه :

ـ البنت للمنزل ، هذا مصيرهن وإن طال الطريق .

وعندما عاد إلى منزله ظهر ذلك اليوم ، استقبله « عصام » متشوقاً ، ومترقباً النتيجة ، فألقى إليه بالخبر .

١٥

هذا المسكن بمساحته الضيقة ، وحجراته الخمس ، كان يمثل في نظر « أحمد » الدنيا الرحيبة ، والعالم الكبير ، ذلك العالم الذي يستقبل في سكون وانتظام جيلا بعد جيل من المخلوقات ، وهو ثابت لا يتغير ، لا يخضع إلا لناموس التطور البطيء في كثير من الأحيان ، والتطور السريع أحياناً قليلة ، فهذه الحجرات بمظهرها المحسوس ، لم يتغير فيها شيء سوى بعض المظاهر ، التي لم تلحق الجوهر ولم تمسه . أما ساكنوها فهم الذين تغيروا ، وسوف يتغيرون بتوالي الأيام .

بالأمس قبل عامين اثنين كان المسكن يضم بين جدرانه أربعة زملاء ، ساروا خطوة ، من الدراسة الثانوية إلى مرحلة الدراسة الجامعية ، على اختلاف تخصصهم ، واتجاهاتهم في هذه المرحلة الأخيرة .

وقد انتهى اثنان من دراستهما ، وعادا إلى بلدهما عادا منذ عامين ، وقد شقا طريقهما في الحياة العملية ، بينما بقي

الجزء الأخير من هذه الجماعة « أحمد » و « حسين » يواصلان الدراسة في كلية الطب ، وبعد ستة أشهر سيتخرج هذان الاثنان ، ويلحقان بركب زميليهما في الحياة العملية .

وكأنما قدر لهذا المسكن – كأي كائن حي – أن يمر بظروف مختلفة ، فقد شهد الزملاء الأربعة مجتمعين ، ثم شهدهم متفرقين ، وها هو ذا الآن يستقبل وجوهاً جديدة ، تنضم إلى بقايا الجيل السابق ، « يحيى » شقيق « أحمد » و « خالد » شقيق « عصام » ، لقد وصلا إلى القاهرة منذ أيام ، واحتل « يحيى » حجرة « إبراهيم » بينما احتل « خالد » حجرة أخيه « عصام » وقد أصبح المنزل يضم أربعة أشخاص.

وعادت إليه الحركة منذ وصل الأخيران ، الحركة التي يبعثها مقدم وافد جديد ، بما فيه من تحمس للحياة الجديدة ، وما فيه من تساؤل وتشوق ، نحو كل ما يتصل بهذه الحياة .

وقد أصبح على « أحمد » – منذ وصول الوافدين الجديدين – أن يتحمل مسئولية جديدة ، أضيفت إلى مسئولياته الخاصة ، تتمثل في تنظيم أمورهما ، ومراقبتهما ، وقضاء ما يحتاجان إليه مما يتصل بحياتهم الجديدة ، وتبصيرهما بمقومات المجتمع الذي انتقلا إليه .

وجلس « أحمد » في حجرة الجلوس مفتر الأسارير ، مبتهج النفس ، وجلس بجانبه « حسين » بينما احتل « يحيى» ، و « خالد » مقعدين مواجهين .

كان ذلك بعد وصول الأخيرين ببضعة أيام . وكان مجلس الأربعة صورة أخرى في بعض مظاهره من المجلس الذى كان يضم الزميلين السابقين . وقد ضاعف من ابتهاج « أحمد » بلقاء أخيه ، هذه الطمأنينة التي استشعرها بعد القلق ، وكأنما يرى فيه صورة مصغرة من أهله وذويه ، تتجه إليها كل إحساساته المشوقة ، ويتزود منها بالنظر المتكرر ، لمسة من يد « يحيى » أو نظرة إلى عينيه تعيد له الاطمئنان الذي يحتاج إليه .

ولم يكن يكدر عليه هذا الاشراق النفسي ، سوى انشغاله بالتفكير في صحة عمه ، والذي ما برح يعاوده بين كل آونة وأخرى ، منذ أن علم بمرضه الذي ألم به قبل بضعة شهور ، ثم أبل منه بعد أن قاسى شدة عظيمة .

وتساءل « أحمد » للمرة العاشرة منذ وصول أخيه . وفي نظرته بريق التلهف إلى كلمة تطمئنه :

— كيف حال عمي قبل أن تتوجهوا من مكة ؟ .

وكرر « يحيى » إجابته التي رددها قبل ذلك :

— إنه بخير .

ثم أردف :

غير أنه يشكو من ضعف قلبه . وهو تحت علاج الطبيب ، متتبعاً نصائحه .

— واكتفى « أحمد » في هذه المرة بالإجابة التي توقع سماعها ، وانتقل إلى استقاء الأخبار الأخرى المتصلة بزميليه « عصام » و « إبراهيم » ، تلك الأخبار التي أصبحت في الأيام الأخيرة مدار حديثه مع « حسين » بعد أن اجترا أياماً وليالي ذكرياتهما الماضية معهما ، خلال الأعوام الأربعة التي قضوها سوياً في القاهرة .

وعندما نفد معين الذكريات ، تحولا إلى استقاء أخبارهما من الخطابات المتبادلة بين الطرفين .

وكان « أحمد » منذ سافر زميلاه على اتصال دائم بهما ، وكانت ترد إليه أخبارهما المتتالية في خطاباتهما التي لا تنقطع ، وقد سافر « عصام » — قبل عامين — دون أن يتزوج ، وقبل شهرين بعث خطاباً إلى « أحمد » وأشار فيه إلى أنه قد خطب شقيقته « زينب » وطلب منه تأييد رغبته لدى والده .

ولم ينتظر « أحمد » يوماً واحداً للتفكير في الأمر ، فقد خبر « عصاما » منذ طفولته ، وعرف الشيء الكثير من أخلاقه ، ومزاياه :

(شاب مثقف ، وأخلاق فاضلة ، ونفس سمحة ، وقلب كريم) .

قال ذلك في نفسه ، وردده عن إيمان وثقة، قبل أن يكتب به لوالده في ذلك اليوم .
وقد سارت الأمورحسب رغبة «أحمد» فسرعان ما لقى من والده ما يفيد قبوله وترحيبه ، ومن ثم تمت الخطبة ، فالعقد ، وحدد مقتبل العام الجديد موعداً للزفاف .

أما « إبراهيم » فقد تم زواجه منذ عام ، عندما قدم إلى القاهرة ، وغادرها بعروس جميلة ، سارت حياته معها في انتظام وهدوء .

وقد تلقى منه « أحمد » خطابات كثيرة ، يشير فيها إلى ارتياحه ، وسعادته في حياته الزوجية ، كان آخرها الخطاب الذي تلقاه قبل أسبوع ، يحكمه في الخلاف الذي وقع بينه وبين زوجته ، في اختيار اسم المولود المنتظر قدومه بعد شهرين .

في الوقت الذي كان فيه « أحمد » يتساءل في لهفة عن الأخبار ، والاستزادة منها ، كان « يحيى » يتحرك في مقعده قلقاً ، وينظر إلى ساعته ، ويردد نظره بين أخيه و « خالد » ، ولما أن ضاق ذرعاً بالانتظار قام فجأة من مكانه ، مستأذناً للذهاب إلى السينما برفقة زميله « خالد » ، ولم يجد « أحمد » بداً من الموافقة ، فغادر الحجرة بعد أن ألقى عبارته التقليدية :

ـ لا تتأخر في العودة .

وقام « حسين » على أثره متوجهاً إلى حجرته .

كانت الساعة الثامنة مساء و « أحمد » منكب على الاستذكار ، بنفس متفتحة للأمل ، مشرقة بالأماني التي بدت له في هذه اللحظة أقرب منالا ، كما بدت له المسالك إلى أمانيه أكثر يسراً وسهولة منها في أي وقت مضى . . لقد مضى الكثير ولم يبق إلا القليل ، خطوة واحدة يصل بعدها إلى القمة من أمانيه ، تلك التي بدت له قبل أعوام سراباً في صحراء ، وصوراً متشابكة في حلم طويل .

(ما أحلى الصبر إذا توج بتحقيق الآمال !! هكذا نحن نرى الطريق وعراً قبل أن نجتازه ، فإذا ما قطعناه بالمثابرة ،

والصبر ، والكفاح ، بدا سهلا ميسوراً لكل راغب .

لم أكن أتخيل هذه النتيجة بمثل هذه السرعة ، لقد طويت الأعوام وكأنها شهور ، بل أيام ، اجتزت خلالها السبل الوعرة ، نحو تحقيق الحلم الذي راودني منذ طفولتي .

لقد مررت بتجارب كبيرة الأثر في حياتي ، فهأنذا اليوم غيرى بالأمس القريب ، عندما قدمت إلى القاهرة ، وغيرى بالأمس البعيد ، عندما كنت صبياً في مكة .

لقد كانت حياتي هناك تتمثل كبقية الشباب في لعب الورق ، والأحاديث التافهة التي تدور حول محيطنا الضيق ، لا نستشرف البعيد مما يصطخب به العالم الذي حولنا ، وإن شطت أحاديثنا في يوم من الأيام فإنما تشتط للتغني ببطولة « هتلر » ودهاء « تشرشل » ونتشيع في مجالسنا لهذا المعسكر أو ذاك ، ثم يعود حديثنا إلى البحث في شئون الحج ، والحجاج ، والسكر الأحمر ، والرز المصري . والدقيق الكندي ، هذا لب الحديث ، وجوهره ، ومداره ، ومركزه ، أما مستقبلنا في هذا العالم . . .

ماذا أعددنا من أجله ؟ وبماذا تزودنا له ؟ كل تلك الأمور قد تركناها وراء ظهرانينا .

تلك فترة من الحياة عشت شطراً كبيراً منها ، وطويتها من حياتي ، وهأنذا الآن أعيش تجربة أخرى في مجال الحياة بعيدة كل البعد عما سبق ، وهذه الفترة سوف أطويها بعد ستة شهور فقط ، هي الخطوة الأخيرة من هذه الفترة الحافلة بالأحداث والتجارب) .

كان الليل يمر بخطواته الواثبة ، والمسكن سابح في سكون مطبق ، لا يقطعه سوى صوت السيارات المارة في الشارع البعيد . ودق جرس المسكن دقات متوالية أيقظت « أحمد » من تفكيره الذي ذهب به بعيداً عن جو المذاكرة ، وعن كتابه الذي بين يديه ، فنظر إلى ساعته وإذا بالوقت يشارف التاسعة ، وإذن فقد اقتطع من وقته ساعة من الزمن ، سبح خلالها مع أفكاره ، ساعة هو أحوج ما يكون إليها في هذا الوقت ، وفي هذه المرحلة من دراسته .

ووصل إليه وهو في جلسته تلك صوت الحديث الدائر على باب الشقة ، بين زميله « حسين » ورجل غريب لم يتبين صوته بوضوح ، ولم ينتظر على مقعده ، فقد غادر حجرته يستوضح الأمر ، وقبل أن يصل إلى منتصف الصالة واجهه « حسين » بعد أن أغلق باب المسكن ، وكان ممسكاً بيده رسالة برقية ، ومد إليه يده بالرسالة قائلا :

– برقية باسمك .

فتناولها « أحمد » بإحساس غير محدد المعالم ، لا تفاؤل ولا تشاؤم ، هناك مصادر كثيرة لهذه البرقية . ربما تكون من « عصام » أو من « إبراهيم » ، أو ربما تكون من القاهرة ذاتها ، أو من الإسكندرية .

ويمم شطر حجرته هادئاً ، أو متصنعاً الهدوء ، فقد تواترت الاحتمالات المتضاربة على ذهنه ، وتضاربت الافتراضات المختلفة في عقله ، فازدادت قبضته شدة وتمسكاً بالرسالة التي يحملها ، وتقاربت خطواته وهو متجه إلى حجرته ، وفض البرقية بيد مرتجفة ، وفؤاد واجف ، وركز نظره على نهاية الرسالة ، حيث قرأ التوقيع ، وإذا بها مذيلة باسم أبيه .

ولم يكن من الصعب عليه أن يلم بمحتويات البرقية ، وبنظرة شاملة قصيرة استطاع قراءتها ، وتجمدت نظراته على الورقة ، وهو يعيد قراءتها بنظراته المتلاحقة المتذبذبة يميناً وشمالا ، كأنما يستجدي الرسالة كلمة أخيرة ، تكذب ما ورد فيها .

ولما أن ارتد إليه بصره بالحسرة ، نادى بصوت متحشرج على زميله « حسين » حيث أقبل إليه مسرعاً ، فمد إليه يده بالبرقية المفتوحة قائلا له في صوت أعياه وقـــع المفاجأة :

ـ خذ البرقية واقرأها . . لقد مات عمي .

وتوقف « حسين » فجأة في مكانه ، وقد أذهله الخبر ، ثم تقدم وتناول البرقية من يد « أحمد » وقرأها صامتاً ، وقد بدا الاهتمام بالخبر على ملامح وجهه ، ولم ينبس ببنت شفة ، ولم يحول نظره عن البرقية التي يمسكها بيده ، وتمثل في ذهنه كل ما يذكره من الصور الحسية للرجل المتوفي : جسمه الممتليء ، وقامته الطويلة ، ووجهه المشرق ، وعينيه السوداوين ، وابتسامته الدائمة المرتسمة على ثغره .

كما تداعت إلى ذهنه صورته الخلفية في شتى حالاتها ، حسبما وعاه من أحاديث « أحمد » : مرحه الدائم ، ونظرته المتفائلة ، وأمله في الحياة ، وحبه لمن حوله من ذويه ، وأهله ، وأصدقائه ، وتعلقه الدائم بزوجته ، وابنته الوحيدة . وتفانيه في حبهما .

(ترى ما حالهما ؟) .

ورفع بصره إلى « أحمد » فرآه مستنداً بمرفقه على السرير ، مغمضاً عينيه في شبه إغفاءة ، بينما انقبضت أسارير وجهه ، وزاد الصمت الثقيل المخيم على الحجرة من إيضاح المشاعر التي تصطخب في وجدانه .

وفتح « أحمد » عينيه فبادره « حسين » قائلا :

— هذا أمر الله ، الموت نهاية كل حي .

وحاول « أحمد » أن يتكلم . . فأعياه الكلام :

(نعم الموت نهاية كل حي . . ما نحن في هذه الحياة إلا عابرو طريق ، نكد ونكدح ، ونعمل ونؤمل ، ونبني ونشيد ، وفي لحظة تنطفيء هذه الشعلة التي تصطخب في وجداننا ، وأفئدتنا . ما حياتنا إلا ذبالة خافتة ، إذا وافتها الريح انطفأت ، وعم الظلام ، أما هذا الوهج الذي تتوهمه ؛ فهو من صنع نفوسنا ، أو من وهم أفكارنا ، حياتنا هي هذه الذبالة الخافتة ، التي لا تقوى على الريح لحظة هبوبها . أما الآمال العريضة ، والأماني الممتدة ، فهي ظل نفوسنا ، يضاعفها الوهم الذي نسير فيه .

وهذا مصباح مضيء في أسرتنا لم يقو ضووه القوي ، ووهجه المستمر ، على مقاومة الريح التي أطفأت شعلته المتقدة) .

وطال صمت « أحمد » في غمار تفكيره في الحياة ، والموت ، والآمال ، والأماني ، سلسلة متصلة من الأفكار باعدت بينه وبين واقعه ، وإن كان واقعه هو الذي قاده إلى هذا التفكير ، وقال في صوت وان ضعيف ، موجهاً الكلام إلى « حسين » :

– ما رأيك ؟ .

وقال « حسين » متسائلا في صوت بدا فيه التأثر ، ووضح الحزن على نبراته :

– في ماذا ؟ .

فأجابه « أحمد » :

– في سفري إلى مكة ، إن أبي وحيد ، وأخشى أن يكون الحادث قد أفقده شيئاً من هدوئه .

وتساءل « حسين » متعجباً :

– والدراسة ! ! .

فرد عليه « أحمد » :

– بضعة أيام فقط .

وأجابه « حسين » :

– إذا كان الأمر كذلك فإني أرى ضرورة سفرك .

وعقب « أحمد » قائلا :

– إن الذي يهمني في هذا الظرف حالة أسرة عمي ، لا أدري ما وقع الحادث عليهم ؟ وإن كنت أتصوره على هدى ما أعرفه من الحب الذي يربط بينهم ، لقد كان الحب بينهم كالروح التي هي سرحياتنا وبقائنا . أنا لم أر أسرة ربط الحب بين أفرادها كهذه الأسرة الصغيرة ، ولا أدري سر ذلك . أهو إحساس منهم بقصر أجل السعادة ؟ دفعهم إلى أن يكونوا أكثر احتفالا بها ، وأشد تعلقاً بأهدابها ، في هذه الفرصة القصيرة المتاحة لهم على غفلة من الزمن .

لقد كانت حياتهم سعادة حقيقية متصلة ، لا يشوبها كدر ، ولا يعكر صفوها اختلاف في أمر من أمور الحياة .

وبادره « حسين » قاطعاً عليه استرساله في الحديث بقوله :

– « لكل أجل كتاب » أزح الآن هذه الأفكار بعيداً ، وفكر في إجراءات السفر ، وأرى أن تعجل عسى أن يكون وجودك بينهم عاملا في تخفيف وقع الحادث ، وحدة تأثيره .

ورن جرس المسكن فأسرع « حسين » يستقبل « يحيى »

و « خالد » على الباب ، وقادهما إلى حجرته ، وفي أسلوب لبق ألقى إليهما بالخبر .

ورفع « يحيى » صوته بالبكاء، وأقبل مسرعاً على حجرة أخيه ، وكأنما كان إقباله في هذه اللحظة هو الشعلة التي يلقى بها على الوقود ، فتذكيه وتشعله . فما إن رآه « أحمد » حتى ضج هو الآخر بالبكاء ، وانحدرت دموعه التي احتبسها منذ تلقي الخبر ، وجلس الشقيقان متجاورين على السرير ، وخيم الصمت الحزين مرة أخرى على الحجرة . قطعه « يحيى » بعد فترة طويلة بقوله :

— مسكينة « فاطمة » ما أشد تعلقها بأبيها ! ! وما أعظم حبها له ! ! إني أتمثل ألق البهجة الذي يلمع في عينيها عندما ترى والدها وهو عائد إلى المنزل واستقبالها له على باب المجلس ، وعلى ثغرها الابتسامة التي تعبر عن مبلغ سعادتها برؤيته ، ما أجمل هذا الحب ! وما أشد أن تتلاشى هذه السعادة في لمح البصر ، وتصبح أثراً بعد عين ! ! .

وكان « أحمد » خلال حديث أخيه مصغياً إليه . . بقلبه ، وحواسه المتيقظة ، بينما شردت نظراته عبر ظلام الأفق البادي من فتحتي النافذة ، وكأنه الغيب المجهول ، لا يدري ما وراءه •

وتمثل وهو مصغ إلى حديث أخيه كل ما يذكره عن عمه ، من طريقة سيره، وضحكاته، إلى كلماته العابرة ، وأحاديثه الشيقة ، إلى حركات يديه ، وإشاراته وهو يتحدث، إلى تعبيرات سماته وهو يصغي إلى محدثه .

وبدا لـ « أحمد » ـ وهو يذكر كل شيء عن عمه ، حتى ما ضوئل من هذه الذكريات ـ أن ذهنه قد اختزن الجليل والتافه من هذه الذكريات ، انتظارا لهذه اللحظة الحزينة ، وليبدو المصاب أجل مما يتصوره قبل وقوعه ، وأشد مما يتوقعه قبل حدوثه .

وفي مثل هذه اللحظات يحمد الصبر ، ولكن ما أفدح الثمن ! لقد تصور موقف « فاطمة » تلك الصغيرة المصابة في عزيزها :

(هل تثبت للمصاب ، وتتماسك أمام الحديث ؟ .

وأنى لها مثل هذه القدرة ، وهي لم تتعد عمر الزهور؟ .

لقد كانت أيامها أعياداً متصلة في كنف والدها ، وكانت حياة والدها جزءاً من كيانها ، وجانبا مهماً من أسباب

سعادتها ، بل كانت حياته جل سعادتها ، وسر بهجتها ، وتفاؤلها ، وابتسامتها الدائمة).

وشعر « أحمد » بضرورة التحدث مع أخيه فيما عزم عليه ، فأخبره برغبته في السفر ، ووجد منه تأييدا لرأيه ، وما لبث بعد قليل أن أمر أخاه بالذهاب إلى حجرته ، ومن ثم أغلق باب الحجرة وراءه انتظاراً ليوم جديد ، بل توقعاً لليل طويل ، يبرم فيه أمره ، في خلوة لا يعكر هدوءها بكاء أو عويل .

واستيقظ « أحمد » مع الفجر الباكر ، وقد احمرت عيناه ، وذبل رونق وجهه ، وظهر أثر الإجهاد على سماته الحزينة المنقبضة ، ولم يضع وقته بل بادر إلى مغادرة المنزل برفقة « حسين » .

وما وافى الظهر حتى كان قد انتهى من اتخاذ إجراءات السفر . وحجز مكاناً في الطائرة التي تغادر القاهرة ظهر اليوم التالي . .

١٦

(**ماأشبه** لحظات التفاؤل في حياتنا بومضات البرق في ليل ممطر !! تومض فجأة ثم تنطفيء فجأة، ويزداد شعورنا في هذه اللحظات بالرهبة من اسوداد الظلام ، ويشتد إحساسنا بدنو الخطر ، وتوقعه ، حيث تكون الومضة إعلاناً لصراع السحب ، وانطلاق صوتها المزمجر في قوة وعنف .

لكأن الأقدار تضن علينا في لحظات الإشراق القصيرة أن تمتد آمالنا إلى أبعد مما تقدره لنا ، ما أعظم الفرق بين لحظتين متتاليتين ، لا يفصل بينهما إلا هذا الخيط الواهي من الزمن ! !).

هذا ما حدث به « أحمد » نفسه وهو يركب الطائرة ، ويتخذ مقعده فيها ، وقد بدأ يثبت حزام المقعد حول وسطه.

لقد كان قبل أن يتسلم البرقية يفكر في دنو أمانيه ، وقرب تحقيقها هي لحظة التفاؤل التي أشرقت بعد طول انتظار ، ولكن الأقدار — كما عبر عنها — أبت إلا أن تنقله

في اللحظة ذاتها من طرف إلى طرف ، من اليمين إلى الشمال ، ومن الذروة إلى الحضيض .

كانت أمنيته طوال غربته الطويلة أن يلتقي بأهله ، وأسرته ، في وقت حدده لنفسه ، ورسم للمقابلة كل ما شاء له خياله أن يرسمه ، مقابلة موشاة بالابتسامات العريضة ، والشوق المتأجج . في يوم سعيد تشرق شمسه بالسعادة التي تشمل أفراد الأسرة .

ما أعظم الفرق بين ما رسم وبين ما وقع ! ! فها هو ذا اليوم يتوجه إلى أهله ليقابلهم بالصمت الحزين ، ويستقبلونه بالدموع على مصاب الأسرة في رجلها الراحل .

وأحس باختناق من عبرة تحاول الإفلات من مآقيه ، فاستدار إلى يمينه ، وأرسل بصره عبر النافذة حيث بدا البحر تحت امتداد النظر أزرق صافياً ، ووصل إلى سمعه لأول مرة صوت الطائرة ، وهي تشق الأجواء في طريقها إلى جدة .

وأغمض عينيه محاولا أن يغفو إغفاءة قصيرة ، تزيح عن إحساسه المكدود ضغط الحزن الذي عاش فيه ، منذ أن تلقى خبر وفاة عمه . ومضى الوقت بطيئاً متثاقلا ، وكأنما الإحساس بالحزن قيود تعيق الزمن عن السير والانطلاق .

وحينما حطت الطائرة على أرض المطار اتخذ طريقه بسرعة نحو باب الخروج ، وأنهى جميع الإجراءات التى تتخذ في المطار ومن ثم خرج نحو الميدان ، حيث تتجمع سيارات الأجرة .

وفي طريقه إلى مكة ، عبر الطريق الطويل اتكأ بيمناه على مسند السيارة ، وراح في إغفاءة هي إلى الصحو أقرب ، فقد كانت أعصابه متيقظة ، كأنما شدت من أطرافها بقبضات من حديد . وفتح عينيه بعد أن اجتازت السيارة جزءاً من الطريق المؤدي إلى مكة .

وبعد أن أحس بلفحة الهواء الدافيء ، واستقبل بذلك طقساً جديداً طال عهده به ، وهو طقس الطريق الصحراوي ، ذلك الطريق الملتوي بين الجبال حيناً ، والمنطلق عبر الرمال حيناً آخر ، ومد بصره إلى الأمام حيث بدا الطريق أسود منبسطاً ، وكأنه ثعبان هائل ، أرهقه القيظ فارتمى على الرمال وصافح بصره منظر الجمال القليلة المتناثرة ، وهي ترعى الكلأ في سفوح الجبال ، على أطراف الطريق .

وأحس بالهدوء النفسي وهو يستسلم لهواء الصحراء ، وصمتها العميق ، وراح في عملية ذهنية متعاقبة وهو صامت

في مقعده ، يحاول كلما مرقت السيارة في منحني من منحنيات الطريق أن يستعيد تذكر ما يليه ، وما يتوقعه من منظر يواجهه بعد حين ، وتصور نفسه وكأنما هو أمام لجنــة من لجان الامتحان ، تتابعه بالأسئلة المتعاقبة ، في مادة لم يستذكرها بعد .

وتوالت محطات الطريق التي يذكرها ، ولم تغب عن ذهنه « أم السلم » ثم « بحرة » ثم « حداء » ثم « الشميسي » ومقاه صغيرة متناثرة عبر الصحراء ، أقيمت من الخشب والصفيح ، وعبارات الترحيب والنداءات المتتالية ، تشق الصمت الموحش ، كلما لاحت سيارة على مدى النظر .

المناظر ذاتها لم تتغير ، ولم تلحقها يد التجديد ، وأحس بسحابة خفيفة من خيبة الأمل ، فالصحراء هي الصحراء ، و « بحرة » هي « بحرة » لم يتغير شيء فيها مع الزمن ، سوى أشجار « النيم » المغروسة أمام المقاهي ؛ فقد نمت ، وظللت ما تحتها ، وكانت قبل سنوات شجيرات لا تقوى على مواجهة الريــح .

ولكنه سرعان ما استعاد تفاؤله عندما لمح لوحة مثبتة على إحدي البنايات الصغيرة ، وقد كتب عليها : « المدرسة

الإبتدائية » يد الزمن ما زالت تعمل ، والتطور وإن كان بطيئاً فإنما يشير إلى أن العجلة مستمرة في دورانها ، فهاهنا مدرسة ابتدائية في هذه القرية الصحراوية الصغيرة .

ولا شك أن قرى كثيرة مثل هذه القرية قد بدأت تفتح أعينها فجر كل يوم على صبيان القرية وهم يحملون كتبهم في أيديهم ، يؤمون مدارسهم بانتظام ، مثل أبناء المدن سواء بسواء .

ولا شك أن صبيان القرى قد بدءوا يلغطون في أمسياتهم بما حصلوا عليه من معلومات ، يستمع إليها آباؤهم بأفواه فاغرة ، وكأنها ألغاز من السحر ، أو رموز من لغة الجان .

واجتازت السيارة مدخل مكة ، فدق قلبه دقات متتالية ، لا يدري أهي فرحة اللقاء أم رهبة الموقف الذي سيواجهه ؟ فقد كان إحساسه خليطاً من هذا وذاك .

ست سنوات قضاها بعيداً عن أهله ووطنه ، وها هو ذا الآن في خطوة واحدة يعود إلى دنياه التي تركها ، وذكرياته التي أودعها كل شبر من تربة هذه الأرض . وبنظرة إلى وجوه العابرين استعاد ذهنه صورة مدينته التي بعد عنها سنوات

طويلة ، وأشد ما كانت دهشته حينما تراءت له شوارعها أضيق مما يذكرها ، والمنازل أقل إرتفاعاً ، وأضأل حجماً ، مما تركها .

وعجب من نفسه وتساءل :

(أتغيرت مكة ، أم أنا الذي تغيرت ؟) .

تساؤل يوميء إلى حيرته، وانتزعه من تفكيره صوت الباعة في الشارع العام ينادون بأصوات مرتفعة أمام حوانيتهم ، على الخبز ، واللحم ، والفواكه ، والخضروات، كما افترش كثير من الباعة المتجولين أرض الشارع ، وتشابكت أصواتهم ، واختلطت نداءاتهم بأصوات المشترين والعابرين .

وسارت السيارة بين كتل متراصة من البشر تتحسس طريقها في بطء نحو غايتها .

وأمام منزل عمه في الرحبة الواسعة ، وقفت السيارة ونزل منها ، وبعد أن نقد السائق أجره رفع بصره إلى المنزل، حيث رأى طوابقه الثلاثة تسبح في الأضواء المتلألئة ، ولكن الصمت كان يخيم على المنزل عامة .

لم تكن هناك نأمة أو صوت مرتفع ، وبدا المنزل — على ضخامته — وكأنه يرزح تحت عبء ثقيل من الحزن . كان صمته ينطق بالوحشة بالرغم من أضوائه . كان أشبه بالمقابر في الليالي المقمرة .

وتمهل « أحمد » في خطوه قبل أن يجتاز عتبة الدار ، وهو يواصل النظر إلى نوافذ المنزل ، وكأنما يستجليها كلمة ترحيب ، أو نظرة تحية .

واجتاز دهليز الدار حاملا حقيبته المتوسطة الحجم ، وصعد الدرج متأنياً إلى أن شارف باب الطابق الأول ، ووصل إلى سمعه حديث خافت ، فوضع الحقيبة في مواجهة المجلس ، ثم وقف على الباب .

وبعد أن ألقى نظرة عاجلة يتفحص بها من في المجلس ، أدرك أن أباه يتصدر الجالسين ، أدرك ذلك حدساً لم يرق إلى درجة اليقين ، فقد بدا الرجل وكأنه صورة من أبيه الذي يعرفه .

وسلم في دهشة مشوبة بالتساؤل والتردد ، لم ينقذه منها

سوى صوت أبيه الخافت ، هتاف ضعيف سمعه في وقفته القصية بوضوح وجلاء . قائلا :

— « أحمد » !

وقفز في خطوة طويلة إلى حيث يقف أبوه ، وارتمى على صدره ، ثم أخذ يلثم يديه ورأسه .

وقام كل من بالمجلس وقد استولت عليهم الدهشة من قدوم « أحمد » المفاجيء . ومرت فترة استسلم فيها «أحمد» للصمت الذي خيم على المجلس ، يجمع فيها شتات أفكاره ، ويتنفس خلالها من وقع المفاجأة عليه ، فقد كان في تقديره أن مفاجأة قدومه ستكون أقوى من الموقف الذي سيواجهه ، وإذا به يصدم بالموقف الذي لم يقدره ، ولم يدخله في حسبانه .

هذا التغيير الذي يلحظه على أبيه أهو من فعل الزمن أم من تأثير الحادث الأخير ؟ . إنه لا يرى في أبيه الآن إلا صورة بعيدة كل البعد عن الصورة التي اختزنها في ذاكرته ، والتي عاش على لمحاتها طوال السنوات الست التي أمضاها في مصر ، صورة كانت تنبض بالحياة والقوة ، أما هذه الصورة التي يراها الآن فما هي إلا نسخة مختزلة من النسخة القديمة .

لقد سرى الشيب في رأس أبيه وفي عارضيه ، وازداد نحوله ، وبدا الاصفرار واضحاً على أديم وجهه ، كما خبا توهج عينيه المتقدتين ، وكان يبدو في جلسته أشبه بحطام رجل ، مرسلا نظراته الشاردة في تفكير عميق .

واحتار « أحمد » بعد أن غرق في دوامه الصمت ، دار معها في دورانها المستمر :أي سؤال يفتح به الحديث ؟ لقد مرت ثلاثة أيام منذ وفاة عمه ، وما زال المنزل وسكانه يعانون من وقع المفاجأة ، ويقاسون من شدة وقع الصدمة.

بدا ذلك واضحاً في هذا الصمت الموحش الذي رزح المنزل تحت ثقله .

وقال « أحمد » أخيراً وفي صوت خافت :

ـ عسى ألا أكون قد أخطأت في قدومي إليكم بهذه السرعة .

وجاء صوت من بين الجالسين عرف فيه صوت الشيخ « سالم » :

ـ لقد أحسنت في ذلك من غير شك . فإن والدك ، وأسرتك ، في حاجة إليك في هذا الوقت . إن الصدمة كانت مفاجئة كما كان وقعها أليماً على الأسرة . هذه إرادة الله على كل حال . ولا راد لقضائه وإرادته .

وتوجه « أحمد » إلى أبيه قائلا :

– وهل كان يشكو من مرض بعد إبلاله من الوعكة السابقة ؟ .

فرد عليه أبوه في صوت حزين :

– لقد كانت الوعكة السابقة أزمة قلبية ، وكانت صحته في تقدم مستمر ، وكان قبل وفاته بيوم واحد ؛ أنضر ما يكون وجهاً وأكمل ما يكون صحة وعافية . وفي صباح يوم وفاته جاء إلى الدكان مستبشراً من شعوره بالصحة ، ومتفائلا جداً ، وقد بدا ذلك في مرحه ، وضحكه مع الشيخ « سالم » وبعد ساعة شعر بألم بسيط ، واستأذن مني في العودة ، وعاد وحده . وبعد ذهابه بربع ساعة تملكني قلق شديد ، فتركت الحانوت وتبعته إلى المنزل ، ولم يكن بين وصولي ووفاته أكثر من دقيقتين ؛ فقد عاودته الأزمة بشدة خلال الدقائق التي سبقت وصولي إليه . ولم يكن لوصولي إليه أية فائدة ، فقد كان حديثه معي مقتضباً ، كان إشارة بعينيه إلى زوجه ، وابنته ، لقد بدا لي آنذاك أن بعينيه دمعة حائرة ، يحاول إخفاءها عنهما . وصعدت روحه في تلك اللحظة .

وتأنى الشيخ المتهدم في حديثه ، وقد تحشرج صوته بالبكاء ، وأخلد الجالسون إلى الصمت ، وأطرقوا برءوسهم إلى الأرض .

وحاول الشيخ « عبد الرحمن » أن يستأنف حديثه ، ولكن الشيخ « سالما » قاطعه قائلا :

– اتركه يصعد إلى العائلة ، ولا أظنهم قد علموا بوصوله .

وقام « أحمد » متثاقلا بعد أن انثالت على ذهنه أسئلة كان يدرك مدى أهميتها بالنسبة إليه :

(ما وقع المصاب على « فاطمة » ؟ وعلى والدتهـا « صفية ») ؟ .

إنه يعرف في « فاطمة » قوة حساسيتها نحو الفواجع العادية ، فكيف بها وقد فجعت في أعز شخص لديها ؟ لقد كان انتظارهـا لأبيها كل يوم جزءاً مهما من برنامجها اليومي . . تعد له الدقائق والثواني ، من وراء نافذتها المطلة على الرحبة الواسعة . .

هكذا يمحى أهم جزء من برنامجها اليومي . . وبماذا

تستعيض بدله ؟ لم يبق لها إلا ذكرى تلك اللحظات الباسمة

وبعد أن استأذن في الخروج عاد إلى أبيه حيث يجلس ، فقط استيقظ في نفسه الخوف من المفاجآت ، وسأل أباه بصوت خفيض :

– كيف حال « فاطمة » ؟ .

ولم يرد عليه والده ، بل أغمض عينيه ، وكأنه يطرد من أمام ناظريه شبحاً مخيفاً ، أو يبعد بذلك صورة حزينة ، حاول نسيانها .

وكرر « أحمد » السؤال بقلب واجف .

وجاء الجواب :

– ادع لها بالصبر والسكينة ، فمنذ وفاة والدها وهي لا تعي من أمرها شيئاً . لقد كان وقع المصاب عليها شديداً لم تقو على احتماله ، وقد لحظت عليها اليوم ارتفاعاً في درجة الحرارة . ولا أرى ماذا أعمل ؟ .

ولم يجد « أحمد » بداً من مغادرة المكان ، فقد أعياه الجواب ، بعد أن وضح الأمر أمامه ، وتحقق ما كان يتوقعه منذ أن وصل إليه خبر وفاة عمه .

١٧

كان المنزل في تلك الليلة قد خلد إلى السكون ، وخيم عليه الصمت ، بعد انقضاء الأيام الثلاثة التي تلت وفاة « عبد الرحيم » . وكان الشعور بعمق السكون حاداً بعد عودة الأقرباء ، وذوي الأرحام ، إلى منازلهم ، وبعد أن انفض جميع المعزين . فأصبح سكان الدار يواجهون ذكريات راحلهم وجهاً لوجه لأول مرة منذ وفاته :

(هنا كان مجلسه المفضل وقت السمر ، وهذا الجانب كان يحتله صباح كل يوم بعد تناول الإفطار ، يواجه زوجه وابنته ، وهو يجاذبهما أطراف الحديث ، قبل انصرافه إلى عمله ، وهذا المسمار المثبت في الجدار كان يعلق عليه معطفه) .

معالم صغيرة لم يتوقع أحد أن يكون لها شأن يذكر ، وإذا هي بعد وفاته وكأنما قد دبت فيها الحياة ، فتحولت من جماد صامت إلى كائن حي ، ينطق ، ويشير ، ويتحرك

وكانت زوجه وابنته أعرف الناس بهذه اللغة التي ينطق بها الجماد ، ولم يكن مجلس السيدات يضم في هذه الليلة سوى « صفية » وابنتها « فاطمة » ، و « خديجة » والدة « أحمد » وبنتيها « زينب » و « زين » .

وكانت « فاطمة » ترقد في أقصى المجلس ، وقد تدثرت بشرشف من البوال الأبيض الخفيف ، فلم يظهر سوى رأسها ، وكانت مفتحة العينين ، تائهة النظرات ، تنظر إلى سقف المجلس في شرود ، وكانت كل من « زينب » و « زين » تحتل جانباً بالقرب منها . وكان يصل إليها همس متقطع من والدتها ، وخالتها « خديجة » اللتين احتلتا مكاناً لهما في مواجهة الباب .

وقالت « صفية » في صوت هامس حزين :

ـ سوف أتصدق بجميع ملابسه غداً على المستحقين من الفقراء ، وسنحتفظ بحلة واحدة فقط .

وأجابتها « خديجة » في مثل صوتها الهامس :

ـ لا تتعجلي الأمور فـ « فاطمة » لم تفق بعد من وقع الصدمة ، وأخشى ما أخشاه أن ترى ملابس والدها ، وتقع عيناها على ما يذكرها به ، اتركي لي هذه الأمور ، وسوف أتصرف فيها على مهل .

فردت عليها « صفية » وهي تجفف دموعها المنسابة :

– إني أخشى على نفسي ، وعلى « فاطمة » ، من هذا البيت ، ففيه كل ما يذكرنا بأبيها ، إن « فاطمة » لم تزل صبية ، وإني متشائمة من رقدتها ، إن حالها يدعو إلى اليأس .

على أن « خديجة » مالبثت أن قاطعتها قائلة :

– كنت أتمنى أن يكون « أحمد » بجانب والده في هذه الأزمة ، ربما يكون لوجوده بيننا في هذه الفترة أثر في تخفيف حدة الحزن ، ونتصرف في أمورنا على هدى وبصيرة .

وكأنما جاء ذكر « أحمد » ليثير في نفس « صفية » كل ما يذكرها برجلها الراحل ، فقالت وقد دمعت عيناها مرة أخرى :

– لقد ذكره عمه قبل الوفاة بيوم واحد . إن صدى كلماته ما زال يرن في أذني وهو يقول :

– لقد طال غياب « أحمد » . . ترى ما حاله ؟ .

وكانت « فاطمة » تجلس غير بعيد من والدها ، حينما التفت إليها قائلا وهو يضحك :

– يجب أن تتدربي يا « فاطمة » على التمريض ، لتساعدي « أحمد » في عمله ، وسوف أشترط عليه أن يصرف لك راتباً مقابل عملك .

وارتبكت « فاطمة » من حديث والدها ولم تجبه ، ولاذت بالصمت على غير عادتها ، وأطرقت تنظر إلى الأرض في ابتسامة حزينة .

وصمتت « صفية » فترة قبل أن تقول :

– ترى هل ألمت بأن والدها سوف لا يرى « أحمد » ولا يتحدث معه هذا الحديث الباسم ؟ ربما . .

ووجدت « خديجة » نفسها تشارك « صفية » في البكاء ، ولكنها عادت إلى نفسها ، وتجلدت مرغمة . وانقطع الهمس الدائر بين السيدتين ، وأصاختا السمع إلى خطوات تقترب من باب المجلس .

كان « أحمد » قد ترك والده مع صحبه ، بعد أن استأذن منه في الصعود إلى الطابق العلوي ، وقد سرى فيه شعور بثقل المهمة ، يزداد كلما اقترب من الطابق الذي يقصده ، فبدت خطواته ثقيلة ، وبدأ هـو متردداً بين الإقـدام والإحجام . لقد أحس لأول مرة بأنه غريب يقتحم مواطن

غريبة عليه ، رغم الألفة التي شعر بها وهو يدخل المنزل قبل ربع ساعة ، ورغم الارتياح الذي أحس به منذ أن عزم على التوجه إلى ذويه قبل ثلاثة أيام . ولعل ما لاحظه من التغير الذي طرأ على ملامح والده بفعل الأعوام ، ومرور الزمن ، أو بفعل الأحداث التي حفلت بها هذه الأعوام الستة كان له أكبر الأثر في إحساسه بغربته ، وهو الذي عاش بإحساسه السابق بين الصور التي انطبعت في ذاكرته ، وما زالت عالقة بها خلال غربته في الأعوام الستة الماضية :

(أين صورة أبيه ؟ الصورة التي اختزنها له في ذاكرته ، وعاش معها حتى أحس نحوها بالألفة ، وكان يركن إليها في فترات متقاربة خلال غربته ، ويحس في تمثلها بالهدوء والطمأنينة) .

هل تغير أبوه حقاً أو أن إحساسه هو قد تغير ، أو أن ذاكرته لم تحتفظ من تجاربه السابقة بغير الصور الباسمة ، من حياته مع والديه واخوته ، ففوجيء في المقابلة الأولى بعد عودته بما صدمه في وجدانه ، ومحا كل تلك الصور المشرقة الضاحكة ، صور اللحظات السعيدة التي يذكرها

بكل دقائقها ، وحركاتها المستمرة ، بالرغم من تقادم العهد بها ؟ لقد رأى أباه ــ منذ لحظة ــ حزيناً ، صامتاً ، وإذا تكلم فكلامه همس ضعيف ، لقد هزل جسمه ، وشاب شعره وتجعد وجهه ، وخبا ذلك التألق الذي كان يطالعه دائماً في عينيه . وعاودته الأفكار ثقيلة مضنية :

(وإذن فما مصير أمي ؟ هل أعرفها عندما أراها الآن أو أحتاج إلى لحظة أدور فيها بناظري على الجالسات ؟ وأحقق في كل وجه ، وأوازن بينه وبين الصور التي بهتت مع الأيام ، وحال لونها الزاهي مع مرور الزمن) .

وكان قد وصل ــ حينذاك ــ إلى باب المجلس ، وإذا بأمه ، وزوجة عمه ، في مواجهة الباب ، وفغرت كل منهما فاها مشدوهة ، و « أحمد » واقف على الباب ، وكأنهما لا تصدقان أعينهما ، وهو الآخر توقف لحظة ، وكأنه لا يصدق عينيه ، فهذه أمه هي هي لم يتغير فيها إلا القليل . لقد عرفها بصورتها التي احتفظ بها في ذاكرته ، لم تتغير سماتها كما تغير أبوه .

وارتمى على صدر أمه كطفل غرير يلوذ بمن يحميه .

الصورة القديمة ترسمها الأقدار مرة أخرى . لقد دفعه الظمأ بقوة إلى ضم أمه ، الظمأ إلى الحنان الذي حرم منه ست سنوات طوال .

وفي لحظة عابرة قصيرة تمثل طفولته السعيدة ، حينما كأن يأوي دائماً إلى هذا الصدر الحبيب ، صدر أمه :

(كيف استطاع أن يبعد عنها ست سنوات ؟ وكيف صبر على الحرمان القاسي خلال غربته ؟) .

وأحس بقطرات من دموعها تنساب على مؤخرة عنقه، فاستسلم لفيض العطف ، وبكى هو الآخر .

(ما أشد حاجتنا في كل خطوة نخطوها في هذه الحياة إلى معين يمدنا بالقوة! والمعين بين أيدينا، إنه قلوب أمهاتنا)

وتأنى « أحمد » لحظة ، وتوالت خفقات قلبه ، وكأنما آب من رحلة طويلة قطعها عدواً متلاحقاً ، لم يحظ خلالها براحة .

وبعد أن أحس بالهدوء التفت إلى من بالمجلس ، فرأى خالته « صفية » ، فسارع إليها ، وكانت قد تقدمت نحوه

خطوة ، واحتضنته في حنان ورفق ، ثم سلم على أختيه « زينب » و « زين » .

وحينما رأى « فاطمة » وهي مستلقية على فراشها في أقصى المجلس ، عاودته النظرة الحزينة ، وتقدم إليها في خطوات بطيئة ، بعد أن استلفت نظرها دبيب الحركة التي سرت في المجلس ، وأحست بالمفاجأة ، وتحركت عيناها في محجريهما حركة عصبية ، وكأنها لا تصدق ما ترى ، أو أنها تحاول التحقق من صدق ما تراه .

وحاولت أن تنهض من رقدتها فلم تستطع ، فتململت في مكانها ، وظهر على سماتها الضيق ، والضجر ، من فشلها في تحقيق رغبة ودت لو تنجح في تحقيقها . ووجدت نفسها في مواجهة « أحمد » بعد أن سلم عليها ، وقد احتاط بهما بقية أفراد الأسرة ، ولم يستطع « أحمد » أن يتكلم ، أو يفتتح الحديث ، والتفت إلى من حوله كمن يطلب النجدة ، فسارعت أمه إلى الحديث قائلة في حنو ورقة :

– لقد قدمت في الوقت المناسب ، إننا في حاجة إليك في هذا الوقت .

وانتظرت لحظة كأنما تتذكر أمراً سها عليها ذكره ، فتساءلت :

– متى تنتهي من الدراسة ؟

وأجابها « أحمد » وهو يرسل نظرة سريعة على المجلس :

– بعد ستة أشهر سوف أنتهي ، وسأكون بينكم بعد انتهاء هذه المدة .

وأعاد النظر مرة أخرى ، كأنما يبحث عن شيء يفتقده ، فقد تمثل صورة هذا المجلس ليلة عقد قرانه ، ووازن بين تلك الصورة والصورة الحالية ، فلم يجد شيئاً محسوساً قد تغير فيه ، حتى الضوء لم يكن أشد قوة من هذه الليلة . ومع ذلك فهو يشعر الآن بافتقاد شيء في هذا المكان ، شيء كان يحس به في تلك الليلة البعيدة قبل ست سنوات ، ولم يكن يعرف كنهه ، أو يحدد أبعاده ، كان يحس به في أعماقه يدفعه في تلك الليلة البعيدة إلى أن يبتسم لكل ما يراه ، ويتفاءل بكل كلمة عارضة يسمعها ، كان يحس بالأضواء وهي تتراقص أمامه ، وكأنما هي كائنات حية تشاركه فرحته ، وهذا الجماد الذي يحس بصمته اليوم ، كان يبدو في تلك الليله البعيدة ، وكأنه شخوص تتكلم ، وتبتسم له ، وتشاركه الاحتفال بليلته الخالدة .

أما الليلة فقد خرست الأحجار ، كما فقدت الأضواء تلألؤها ، بل تهيأ له أن كل ما يضمه المكان قد حال لونه ، وخبا بريقه .

وزحف في جلسته إلى الوراء مبتعداً عن « فاطمة » ، واتكأ على الوسادة صامتاً ، مرسلا نظره في شرود .

وسألته أمه عما إذا كان يشعر بالجوع ، فرد عليها بإيماءة من رأسه بالإيجاب ، وأردف قائلا :

ـ لم أذق الطعام منذ البارحة ، ومع ذلك فإني لا أشعر بالجوع .

وردت عليه خالته « صفية » :

ـ لا بأس من عشاء خفيف ، سوف نهيئه لك على عجل وقامت « زينب » متجهة إلى المطبخ لإعداد العشاء لأخيها .

وكانت « فاطمة » خلال ذلك تلتفت بين كل آونة وأخرى مصيغة إلى الحديث الدائر على قرب منها ، من غير أن تشارك فيه .

كما لم يحاول « أحمد » – من جانبه – الالتفات إليها كثيراً وإن كان يشعر في الوقت ذاته باهتمامها بقدومه ، من نظراتها الخاطفة ، وانفعالها الذي ظهر على سماتها واضحاً منذ دخوله المجلس .

وقد شعر بالحرج وهو في مكانه عندما تجاذبه إحساسان متناقضان ؛ إحساس بالشوق يدفعه إلى إعادة النظر إلى « فاطمة » بعد فترة من الغربة باعدت بينهما ستة أعوام ، وإحساس آخر يدفعه إلى احترام عاطفتها الحبيبة ، تلك العاطفة التي تمثلت في نظراتها الخاطفة ، وهي تنظر إليه بين كل لحظة وأخرى ، وفضل أن يجنح – على كره منه – إلى عدم إحراجها بنظراته .

ودار الحديث بعد ذلك حول دراسته ، وعن الأعوام الستة التي قضاها بعيداً عنهم ، وأفاض في وصف حياته ، وطريقة معيشته في المنزل الذي يسكنه ، وكان كلما تمهل في حديثه هنيهة عاجلته أمه بسؤال آخر يتصل بهذا الحديث ، وأحس بمحاولة أمه المباعدة بينه وبين الأسئلة التي تتصل بعمـــه .

أحس بذلك في أسئلتها المتتالية ، ولفتاتها المستمرة إلى

« فاطمة » التي كانت تصغي إلى الحديث الدائر بإهتمام .

واطمأن « أحمد » إلى أن قدومه قد حل في الوقت المناسب ، فقد زال الوجوم الذي كان يخيم على المكان ، وسرت الحركة في المنزل ، وهي وإن كانت حركة بطيئة يسيطر عليها التحفظ ، إلا أنها تبشر بإمكانية النجاة من دوامة الحزن ، التي عاش فيها أهله .

وتفاءلت « صفية » لأول مرة منذ وفاة زوجها عندما التفتت إليها « فاطمة » تطلب منها عصير الليمون ، الذي سبق أن رفضته في الأيام الثلاثة الماضية .

وابتسمت والدة « أحمد » ابتسامة خفية لم يلحظها غيره ، وأومأت برأسها تشير إلى « فاطمة » وكأنما تعبر له عن استبشارهم بقدومه ، وتفاؤلهم به .

وأحس هو بالفخر يهز جوانب نفسه ، إحساساً عوضه عن الأزمة النفسية التي عاش فيها منذ وصله خبر وفاة عمه ، واسترد هدوءه شيئاً فشيئاً ، بعد التحول الذي أحس به في جو الأسرة خلال هذه الفترة القصيرة ، وأيقن أن قراره السريع بالعوده قد جاء محكماً ، وفي وقته المناسب ، وعاوده

الحافز القوي في إلحاح يدفعه إلى الإلتفات إلى « فاطمة »
يرى في وجهها ما يؤكد صدق انفعالاته ، ويرضي إحساسه
بمدى تأثرها بقدومه ، إرضاء يعلى من شأن نفسه ، ويرفع
من قدرها ، إذ أتيح له أن يكون المنقذ من الحزن .

ووجد أخيراً ما يتعلل به للالتفات إليها دون إحراج
لها ، فقد كانت تمسك بيدها قدح الليمون الذي طلبته ،
وقد ظهرت الفرحة الغامرة على كل من حولها لبارقة

التفاؤل التي لاحت في جو الأسرة . وهاله التحول الذي
رآه على صفحة وجهها ، والذبول الذي ظهر على رونق
هذا الوجه ، بقدر ما أبهجه النضوج الذي ظهر على سماتها

ومع ذلك فلم تعد نظرته تلك النظرة القديمة البسيطة ،
دون تزويق أو تزيين ، ودون تماد في الخيال إلى أبعد
من الحقيقة التي يلمسها :

هذه « فاطمة » الصبية الصغيرة التي كانت تنتظره عصر
كل يوم لدى عودته من المدرسة ، حاملا لها قراطيس
الحمص واللوز ، إنها لم تكبر في إحساسه كما كبرت في الواقع
الذي يراه ، وشعر بنفسه وهو يرقبها بنظراته المشوقة ،
وكأنه عاد إلى صباه ، وأحس بخفقان قلبه ، وهو يستعيد

ذكرياته البعيدة مع ابنة عمه ، هذه التي تجلس أمامه على استحياء ، وقد أسبلت دثارها على جسدها ، فلم يظهر منها سوى وجهها المشرق ، وعينيها المعبرتين .

ترى ما احساسها وهي تراه ؟ . وهل استعادت الآن صورته القديمة وهو صبي صغير يلعب معها في سطح المنزل ، أو في الدهليز ، أو صورته وهو عائد إليها من المدرسة يحمل كتبه في يده ، وباليد الأخرى قراطيس « الحاجة » ومضاعفة خطواته عندما يلمحها تنتظره على باب المنزل ، فيرفع ذيل ثوبه جازاً عليه بين أسنانه ، يسابق الريح وهو متجه إليها .

إن تلك الانفعالات والدوافع لم تكن تشير إلا إلى شيء بدهي ؛ أدركه بعد أن اجتاز مرحلة الطفولة ، أدركه بالبداهة في فتوته الأولى ، وهو في مرحلة الدراسة الثانوية ، عندما كان فتي من الفتيان الذين يحمل عنهم أهلهم عبء التفكير والتدبـــير .

أدرك منذ ذلك الزمن أن « فاطمة » هدفه الرئيسي في الحياة ، وما عداها فوسائل للوصول إلى هذا الهدف .

كان « أحمد » آنذاك قد بدأ في تناول عشائه الخفيف ، في تثاقل ، وكأنما يؤدي عملا لا رغبة له فيه .

وما إن سمع صوت والده يستدعيه حتى هب واقفاً يلبى ندائه وأسرع يهبط الدرج حيث وجد أباه واقفاً ينتظره على باب الطابق السفلي ، بعد أن انصرف صحبه . وأشار إليه بالجلوس ، واتجه إلى مكانه المعتاد في صدر المجلس .

ودار الحديث بينهما فيما يجب اتخاذه من ترتيب جديد لحياة أسرة عمه .

١٨

ومع طلائع الصبح الجديد ، دبت الحركة في المنزل : بدأت بأحاديث خافته بين الأمهات في الطابق العلوي من المنزل ، ولـكن سرعان ما اسـتبانت ووضحـت بالاستعدادات التي صحبت تلك الأحاديث .

وعرفت « زينب » و « زين » أن أسرة عمها ستنتقل من هذا المنزل ، وأن حياة الأسرتين ستصبح منذ اليوم واحدة .

وبقدر ما أسعد « زينب » هذا الانتقال الذي سيتيح لها الاختلاط الدائم بابنة عمها ، إلا أن « زين » الصغيرة قد استشعرت الأسى لهذا الانتقال ، فسيحرمها من غير شك فرصة الترويح عن نفسها ، بتلك الزورات المتعاقبة لبيت عمها ، تلك الزورات التي كانت تقوم بها مرتين ، أو ثلاث مرات في الأسبوع ، وسيحرمها قبل كل شيء من استعراض السوق ، والأزقـة ، والساحة التي تمر بها ، في ذهابها وإيابها .

وكان الشيخ « عبد الرحمن » وابنه « أحمد » يقفان بدهليز المنزل ، يرتبان أمور النقل ، مع الحمالين الذين استدعوا لنقل الأمتعة إلى المنزل الآخر ، ويشرفان على إنزال الأثاث ، وربطه ، وحزمه ، بعد تجميعه بالدهليز .

ولم تكن « فاطمة » تعرف من الأمر شيئاً ، كل ما أدركته وهي مستلقية في مكانها القصي من المجلس ، سريان حركة غير عادية بالمنزل ، لم تألفها في الأيام الأربعة الماضية

وامتداداً لأسلوبها في الحياة مع أبويها لم تعن بالاستيضاح عما يجري أمام عينيها ، وحرصاً منها على انتهاج هـذا الأسلوب لم تسأل أحدا من ذويها ، عما غمض عليها من أمور جديدة ، تراها تتخذ على مرأى منها .

فلقد سارت حياتها في السنوات الأخيرة على هـذا الأسلوب ، حتى أصبح جزءاً من سلوكها مع والدتها ، ومع والدها قبل وفاته .

أما طفولتها الآمرة الناهية ، تلك الطفولة التي كان يسعد بها أبوها في قرارة نفسه ، فقد سلختها من حياتها فجأة كأي ثوب استنفد أغراضه ، كان ذلك منذ أعوام ، تستطيع

« فاطمة » أن تحدد زمانه ، هو اليوم الذي عقد فيه قرانها على « أحمد » لقد كان ذلك قبل ست سنوات .

في ذلك اليوم أحست « فاطمة » بأنها اجتازت طور الطفولة ، إلى طور آخر جديد . وبالرغم من أن الفارق بين المرحلتين ، لم يكن غير فرق معنوي غير محسوس ، خاصة وأن حياتها ستستمر على نظامها السابق في بيت أبيها ، إلى أن يعود « أحمد » بعد انتهاء دراسته ، إلا أنها ودعت إحساسها بالطفولة من ذلك اليوم .

ظهر ذلك في تصرفاتها ، وأحاديثها ، وحركاتها .

وكان ذلك سبباً في تساؤل والدها وحيرته ، حينما ينفرد مع زوجته « صفية » :

« لقد تغيرت « فاطمة » منذ يوم عقد قرانها ، وإني أراها صامتة لا تتحدث كثيراً ، ولا تلح في أسئلتها ، هل في الأمر شيء ؟ » .

وتجيبه « صفية » بشعور المرأة التي مرت بهذه الفترة :

« إنها عروس منذ ذلك اليوم ، لقد أصبحت سيدة منزل ، فلا أقل من أن تظهر بهذا المظهر ، إلى أن تعتاده

على مر الزمن ، ويوم تدخل بزوجها تكون قد استكملت أوصاف ربة البيت » .

ويتساءل الأب في ارتياب :

« هكذا في طرفة عين ! ! تغير مفاجيء من طور إلى طور ! ! إنها لم تنتقل بعد إلى بيت زوجها » .

وتضحك الأم قبل أن تجيب بقولها :

« ليس في الأمر غرابة ، سوف يحل ذلك اليوم ، وهي تعد نفسها منذ الآن ، بل منذ الطفولة ، إن سيادة المنزل منتهى الطريق لكل بنت » .

وقد ألف الأب هذا التحول ، وتعوده بمرور الأيام ، وإن كان يأسف في لحظات وحدته على الطفولة الراحلة ، طفولة « فاطمة » التي كانت تفيء عليه بفيض من ظلالها الوارفة ، فتنسيه هجير الحياة ، وربما دفعه هذا التطور الذي لحظه على سلوك « فاطمة » إلى التفكير في نفسه ، وأنه هو ذاته أصبح بالتبعية جداً لأطفال « فاطمة » .

(وإذا كانت « فاطمة» قد استشعرت سيادة البيت

منذ الآن ، ويتبع ذلك شعورها بالأمومة ، فلا أقل من أن تنظر إلى كجد لأولادها).

وتجاوباً مع تسلسل الأفكار المنثالة عليه ، يسائل نفسه :

(ما واجبات الجد نحو الحفيد ؟ وما إحساسه نحوه ؟ هل يحبه كحب أبنائه ؟ وهل يتساوى الحفيد مع الوالد في احتلال الدرجة السامية في نفوسنا ، أو يقل درجة لبعده عنا ، أو أنه يزيد درجة لأننا نتمثل فيه الوالد ، فيتبلور فيه جميع ما نحس به من الحنان والحب ؟) .

* * *

بهذا الأسلوب من الرضا ، والاقتناع ، والصمت ؛ تلقت « فاطمة » الحركة التي سرت في المنزل ، منذ صباح هذا اليوم .

وربما افترضت في سرها هدف ما يجرى أمام نظرها ، وربما وصلت إلى الحقيقة وهي انتقالها ووالدتها إلى بيت عملها ، إلا أنها آثرت الصمت ، فقد كان ذلك مقدراً لها بوفاة والدها .

وبمرور الوقت وهي صامته ومستلقية في أقصى المجلس ، تأكد لديها ما افترضته في ذهنها منذ الصباح ، إذ أن قفل

الصناديق بعد ترتيب الأمتعه بها ، لا يعني سوى الإنتقال من هذا المنزل .

وكان الشيخ « عبد الرحمن » قد عرض أمر الإنتقال على « صفية » ، منذ أن تم الإتفاق بينه وبين « أحمد » في الليل . كان ذلك ذلك بعد تردد منه ، بين أن يتحدث في الأمر مباشرة ، أو أن يمهد له « أحمد » بأسلوب ومقدمات تهيىء له الجو الذي يتحدث فيه .

ولم يكن يحس في تردده بأدنى شك ، في قبول « صفية » للأمر الواقع على قسوته ، وإنما كان يخشى ضعفه أمام الموقف الحزين حينما يبدأ حديثه في هذا الأمر ، ولقد تحدث بكلمات متقطعة ، أراد بها أن يلمس مدى الاستجابة لطلبه .

وأجابته « صفية » في نبرة حزينة ، وهي تنظر إلى الأرض :

ـ لا مناص لنا من الرحيل عن هذا المنزل ، وسوف نتقبل الواقع راضين ، ورعايتك لنا ستعيننا ـ من غير شك ـ على اجتياز هذه الأزمة .

واختنق صوتها بالبكاء ، وهي تقول في صوت خافت لا تبين كلماته :

– لقد آن الأوان لنترك هذا المنزل ، فلم يعد لنا فيه بغية أو رغبة ، وكيف نسكن فيه وحدنا دون رجل ؟! سنكون معك ، وتحت رعايتك .

ولم يستطع الشيخ « عبد الرحمن » أن يرد عليها بكلمة ، فقد شعر هو الآخر بالاختناق ، وأحس بضربات قلبه تتتابع في قوة وعنف ، وأكبر في نفسه هذه المرأة التي تقف أمامه .

إن ما تعانيه أضعاف ما يعانيه هو من الحزن ، ومع ذلك فإنها تقف صامدة للرزء ، وتفكر في أمور حياتها على نهج سليم ، لم يؤثر في سلامته فجأة الحادث .

لقد تبدلت حياتها في لحظة واحدة ، من سعادة عريضة وطمأنينة ، إلى قلق ، ووحدة ، وتفكير ، ومع ذلك فقد قابلت الموقف بقوة الصبر ، وتقبلت أحكام القدر بقوة الاحتمال ، وواجهت الواقع المر بنفس راضية مطمئنة .

إنها أمامه الآن ، ولا شك أنها تمثلت في هذه اللحظة العابرة حياتها السعيدة ، التي أمضتها في هذا المنزل ، تحت كنف زوجها ورعايته ، حياتها الحافلة بكل ألوان السعادة ،

لقد أصبحت تلك الحياة ، بأيامها ، وساعاتها ، ودقائقها ، قبضة من رماد، هي هذه الذكريات التي لا يستغرق استعراضها سوى لحظة قصيرة ، تتمثل فيها كل تلك الحياة العريضة .

وتركته « صفية » بعد هذا الحديث العابر في الليلة الماضية، وعادت إلى مجلسها بعد أن أحست بانهيار أعصابها ، وفي استلقائها على فراشها بجانب « فاطمة » أحست كأنما تخلت عنها ثقتها بنفسها لأول مرة ، منذ وفاة زوجها ، وشعرت بالضعف بعد القوة التي كانت تبدو في تصرفاتها ، أمام أفراد الأسرة ، وكادت تجهش بالبكاء ، لولا خوفها على « فاطمة » المستلقية بجانبها .

فأدارت نفسها على الجانب الآخر ، ومسحت دموعها المنسابة على خديها بتحفظ وحذر ، ولم تنس وهي في هذه الحالة أن تلقي نظرة عابرة على سقف المجلس، وعلى جداره ، أودعتها كل أحاسيسها الحبيسة ، التي وارتها طوال أربعة أيام ، خلف ستار من التماسك والصبر ، حجبتها عن أعين الأقربين ، هي نظرة الوداع ، تتزود فيها بما ينقع غلتها ؛ ويبل صداها في مقتبل الأيام .

وغداً سوف تنتقل مع ابنتها إلى منزل الشيخ « عبد الرحمن

وتبدأ بذلك مرحلة جديدة ، بعد مرحلة طويلة ، قضتها في هذا المنزل ، الذي شهد أيام صفائها ، ولحظات سعادتها ، وستطلق عليه حتما « منزل السعادة » .

وبازدياد الحركة تحركت « فاطمة » فوق فراشها ، وأشارت إلى أمها التي جرت إليها في لهفة ، وأصغت إلى حديثها بانتباه وتيقظ ، وتساءلت « فاطمة » عن سر ما يجرى أمام عينيها . وأجابتها أمها :

ــ سوف ننتقل إلى بيت عمك، وهل في ذلك ما يؤلمك يا « فاطمة » ؟ هو رجلنا ، وغداً سوف ينتهي « أحمد » من دراسته .

وأغمضت « فاطمة » عينيها ، وراحت في إغفاءة بين الصحو والنوم .

وقبل مغرب ذلك اليوم . كانت سيدات الأسرة يأخذن طريقهن إلى البيت الآخر ، وكانت « فاطمة » تسير متمهلة ، وهي مستندة إلى يدي بنتي عمها . وكان الشيخ « عبد الرحمن » آخر من بارح المنزل ، بعد أن أقفل بابه .

وفي نهاية الصف كانت « صفية » تسير متخاذلة ، وقبل

أن تجتاز الخطوة الأخيرة من الساحة ، التفتت تنظر إلى المنزل . وانفلتت من عينيها دمعة ، أحست بحرارتها ، وهي تنساب على خدها . فسارعت إلى المنديل تمسح به آثار الدمعة.

١٩

وسارت الأيام في طريقها المرسوم . وسار في تيارها أفراد هذه الأسرة. يحسون بها إحساساً خاصاً، ويستشعرون فيها مدى الفارق بين الماضي والحاضر .

لقد تغيرت حياة أفرادها ابتداء من الشيخ « عبدالرحمن» كبير الأسرة ، وعميدها . إلى « زين » الصغيرة التي لم تتعد بعد الحادية عشرة من عمرها . هذه التي أحست أن حياتها منذ وفاة عمها ، قد اختلفت اختلافاً بيناً عنها قبل وفاته .

فقد كان الماضي في نظرها ينبض بالحياة ، والحركة ، والقوة . كانت تحس بذلك في بسمة من بسمات أبيها أو ضحكة من أمها . أو مزاح مع أختها « زينب » . وكانت تحس بذلك في زوراتها لبيت عمها « عبد الرحيم » في صحبة أختها الكبرى ، حيث كانت تقضي فترة العصر في ذلك البيت ، الذي كان يضج بالحركة ، والحبور ، والضحك ، عند اجتماعها بأترابها من فتيات الأقارب والجيران .

أما الآن فحياة جديدة في كل سماتها . جديدة في هذا العبوس ، الذي اتسم به وجه أبيها في الآونة الأخيرة . وجديدة في هذا الحزن الوافد على البيت ، والذي شمل جميع أفراد الأسرة . كما أن انتقال عائلة عمها وسكناها معهم في منزل واحد ، قد حرمها تلك الزورات البهيجةالسارة.

و « فاطمة » تلك التي كانت مصدر سرورهن ، ومدار أحاديثهن الضاحكة . لقد أوغلت في الحزن ، وبدت كأنما هي فتاة ليس فيها من « فاطمة » شيء : صامتة حزينة . ترى أتبحث عن شيء مجهول في عالم مجهول ؟ ! وما هذا الشيء ؟ .

لقد أحست « زين » قبل أي فرد من أفراد هذه العائلة بتجمد حياتها ، وحياة الأسرة . كأنما توقف الزمن عن السير بعد ركضه المستمر . لقد شاب الزمن ، وعجز عن السير ، وآية ذلك توقف حياة الأسرة في نقطة معينة ، ودورانها في حلقة صغيرة :

طاحونة الحياة تلف وتدور ، والأسرة بجميع أفرادها تمثل الثور الذي يدور مغمض العينين إلى اللانهاية .

لا تجديد في الحياة ولا تطور مع الأيام . صورة واحدة

مكررة ، ومنظر واحد يكرر نفسه : الأكل ، والنوم ، وما بقى بعد ذلك ففي التفكير ، والصمت ، والحزن تحس به ثقيلا مضنياً ، كأنما استنفدت الأيام طاقتها من البشر ، والبهجة والإيناس .

صفحة جديدة من الحياة لم تعهدها هذه العائلة من قبل .

وكان الشيخ « عبد الرحمن » أشدهم إحساساً بالرزء ، وأولهم استجابة لآثاره ، وبالرغم من مقاومته ، وتحامله على نفسه ، وتظاهره بغير إحساسه الحقيقي ، إلا أن الشواهد تكذب إدعاءه المصطنع .

هذه الشواهد التي تمثلت في هزاله ، وتغضن خديه ، وابيضاض شعر رأسه وعارضيه ، وفي النظرات الشاردة المسترسلة ، حينما يقع نظره على « فاطمة » أو « صفية » . إنهما تذكرانه بأخيه الراحل ، الذي كان الجزء الثالث لهذه الأسرة الصغيرة .

ولقد شعر عندما استأنف ذهابه إلى الدكان بعد مرور بضعة أيام ، منذ وفاة أخيه ، بالفراغ الكبير الذي تركه أخوه . لقد افتقده من الجلسة الأولى عندما بدأ المستبضعون

من الزبائن في التوافد على الدكان ، ومساومته في الجيد والأجود .

لم يجد في نفسه الصبر الطويل على الأخذ والرد ، والشد والجذب ، مع هؤلاء الزبائن . ولم يكن في مقدوره أن يرسم على ثغره الابتسامة المشرقة ، مثلما كان يرسمها أخوه بإحكام وإتقان ، وهو يناقش الزبائن . شد ما آلمه ذلك ! وخاصة عندما ترتسم أمامه نهاية الطريق ، أو النتيجة التي يتوقعها كنهاية سيصل إليها هذا المحل التجاري .

سوف ينفض الزبائن تدريجياً عن هذا المحل ، بعد أن كان مقصدهم ، يعج بهم طيلة النهار . وسيتوارى هذا المحل – إن قريباً أو بعيداً – عن الأنظار ، وينساه الزبائن ، ويصبح في وقت ما تاريخاً وذكرى ، لشيء كبير غاب عن الوجود .

ولم يكن يؤلم الشيخ « عبد الرحمن » ما سيئول إليه المحل من كساد ، قدر ما كان يؤلمه هذا التغير المنتظر في حياة الأسرة .

ذلك أن تاريخ هذه الأسرة قد اتصل منذ زمن في حلقات

متتابعة ، مرتبطة بالتجارة . كما اجتاز هذا المحل التجاري مراحل متطورة ، متغيرة ، حسب الظروف ، والأحوال الاقتصادية ، وكثيراً ما مر بمراحل كساد وفتور ، ولكنه سرعان ما يستعيد مكانته في السوق ، حتى أصبح له بمرور الأيام رنيناً قوياً ، كرنين الذهب الصافي .

إلا أن هذه الفترة الجديدة ، التي بدأت منذ وفاة « عبد الرحيم » لم تكن كالفترات السابقة ، « سحابة صيف ثم تنجلي » وإنما سيتقرر فيها مصير تاريخ هذه الأسرة في المستقبل .

فالشيخ « عبد الرحمن » ذاته قد نفض يديه من الأمل القوي الذي يدفعه إلى مضاعفة جهده . وإن ضاعفه تحت إلحاح الظروف ، بمعاونة الصبيان الذين استخدمهم في الدكان فإنه ما يلبث أن يتخلى عن المهمة بعد حين ، لينزوي في ركن من أركان بيته ، يستجر ذكرياته الماضية ، ويزدرد آلام حاضره .

ليس هناك في الأسرة من سيحل بدلا عنه في القيام بشئون تجارته ، فابناه قد توجها لدراسة أبعد ما تكون عن التجارة ، وسيكون مستقبلهما مرتبطا بهذه الدراسة التي ستباعد

بينهما وبين ممارسة هذا العمل التجاري ، ومواصلة السير فيما سار فيه رجال الأسرة من قبل .

ولم يكن الشيخ « عبد الرحمن » يفكر في سعة الحياة ، ورغدها ، إذ أن ابنيه سيكون في وسعهما أن يوفرا هذا الجانب ، وإنما كان تفكيره منصرفا إلى تتبع تاريخ أسرته في التجارة. تاريخها الذي وعاه من أبيه وجده في مجالسهما .

لقد كان تاريخاً حافلا بالكفاح المرير ، والجهاد الطويل . وكان تاريخاً يتسم بالأمانة والإستقامة ، وهما رأس مال التاجر . هل قدر لهذا التاريخ أن ينتهي في هذه الفترة ، وتبدأ الأسرة حياة جديدة تبعد بها عن ماضيها ؟ وهل قدر أن يكون هو ذاته الصفحة الأخيرة من هذا التاريخ ؟ .

لا شك أن الظروف قد رسمت هذه النهاية بالرغم منه . رسمتها بعناية وإصرار ، منذ أن أختار كل من « أحمد » و « يحيى » مواصلة الدراسة في ميدان يبعد بهما عن مواصلة العمل التجاري ، الذي ارتبط به تاريخ أسرتهما منذ زمن بعيد .

واستسلم الشيخ « عبد الرحمن » للأمر الواقع بنفس قلقة

حزينة ، تتعجل النهاية ،وتنتظرها . فمواعيد ذهابه إلى الدكان قد لحقها التغيير ، وشملها التبديل . كان يحس بثقل الجلوس فيه وحده ، ويهرب من الانفراد بنفسه . كأنما يخشى أن يواجه مكان أخيه وقد خلا منه . حتّى أصبح بقاؤه في الدكان لا يتعدى ساعة قبل الظهر ، وساعة بعد العصر ، وما تبقى من الوقت كان يترك فيه الصبيان يباشرون العمل ، ويقدمون إليه الحساب اليومي ، في مطلع كل مساء .

أما نظام البيت الذي يضم الأسرتين معاً ، فلم يلحقه تغيير يذكر : خصص الطابق الأوسط منه لـ « صفية » وابنتها « فاطمة » . وبقى الطابق الثالث تشغله أسرة الشيخ « عبد الرحمن » بينما أعد الطابق الأول لاستقبال الزائرين .

أما جوانب الحياة الأخرى فقد سارت على النظام الذي ارتضته « صفية » واقترحته ، مما يتواءم مع رغبات رب الأسرة ، وعميدها ، ويتمشى مع الظرف الجديد الذي أحاط بهذه العائلة . حياة أسرة واحدة في معاشها . ونظامها المعيشي اليومي .

ولم تمض بضعة أيام على امتزاج الأسرتين ، حتّى كان التوافق تاماً في الرغبات ، والاتجاهات ، فلم تكن هناك

اختلافات في جانب من جوانب هذه الحياة الجديدة ، التي ارتضتها الأسرة في تاريخها الجديد .

ربما كان هناك دافع خفي يسير الحياة على هذا الوجه . وإذا بحثنا عن التفسير نجده واضحاً في إيمان المرأتين اللتين تشرفان الآن على حياة هذه العائلة : إيمانهما بالحياة ، وعلى أنها أقصر من أن تتحمل الاختلاف على عرض زائل ، وعلى أنها – إلى جانب ذلك – وسيلة لوضع أساس قوي لجيل الأسرة المنتظر . وإيمانهم بضرورة استمرار الترابط بين أفرادها في الحاضر ، والمستقبل ، كما كان في الماضي ، أو أكثر ، لا يكون للاختلاف بينهم مكان ، ولا للشجار بينهم مجال .

وهذه الحياة – على كل الأحوال – لها خط سير مرسوم ، يتعين علينا أن نستمر فيه ، رضينا أم أبينا . وقد تتبدل الحياة في لحظة ما من النقيض إلى النقيض ، ومن طرف إلى آخر ، ودوام الحال من المحال .

و « صفية » ذاتها عندما تتساءل في سرها عن هدفها في هذه الحياة . لا تجد ما يقنعها بوجود هدف حقيقي ، تسعى إليه كأنما انتهت حياتها يوم وفاة زوجها ، أو كأنما أصبحت حياتها واجباً تؤديه ، لا رغبة تحققها ، فهي لم

تكن تنظر إلى هذا العالم الواسع ، إلا من وراء نظرة زوجها كانت ابتسامة نافذة. تطل منها على سعادة الحياة . وكان حديثه ــ وما أكثر أحاديثه ــ«طاقة» تشاهد منها العالم الذي يحيط بها . العالم الذي لا تدري من أمره شيئاً ، لولا تلك الأحاديث . لقد كانت تحس بالحياة إلى جانبه ، جنة واسعة ، تزينها الأفراح المتجددة .

هذه الأفراح التي تتمثل لها في تفاؤله الدائم بالمستقبل ، وابتسامته لكل يوم جديد، واستبشاره بكل غد مجهول . لقد حمل عنها عبء التفكير في المستقبل ، وعبء التدبير لكل أمور الحياة المتجددة .

أما الآن . . وبعد أن وارى التراب جسد الزوج الحبيب ، وهو في أوج شبابه ، وقمة تفاؤله . ماذا بقي لها في هذا العالم ؟ حتى ابنتها التي تمثلت فيها منتهى آمالها ، وتركزت فيها كل رغباتها في الحياة . تراها الآن دائمة التفكير ، شاردة النظرات ، حزينة في كل أوقاتها .

وارتسم في ذهن « صفية » سؤال حائر :

(ما نهاية هذا الحزن ؟ وما أسبابه ؟) .

وبقلق الأم ، وحنانها ، وانشغالها ، كانت تفترض الفروض التي تقودها في النهاية إلى اليأس من « فاطمة » ، ولكنها تسارع وتبعد هذه الأفكار عن ذهنها ، وتزيحها بقوة عن مجال تفكيرها .

وبحنان الأم ، وعطفها كذلك ، تعود فترسم لابنتها مستقبلها النضير ، مع ابن عمها .

(بعد ستة أشهر فقط ، تتوج أمانيها بالزفاف المنتظر . يد من البهجة والسرور ، ربما تزيل عن جو الأسرة لمحات الكدر ، التي ظهرت في أفقها) .

وهكذا سارت الأيام بطيئة متثاقلة ، و« صفية » حائرة في بحر من الافتراضات ، والأخيلة ، والأوهام ، تشابك بعضها بالبعض الآخر. حائرة . . تنتظر الجواب ، وتستشرف الغد المجهول قبل حلوله .

ولو سئلت « فاطمة » عن سر وجومها الدائم ، وحزنها العميق ، لأعياها الجواب .

ذلك تاريخ يستعصي عليها تتبعه ، والتوصل إلى جذوره العميقة ، الموغلة في أعماق نفسها . لقد أحست يوم

أن عقد قرانها على « أحمد » بالخوف من المجهول . هذا الغيب الذي لا تعرف من أمره شيئاً . ويوم أن سافر «أحمد» بعد أن طوى الحقبة الرتيبة من حياته في أرض وطنه ، ليواجه حقبة أخرى بعيداً عن بلده ، توقعت « فاطمة » أن يتكشف لها الغيب خلال هذه الحقبة التي ستطول ، عن مفاجآت بالنسبة إليها .

لقد ارتبطت حياتها بحياته . ولكن . .

ولاح لها الخوف في صورة سؤال يلح عليها في وحدتها :

(ترى . . أيتغير « أحمد » ؟) .

ومنذ ذلك اليوم . منذ أن أسلمت قيادها للمقادير ، ووطنت نفسها على الترقب والإنتظار ، بدا لها المستقبل أشبه ما يكون بالصحراء الواسعة ، التي لا تجد لها نهاية ،. وهي وسط الصحراء تائهة . نقطة صغيرة يعز على العين المجردة رؤيتهـا .

وظلت تترقب . . عاماً فعامين ، وبدأت الصورة الجميلة التي تخيلتها منذ الطفولة الباكرة تهتز في إطارها ، وتلفحها حرارة الأفكار ، وهجير الأوهام .

وبمرور الأيام أحست بعقدة الخوف تسيطر على نفسها ، وازداد بذلك تساؤلها ، واشتد قلقها :

(أين رسائله ؟ لقد بدأت الفترات تتباعد بين كل رسالة وأخرى . على عكس العام الأول الذي كانت رسائله تترى خلالها متتابعة ، في أسلوب مستفيض ؟) .

لقد كان يصف فيها كل لحظة تمر عليه في غربته . وكانت ترى صورة نفسه في خطاباته ، وكانت تعرف أنه بإفاضته في الكتابة إنما يصف نفسه لها . لقد كان متوكداً أن هذه الخطابات تقارير يقدمها لمن يهمه أمره . وكانت الخطابات تسير في خط مرسوم ، يبدأ بوالده ، وينتهي بـ « فاطمة » ، وهي وحدها — دون أفراد الأسرة — تعيد قراءة الخطاب مرات ومرات ، إلى أن تصل إلى قراءة ما بين السطور .

لقد كان ذلك في العام الأول ، أما ما تلا ذلك من أعوام فلم يكن بين سطور خطاباته ما يقرأ : السلام ، والسؤال عن الصحة ، والأحوال ، ولا شيء غير ذلك .

وباهتزاز الصورة الجميلة التي تخيلتها بدأ شعورها بالأمن

يحتل هو الآخر . وبموت والدها . ذلك الشعاع الذي خبا بعد أن كان يضيء لها ظلام نفسها في فترات يأسها . بدأ أملها في المستقبل الذي رسمته يتخاذل ، ويتضاءل ، ويقودها إلى اليأس القاتل .

ويوم قدوم « أحمد » المفاجيء ، وقفت حائرة أمام نظراته . . هذه النظرات الخاطفة لم تستطع أن تفسرها على وجه يرضي ترقبها ، ورغبتها . وألح عليها السؤال الحائـــر :

(هل تغير ؟) .

وظلت تبحث خلال الأيام القليلة التي قضاها « أحمد » بينهم عن جواب لهذا التساؤل . . وذات مساء . . بعد مرور ستة أيام من قدوم « أحمد » . تساءل الشيخ « عبد الرحمن » وهو في مكانه القصي في صدر المجلس :

— متى ستعود إلى مصر ؟ .

وكان يوجه الحديث إلى « أحمد » الذي أجابه :

— بعد غد إن شاء الله أتوجه من جدة .

وانصتت « فاطمة » إلى الحديث ، وهي جالسة في الطرف الآخر بين « زينب » و « زين » .

وواصل « أحمد » كلامه قائلا :

– لقد مر الكثير ولم يبق إلا القليل . ستة أشهر فقط ، وأعود إليكم .

وتراءى لـ « فاطمة » – لأول مرة منذ أعوام طويلة – خيط من الأمل الرفيع ، واستيقظت نفسها اليائسة على شعاع خافت .

والتفتت بحذر تتابع الإصغاء إلى الحديث .

ولكن الحديث توقف فجأة عندما وصل إليهم « إبراهيم » و « عصام » يستدعيان « أحمد » فقام مستأذناً من أبيه ليستقبل صديقيه .

٢٠

توالت رسائل «أحمد» على أسرته منذ عاد إلى مصر في المرة الأخيرة .

وكانت رسائله صورة من نفسه القلقة . لقد تمثلت له الحياة العريضة التي شيدها في خياله نقطة صغيرة ، تبلورت فيها كل رغباته في السعادة المقبلة ، وكان هدفه ألا تتلاشى هذه النقطة ، وسط الأمواج الجارفة . وحمل رسائله كل ما يشعر به من قلق على صحة « فاطمة » .

صورته الأولى عندما سافر لأول مرة إلى مصر ، تتكرر في خطاباته . كأنما كانت الفترة القصيرة التي قضاها بين أهله فترة نقاهة ، عقب مرض طويل . أحس فيها باليد الحنون التي تحوطه ، والعين الساهرة التي ترعاه ، وأطلت معان جديدة من بين سطور خطاباته ، تعبر عن روح «أحمد» الطفل الذي يتعجل المجهول من مستقبله .

وكانت رسائله المتتابعة نقطة التحول في محيط الأسرة ، فقد بدأت « فاطمة » تتسمع إلى الجواب الذي طالما بحثت عنه في أعوامها السابقة عن سؤالها الحائر .

لقد تلقت الجواب متأخراً عن موعده ، ولكنه يؤكد أملها في المستقبل ، وانجابت السحب من سماء الأسرة شيئاً فشيئاً عندما بدأت « فاطمة » تشارك أفرادها حياتهم الطبيعية ، وبدأت تحتل مكانها في البيت ، وتشارك بنتي عمها الإشراف على شئون المنزل ، والقيام بتنظيم أموره .

و بدا الشيخ « عبد الرحمن » وكأنما استعاد شبابه : لقد أحس بالحياة الحقيقية مرة أخرى ، بعد أن فقد هذا الإحساس فيما مضى من شهور .

ونسي في غمار فرحته تلك الفترة التي مرت عليه ، عقب وفاة أخيه . وأحس كأنما عاد يبني كيان أسرته على أسس يرسي عمدها في جوف الأرض : غداً سيعود « أحمد » ويتسلم قياد الأسرة . هذه الأمانة التي حملها هو منذ أعوام طويلة .

وكأنما اطمأنت نفسه لهذه الخاطرة المشرقة ، التي أهلت عليه هذا الصباح ، وهو يتصدر المجلس ، ويحتسي الشاي ، بعد تناول الإفطار . لقد أحس – حقيقة – كأنما قبض على الأمل بكلتا يديه .

قال وابتسامة عريضة ترتسم على ثغره .

ـ لقد تأخر « أحمد » . فقد مضى أسبوع منذ إعلان نتيجته ، ولم نتلق منه إلى الآن إفادة بموعد توجهه إلينا .

ورددت عليه « خديجة » بعد أن تمثلت مقام ابنها «يحيى» وحيداً بعد قدوم « أحمد » :

ـ إن « يحيى » مسكين . سوف يبقى وحيداً في مصر .
فرد عليها وفي لهجته توكيد لما يقول :

ـ إني واثق بأنه سيشق طريقه في يسر وسهولة . إن « يحيى » ابن زمانه .

وبقلب الأم المتلهف تساءلت :
ـ ومتى سيتخرج هو الآخر ، ويعود إلينا ؟ .
فابتسم الشيخ « عبد الرحمن » قائلا :
ـ متى تنتهي من هذه الأسئلة ؟ سوف تمر السنوات ويتخرج كأخيه . إننا الآن في انتظار الأكبر . دعينا نتفرغ لهذه الفرحة . وأعدك بالجواب بعد وصول « أحمد » .

وحل يوم قدوم « أحمد » وازدان المنزل بالأضواء .
وكان الطابق الأول قد أعد لاستقبال الرجال من أصدقاء الشيخ « عبد الرحمن » ، وأصدقاء « أحمد » ، وذوي القربى

والجيران . وبدا « إبراهيم » بين الشبان من أصدقاء «أحمد» فرحاً بلقاء صديقه ، يترقب وصوله بين لحظة وأخرى ، وكثر تردده على النافذة ، مرسلا نظره عبر الزقاق الطويل يستطلع أخبار وصوله .

ووصل « أحمد » واستقبله أصدقاؤه ، وأصدقاء أبيه بالترحيب ، وكان « إبراهيم » أسبقهم في هذا المجال ، حينما قفز من مكانه ، واحتضن « أحمد » ثم ارتد خطوة إلى الوراء ، وهو ينظر إليه وعلى ثغره ابتسامة عريضة ، تعبر عن فرحته لهذا اللقاء .

واستعرض « أحمد » بنظرة سريعة جميع مستقبلية :
(هذا « إبراهيم » وهذا « عصام » ، وهذا الشيخ « سالم » ، وصف طويل من المعارف والأقرباء ، وغداً ينضم « حسين » إلى هذه المجموعة ، وتعود الحياة إلى سابق عهدها) .

واستعاد ذهنه وهو يرى هذا الجمع ، ما قاله « إبراهيم » قبل عامين :

(غداً سنعود إلى « زقاق الكرات » ، و « برحة القرارة » « وسويقة ») .

مرحلة تتلو مرحلة . والحقيقة تزرى بالخيال . والواقع يحجب الذكريات :

(أمسيات الصيف على « شاطيء النيل » وشمس الشتاء في « حدائق القناطر » . والأضواء المتلألئة في « شارع فؤاد » ، ومنزل الدقي ، وفناء الجامعة ، وزميلي « مصطفى » و « فايزة » . حقاً لقد دار الزمن دورته ، وعدنا إلى مكة) .

وكأنما أدرك « إبراهيم » سر نظرته فقال :

ــ وألقت عصاها . . . لا تفكر فقد سبقناك . خبرني كيف تركت مصر ؟ .

قال « أحمد » وهو يبتسم :

ــ كما تركتها أنت . لم يتغير فيها شيء .

(إبراهيم » نفسه لم يتغير فيه شيء ، نظرته إلى الحياة ما زالت هي النظرة المتفائلة ، وحديثه الباسم المرح لم تتغير نبراته ، ما أبهج أن نكون كذلك ! !) .

قال « إبراهيم » بعد لحظة صمت :

ــ ما أعجب الحياة ! ! قبل أعوام طويلة كنا نجتمع هنا ، في هذا المنزل . الأشخاص هم الأشخاص . ولكن

إحساسنا بالحياة قد تغير دون شك . لقد سرنا طويلا في دروب الحياة ، وها نحن الآن نعود كما كنا .

وجاءه صوت « عصام » وهو يضحك قائلا :

ــ لقد دارت الدنيا حقاً . « إبراهيم » أصبح فيلسوفاً ما هذه النظريات الفلسفية يا أستاذ ؟ .

ورد عليه « إبراهيم » قائلا :

ــ المنغصات تخلق الفلاسفة . لقد تزحلقت اليوم في « الزقاق » بملابسي النظيفة ، وحينما عدت إلى المنزل لتغيير ملابسي كان ينتظرني نقاش طويل حول الزحلقة ، طريقة السير في الأزقة الموحلة ، حادثان في ربع ساعة : زحلقة في الزقاق ، وخصام في البيت . لا أدري بمن اصطبحت هذا اليوم ؟ .

ثم مستدركا بقوله :

ــ ولكن قدوم « أحمد » أزال أثر الحادثين .

وتوقف عن الحديث عندما وصل إلى سمعه صوت بعض القادمين .

ودخل الشيخ « عبد الرحمن » يتقدم بعض أصدقائه الذين جاءوا للسلام على « أحمد » .

وظهر الضجر على سمات « إبراهيم » فهمس في أذن « أحمد » :

— ما هذا ؟ ستنقلب الجلسة الضاحكة إلى جلسة وقار . هيا بنا إلى الحجرة الأخرى .

ورد عليه « أحمد » في صوت خفيض :

— أمامنا الأيام . أراك في شوق إلى الضحك .

فقال « إبراهيم » :

— مما ألاقي . هذه أول مرة أضحك فيها من قلبي ، منذ قدومي . لقد اكتملت الفرحة ، وغداً نستقبل الزميل الرابع .

وهمس « عصام » من الجهة الأخرى في أذنه :

— لا أدري ما رأى والدك في الموضوع ؟ .

وأدرك « أحمد » ما يعنية صديقه فقال :

— لقد تم الاتفاق على أن يكون زفافك بعد مرور عام من وفاة عمي . لقد كتب لي والدي بهذا الرأي منذ شهر تقريباً .

وعاد « عصام » يسأله :

– وأنت ؟ .

قال « أحمد » :

– سيكون زفافي قاصراً على أفراد العائلة فقط .
بعد أسبوع منذ اليوم .

وأشار الشيخ « عبد الرحمن » إلى « أحمد » . الذي سارع إلى حيث يجلس أبوه ، وتدنى قليلا مصغياً إلى حديثه ، فهمس في أنه :

– أملك تريد أن تراك .

واستأذن « أحمد » من الجالسين ، ورقى درجات المنزل ، حيث تنتظره أمه ، وبقية أفراد الأسرة في الطابق الأوسط من الدار ، ووجد نفسه على غير وعي يردد سراً في كل خطوة يخطوها : « واحد ، اثنين ، ثلاثة » درجات المنزل يعدها في سره .

وأيقن أن «أحمد» الطفل قد تيقظ في أعماقه . واجب الطفولة يؤديه عن غير قصد . لقد كان هذا الواجب يؤديه بعد مغرب كل يوم في صباه . وأحس مع هذه الحركة

بالراحة والألفة ، لهذا المنزل الذي عاد إليه بعد غيبة طويلة .

وعندما نلقى عصا التسيار عقب رحلة طويلة مضنية ، ونستشعر الإستقرار المنشود ، والأمن النفسي ، يطيب لنا أن نستعرض الخطوات التي اتخذناها لتحقيق هذا الإستقرار الذي استهدفناه . وكثيراً ما ننزع في هذه الحالة إلى اتخاذ ميزان جديد نزن به ماضينا ، ونتساءل :

« هل أصبنا أو أخطأنا ؟ » .

لون من ألون التمرد النفسي على واقع سعينا إليه ، وكافحنا في سبيل تحقيقه .

وتساءل « أحمد » :

(هل أصبت أو أخطأت ؟) .

وفي الوقت ذاته لاحت له صورة « فايزة » من بين ضباب النسيان .

ذلك تاريخ طويل . وهل يرضيه أن يستعرضه في هذه الليلة ؟ .

وعبر التاريخ في لمحة ، وعاد يتساءل :

(هل ضحيت حقاً ؟ ولماذا ؟ وما الثمن ؟) .

السؤال القديم في هذه اللحظة السعيدة ، وفي هذا الجو الندي العاطر ، بانفاس ابنة عمه ، منتهى أمانيه ، وقمة آماله.

وعندما وصل إلى باب المجلس ، كانت أمه تقف في استقباله ، وبجانبها « صفية » ، وكانت « فاطمة » تقف بين أختيه ، وقد أطل بريق السعادة من عينيها المعبرتين ، وأدرك الجواب في عينيها :

(إن تكن قد ضحيت . . فأنا ثمن التضحية) .

وهدأت نفسه . . وتلاشى السؤال . . »